فتاة الحلوى

رواية

توفيق ، محمد .
فتاة الحلوى : رواية / محمد توفيق . ــ ط1. ــ القاهرة :
الدار المصرية اللبنانية ، 2010.
264 ص ؛ 21 سم
تدمك : 8 - 614 - 427 - 977 - 978
1 ــ القصص العربية.
أ ــ العنوان . 813
رقم الإيداع : 11817 / 2010

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202+
فاكس: 23909618 202+ ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : جمادى الآخر 1431 هـ ــ مايو 2010 م

فتاة الحلوى

رواية

محمد توفيق

الدار المصرية اللبنانية

هذا الكتاب مجرَّد لقطة ...

لتفقُّد الصورة بأدق تفاصيلها وتعدد مناظيرها وكامل تعقيدها ...

يمكنك الذهاب إلى www.candygirl-thebook.com

الفصل الأول

الجيزة الاثنين 8 يناير 2007

قبل أذان العصر بحبَّة

يتوقَّف الدكتور مصطفى محمود قرني – الشهير بالمخِّيخ – لحظة لدى خروجه من بوابة البنك، يتأبَّط حافظة صغيرة بها ما تبقَّى من تحويشة العمر، قد كسر الوديعة ونظَّف الحساب، لم يتعدَّ المبلغ خمسة عشر ألف جنيه وكسور... وكان يظنُّ أنه من ميسوري الحال، يمسح المنطقة المحيطة بنظرات مضطربة دعَّمتها نظَّارته الطبية التي احتلَّت نصف وجهه، شارع التحرير على فورانه المعتاد تحت رقابة بنايات رمادية كئيبة مزركشة بلافتات الأطباء والتوكيلات التجارية، في نهر الطريق البشر بالآلاف والمركبات تتناحر كعربات خيل في كولسيوم روماني، أطراف أغنية لنانسي عجرم تهفُّ عليه من أحد الدكاكين.

مئات الأعين تتقاطع معه، تضاعف من هواجسه التي تكاد أن تصل به لحد الجنون، كيف يفرِّق بين شاب فضولي وناضرجي لعصابة من الهجَّامين؟ كيف يحدد إن كان الجالس في المقهى يراقبه من وراء الصحيفة مخبر مباحث أم عميلًا للـ «سي آي إي»؟ الأمر المؤكد أن الخطر ينبض حوله من كل زاوية، يتربَّص به من وراء زجاج السيارات العاكس للضوء، يصوِّب نيرانه نحوه من أسطح البنايات، كل ما يتمنَّاه الآن أن تنقضي الدقائق أو الساعات التي

تفصله عن لقاء أجمل نساء الكون، أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد نفسه قد عاد إلى خنِّه في عالم القاهرة السفلي، أن يبتعد عن المدينة الرسمية ويعود لغرفته فوق سطح بناية مائلة في حي عشوائي هو لا يعرف حتى اسمه... أن يعود إلى أحضان «فتاة الحلوى».

يرتجُّ جسده فجأة، دفعة قوية من الخلف قذفته بضعة خطوات إلى الأمام، يستدير في هلع، يواجه رجلا مسنا يرتدي طربوشا، يرتجف جسد المخِّيخ النحيل تحت سترته الفضفاضة أكثر من اللازم، بصعوبة يسيطر على غضبه، يحدِّق الرجل فيه بهدوء، وجهه به سماحة تبدد غيظ المخِّيخ دون أن ينطق الرجل كلمة اعتذار، يذكِّر نفسه بالأخطار التي تتكالب عليه مع كل لحظة تمرّ، فيتجه إلى ميدان الدقي تاركا العجوز خلفه.

يسير مسرعا، يتلفَّت للوراء كل بضع خطوات، يصطدم بامرأة بدينة تصرخ في وجهه، يهمهم معتذرا بغير تركيز، يتركها، يلمح انعكاس جسده المندفع في واجهات المحلات، يدقق النظر في الزجاج العاكس لعله يكشف شخصا ما يتعقَّبه، لا يجد غير بشر يسيرون في تجهُّم معتاد... حياة المصريين تراشق وصراع تفصل بين جولاتها اللامبالاة.

فجأة يتجمَّد في مكانه.

سبق أن لمح المشهد بين صفوف الأحذية خلف زجاج دكَّان فات، لكن الآن هيئة المشنقة متبلورة لا ريب فيها، طائفة هناك بين ملابس المحجَّبات، الكابوس الذي حاصره طوال إجازة عيد الأضحى يلاحقه الآن في الشوارع، يطلُّ عليه من واجهات المحلات.

الإجازة قضاها يخور كخروف ذبح توا، فكان حبل المشنقة أكثر فتكا برقبته هو عن رقبة الديكتاتور المنهزم، مرَّت العطلة ببطء الكوابيس لكنها

ككل كرب انقضت، فانطلق المخِّيخ اليوم في الشوارع يضع خطَّته اليائسة موضع التنفيذ، خطَّة فراره الأخير، يُعدُّ العدَّة لأن يقطع ما تبقى من الصلات مع العالم الرسمي، ويهبط إلى الأبد تحت مستوى رقابة الرادار الأمريكي.

يرفض المخِّيخ أن يلعن حظه اليوم وهو متسمِّر في شارع التحرير أمام واجهة محل مخصص لملابس المحجَّبات، فقد أدرك منذ سنوات – حين قَبِل أن يربط مصيره بجزَّار اسمه صدَّام حسين– أن حياته أصبحت على كفِّ عفريت، لكن غضبه الآن موجَّه داخليا، كيف يسمح للأمل أن يتسرَّب إلى نفسه؟ لماذا وقف متفرجا طوال الأشهر الأخيرة بينما الشعور بالاستقرار يترسَّب تدريجيا في قلبه؟ من الذي أعطى أمثاله الحق في الحب... في الارتباط العاطفي بأمثال «فتاة الحلوى»...؟

ومتى يتغلَّب على سذاجته الطفولية؟

قد خدع نفسه حين تصوَّر أن حياته يمكن أن تستعيد رتابة طالما تمنَّاها، فأمثاله من الجرذان يختبئون في الجحور خوفا لا استقرارا.

ألا يتعلَّم أبدا؟

يتحسس زهرتين من العاج يحملهما في جيب بنطلونه، الحظ يتحكَّم في كل شيء، قانون الاحتمالات هو القانون المحرِّك للوجود، بالضبط، رمية واحدة للزهر نقلت صدَّام من القصر إلى القبر، يدرك المخِّيخ أنه لم يشعر يوما بأدنى تعاطف مع الطاغية العراقي، ولم يحزن لمشهده وهو معلَّق من حبل المشنقة، فلم يستحقّ الرجل أفضل من هذا مصيرا، لكن الأمر لا يتعلَّق بشخص صدَّام، فعندما تنهار الجبال تفقد الدنيا ثباتها، يتذكَّر الأفلام التي تتخيل مشاهد من الحياة في حقب ما قبل التاريخ: البراكين الغاضبة تفجِّر الجبال، الزلازل ترجُّ السهول، الأرض تنشقُّ وتبتلع ديناصورات جبَّارة

تركض في هلع، ظاهرة الانقراض الجماعي كما يحلو للعلماء توصيفها، أيكون هذا ما يتعرَّض له العرب اليوم... بوادر الانقراض الجماعي؟

تهفُّ عليه رائحة طعمية تُقلى، لو كان إنسانا طبيعيا لاشترى لنفسه سندوتش فول وآخر طعمية مع كيس من الطرشي البلدي والباذنجان المخلل، لكنه عالِـم طريد، أحد أعمدة البرنامج النووي العراقي المشئوم، لديه عِلم محرَّم وخبرات تحكم على أصحابها بهتك العرض في أبو غريب أو الاغتيال الصامت بعيدا عن عدسات المصوِّرين، لكن ينبغي أن يسيطر على خيالاته الآن، يبتعد عن محيط البنك في أسرع وقت، فالبنك كان نقطة الالتقاء الأخيرة له مع الحياة الرسمية في مصر، آخر محطَّة له على طريق الوثائق الحكومية وشبكات المعلومات العالمية، آخر نقطة يمكن تتبعه إليها، عليه أن ينغمر بأسرع وقت في عالم القاهرة السفلي، يذوب وسط جموع البشر قبل أن يلحق به عملاء الموساد، يستدير المخِّيخ ليستأنف مساره لكنه يتسمَّر مرَّة أخرى، أمامه الرجل نفسه الذي دفعه عند مدخل البنك، هو كهل ناضر الوجه مبتسم الآن، به جمال يصعب تعريفه بدقَّة، يزيِّن رأس الرجل طربوش قرمزي بشوكه كأنه خرج توا من الفبريكة.

«ابن حلال مصفّي... كنت لسه على بالي». يقول الرجل بفم لا تشغله سنَّة أو ضرس.

الدهشة ربطت لسان المخِّيخ، كيف يحدِّثه كأنه صديق قديم وهو متأكد أن عينه لم تقع على هذا الوجه من قبل؟ ثم لِـمَ يتظاهر أنه لم يقابله أمام البنك منذ دقائق ولم يدفعه من الخلف دون مبرر أو اعتذار؟ ولماذا يتعقَّبه أصلا؟

الأغرب من هذا وذاك أن الكهل لم يظهر له انعكاس على واجهة المحل الزجاجية، هو متأكد من ذلك لأنه دقق النظر في الواجهة لاكتشاف إن كان أحد يتعقَّبه.

بدأ الخوف يتسرَّب إلى قلب المخِّيخ، لا يردُّ على الرجل لكن يحكم قبضته على حافظته التي تحوي ما تبقى من تحويشة العمر.

«فاكر العشر دنانير اللي سلِّفتهم لي يوم 7 مارس 1955...؟» صوت الرجل خافت لكن به وضوح بلّوري.

«بالتحديد الساعة عشرة وثلث مساءً..». يستطرد العجوز عندما –من فرط دهشته– لا يردُّ المخِّيخ عليه، ثم يخرج من جيبه كيسا من جلد متهرئ ويعدُّ عشر عملات ذهبية لامعة، يسقطها واحدة تلو الأخرى في جيب سترة المخِّيخ العلوي.

«اتفضل... خالصين يا سيدي؟»

الرجل يرتدي بدلة بنية أنيقة فوق قميص من الحرير وكرافتة ذات خطوط عريضة مائلة، حذاؤه بني في أبيض على طريقة عبد الوهاب في أفلامه القديمة، بالتأكيد أنه لم يقرض هذا الرجل مالا، بل ولم يلتقِ به أصلا من قبل، لكن الأمر الذي يكاد أن يطيِّر برجا من عقل المخِّيخ أن التاريخ الذي ذكره هو تاريخ ميلاده، بل إن أمَّه – رحمها الله – روت أنها ولدته بعد العاشرة مساءً بقليل.

«ابقَ اسأل علينا». يستدير الرجل المسنُّ وبخفَّة غير متوقَّعة ينطلق.

لا يعرف المخِّيخ كم تساوي عشرة جنيهات ذهبية –أو دنانير على رأي الرجل– لكنها بالتأكيد تمثِّل ثروة، أكيد أن الأمر اختلط على العجوز، لكنه على الأقل ليس نشَّالا أو زعيما لعصابة إجرامية، لا يمثِّل تهديدا له، رغم احتياجه المادي الشديد لا يتردد المخِّيخ في ضرورة إعادة الجنيهات للرجل، يتبعه صائحا:

«يا حاج... لحظة من فضلك».

لكن الرجل لا يتوقف بل يضاعف من سرعته، ربما ثقل سمعه فلم يدرك نداءات المخِّيخ، لكن من أين له هذه الطاقة المذهلة؟

يتضاعف ذهول المخِّيخ للجهد الكبير الذي يبذله للحاق بالكهل، يتوقَّف وهلة أمام منزَل مترو الأنفاق، أمامه الآن فرصة الاختفاء في باطن الأرض والتخلُّص من أي مراقبة محتملة، مصلحته المؤكدة بل أمنه الشخصي يحتِّمان عليه أن ينزل الدرج المترب، أن ينسى أمر هذا المهووس ويحتفظ بالعملات المعدنية لعلها تكون ذات قيمة ما، لكنَّه يعجز عن ذلك، لم يقدم طوال حياته على فعل مشكوك في أخلاقيته ولن يخسر مبادئه اليوم، بالضبط، يصمم على إعادة الدنانير لصاحبها وليكن ما يكون، نعم وليكن ما يكون... يلقي نظرة أخيرة إلى مدخل النفق قبل أن يركض في الشارع وراء الرجل كالتلاميذ.

بحركة مفاجئة يعدِّل العجوز اتجاه سيره، يعرج يسارا إلى شارع جانبي، يتبعه المخِّيخ لكن لدى وصوله لناصية الشارع لا يجد أثرا له، كأنه فصّ ملح وذاب.

المخِّيخ يتلفَّت حول نفسه، يفتِّش خلف كشك للسجائر مغلق، ثم يخيَّل إليه أنه لمح الرجل يدلف إلى داخل عمارة قريبة فيسارع إليها، ينفذ إلى بهوها المظلم، يزرُّ عينيه على أمل أن تتأقلما على العتمة في أعقاب ضوء النهار الساطع، لكن الانتقال المفاجئ قد أربك حواسه كافة...

***

في بهو العمارة الرطب المظلم ينتابه شعور – لأول مرَّة في حياته– بفقدان الاتجاه، كأن غيما كثيفا غلَّف بوصلته الداخلية، لم يعد يعرف من أين أتى وإلى أين هو ذاهب... مسيرة حياته تبدو له عبثية، تتحكم فيها قواعد وقوانين لم ينجح – رغم علمه الغزير– في أن يخطو ولو خطوة واحدة على طريق حلِّ شفرتها.

أيكون قد أوقع نفسه في كمين محكم لا إفلات منه على الإطلاق؟

كان عليه أن يهبط إلى مترو الأنفاق عندما أتته الفرصة، يدرك ذلك جيدا الآن، أن يغوص في أعماق الأرض بين ملايين البشر، أن يذوب في الكتلة البشرية التي هي الشعب المصري، أن يشعر بأمان الانتماء لهذا القطيع الذي كم ألفه... وأن يبتعد نهائيا عن الخطر، لكنه في لمح البصر اتخذ قرارا فارقا، اختار أن يتعقَّب آثار ذاك العجوز الغامض، أن يعيد ما ليس من حقه تملُّكه... وعليه الآن أن يتحمَّل عواقب قراره...

وما جدوى كل هذا الكر والفر على أي حال؟

يكاد يصطدم بجسد مندفع في الاتجاه المعاكس، لكن رؤيته أصبحت أوضح الآن، هي فتاة تفاديه في آخر لحظة، قبل أن يستوعب الموقف تكون الفتاة قد خرجت إلى الشارع في اندفاع أعمى نحو غاية مجهولة، شعرها ستارة من القطيفة السوداء يطيّرها الهواء خلفها، لكن أكثر ما يصدمه أن الفتاة ملامحها مألوفة.

أتكون هي؟

مجرَّد التفكير في احتمال أن تكون هي بشحمها ولحمها يثير قشعريرة ممتدة في بدنه.

«ديدي... استني يا ديدي..». ينسى كل شيء ويتبعها مسرعا.

الفتاة صاروخ أرض - جو، جمالها يحدث زلزالا في الشارع، انفجارا يسحب الأكسوجين من الهواء، جاذبيتها الحسيِّة تترك المارة - رجالا ونساء- يشهقون بحثا عن النفَس، يجد المخِّيخ نفسه يركض خلفها، يتساءل ماذا يحدث لو التقت فتاة الحلوى بهذه الفاتنة... أتغار منها؟ لا يعتقد، سوف تدرك حبيبته بلا شك أن لا مكان لسواها في قلبه، وأن مشاعره تجاه ديدي

لن تتعدى أبدا مساحة التعاطف الإنساني، بالضبط، بل إن حرصه عليها ربما يفيض من منبع الأبوة الكامن في نفسه، أبوة افتراضية غير قابلة للتماسّ مع أرض الواقع، كشغف الأعمى بالألوان... أو شعور الأعرج بملمس الأرض تحت قدمه المبتورة.

يصيح لديدي بأعلى صوته، لكن لا تبالي بنداءاته، يسير مثلها في مجرى الطريق، يدفع رجلا بدينا يحمل كيسا من الورق المقوَّى، تتناثر على الأسفلت حوله حبَّات البرتقال، لا وقت الآن حتى للاعتذار، بأعجوبة يفادي المخِّيخ سيارة أجرة مسرعة، بلوفر الفتاة الأحمر الدامي هدف يسهل تتبعه، وهو ثور أنهكه الزمن وجد نفسه في حلبة «كوريدا» إسبانية.

يتشبَّث بحافظته ويركض بأقصى عزمه، لكن ديدي في عزِّ شبابها بينما هو قد تعدَّى الخمسين، عندما تصل الفتاة إلى ميدان المساحة يدرك أنه لن يلحق بها، لكن شيئا غير متوقَّع يحدث: رجلان ينقضَّان عليها، أحدهما متين البنيان يمسك بها من الخلف ويرفعها عن الأرض، الفتاة تحاول أن تركله وتلكمه دون جدوى.

ماذا يحدث؟ أكيد خطأ ما وقع...

للوهلة الأولى يتخيَّل أن الرجلين تصديا للفتاة على سبيل التطوع، ربما تصورا أنها نشَّالة تفرُّ من العدالة، وأنه يلاحقها لاستعادة ساعة أو محفظة خُطفت، يصل إلى الرجلين والفتاة وهو لاهث شديد الإعياء، يشرع في إقناعهما بأن يتركاها لحالها، يقاطعه صليل حاد للفرامل، سيارة باجيرو تتوقَّف على بعد أمتار منهم.

يبدو أن ظهور المخِّيخ المفاجئ أخذ الرجلين على غرَّة، يلمح سحابة التردد تعبر عينيهما للحظة خاطفة، لكن سرعان ما يدركان أنه رجل هزيل...

مواطن أعزل لا تدعمه عصبة مسلحة أو قوة أمنية ضاربة، يمسكه الرجل الأصغر حجما من ذراعه، قبضته حديدية، يتحدَّث بهدوء:

«إنت معاها؟»

دون تردد يومئ المخِّيخ برأسه بالإيجاب، يلتقط أنفاسه بصعوبة.

«طيب اتفضل ويّانا».

يلاحظ المخِّيخ لحظتها أن الآخر يجرُّ ديدي نحو السيارة المنتظرة، عندما تزداد مقاومتها يرفعها عن الأرض تماما، تصرخ الفتاة مستغيثة، المارة بدأوا يتجمهرون لكن لا أحد يتدخل لنصرتها، يحاول المخِّيخ نجدتها، يزيح يد الرجل الممسكة بذراعه، لكنه الأقوى، يدفعه دون عناء إلى داخل الباجيرو خلفها.

تنطلق السيارة.

ديدي تطلق صرخات هيستيرية، تشدُّ المقبض بعصبية، لكن الباب يأبى أن ينفرج.

عقل المخِّيخ عاجز عن استيعاب الموقف، مشاعره ترفض أن تتفاعل مع ما يحدث، كمبيوتره الداخلي قد «هنِّج»، يجد نفسه متابعا للأحداث من مقاعد المتفرِّجين.

الرجل الضخم الذي حمل ديدي يجلس بينهما في المقعد الخلفي، رأسه يكاد يلامس السقف، الآخر الذي يرتدي نظَّارة شمس فضائية الشكل قد ركب إلى جوار السائق.

يخرج العملاق المجاور لديدي مطواة سوستة ويملِّس وجنة الفتاة المتوهِّجة بجانب الشفرة غير الحاد.

«مش نهدا... أحسن ما الجمال ده يتشوه». يقول لها بهدوء.

ديدي تتجمَّد.

«واحدة من الناس اللي اتلموا أخدت رقم العربية». يتحدَّث السائق بركن فمه بسبب سيجارة مثبَّتة بين شفتيه.

«ابقى غيّر النمَر في الإشارة». يردُّ الجالس في المقعد الأمامي بثقة طبيب يصف العلاج، ثم يستدير لمواجهة المخِّيخ.

«هي دي الفلوس؟» يشير إلى حافظة المخِّيخ.

يتجاهل المخِّيخ السؤال، يحكم قبضته على حافظته رغم أنه لا يعرف أصل الموضوع أو فصله، يغزُّه الرجل الذي بجواره بكوعه في جنبه، ينتزع الحافظة منه بعنف.

«إيه ده يا أستاذ خمستاشر ألف وتلتميت جنيه... إحنا حنهزر مع بعضنا والا إيه؟»

«ده كان كل الموجود في الحساب». لم يعد المخِّيخ يدري إن كان في حلم أم علم.

جنبه يؤلمه، يتخوَّف أن تكون كليته أصيبت بضرر بالغ.

«إنت عارف لو نبيع البرنسيسة دي لشبكة من اياهم تجيب لنا كام...؟ دي تستحمل خمس سنين من الشغل اللذيذ... ويا حظ من يشتري». يردُّ الأبضاي، وقاحته منفِّرة.

دخان سيجارة السائق قد عبأ السيَّارة، يضيف سحابة بصرية إلى الضباب العالق في ذهن المخِّيخ، يضاعف من خنقته وهو يسعى لالتقاط أنفاسه، يدرك رغم ذهوله أن الوضع يزداد تعقيدا، يحتاج أن يفهم ماذا يحدث، بالضبط،

عليه أن يكسب بعض الوقت للتفكير؛ ليوظف علمه الغزير – عبقريته التي تغنَّى بها العالم – للخروج من هذا المأزق، أين يجد لوغاريثمات «نبير» ورقم «مرسين» الخامس الآن؟ وما جدوى أشكال «أفلاطون» الهندسية والمربعات السحرية ولغز «برج هانوي» في مثل هذه المواقف؟

قد اشتدت الأزمة الصدرية عليه، شعر بها قادمة، دائما ما تأتي على مراحل، إن تجاهل أجراس الإنذار فذنبه يكون على جنبه، الآن لم يعد يستطيع أن يتنفَّس، بيد مرتعشة يسحب من جيبه البخَّاخة، يضخُّ جرعة مضاعفة في حلقه، لكن عقله لا يتوقف عن التفكير، يتوهَّج كمؤشر «جايجر» إذا اقترب من مصدر مشعّ، تفكيره لا يكفُّ عن الدوران في فلك هذه الورطة التي وجد نفسه فيها، كيف يفلت بجلده... كيف ينقذ البريئة ديدي؟

«مش نصلي... عالنبي... ونفهم... أصل الموضوع وفصله؟» يقول بصوت متقطِّع وهو يصارع من أجل التقاط جرعة من ذاك الأكسوجين العصي اللعين.

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الاثنين 8 يناير 2007

الساعة 07:55 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

«صباح الخير «ألفا». يخلع مارتين سترته التويد ويعلِّقها على عمود معدني مخصَّص للمعاطف في ركن الغرفة، إلى جانب سترة زميله مقاس «XXL» المصنوعة من جلد بني أجربه الزمن، حضر اليوم مبكرا عن بداية مناوبته بأكثر من ساعة، كان نومه متقطعا هذه الليلة، شعور ملحٌّ بالترقُّب يسيطر عليه.

«صباح الخير «جاما»... حضرت في التوقيت المناسب... أتوقَّع لك مناوبة مليئة بالإثارة».

شعر مارتين بشيء من عدم الاتزان عند دخول القاعة، لا يعبأ كثيرا فهو شعور قد اعتاده منذ بدأ العمل في هذا المكان قبل أكثر من ثلاث سنوات، لا يدري إن كان هذا الشعور مرتبطا بتحوُّله النفسي من «مارتين» إلى العميل «جاما» بعبوره باب المركز، أم نتيجة لإشعاعات إلكترومغناطيسية ضارة تبعثها الأجهزة المتراصَّة، أو ببساطة لأن ذبذبات الإضاءة الاصطناعية تتلاعب ببصره، فالانتقال من ضوء النهار إلى هذه القاعة يتَّسم دائما بشيء من الاكتئاب، فالمركز لا نوافذ له، مضاء بواسطة أربعة مصابيح من النيون

مثبَّتة في السقف، إضافة إلى الضوء المنبعث من ثلاث شاشات عملاقة تحتلُّ حائطا بأسره وخمس شاشات صغيرة لحواسب إلكترونية، بجد لا يمكن للعاملين هنا التمييز بين الليل والنهار، قد يكون هذا هو السبب وراء إطلاق العميل «ألفا» لقب «مركز الأشباح» على هذا المكان.

«أتعشَّم أن تكون الأخبار سارة». يردُّ مارتين محاولا إخفاء حماسه، كان يعلم بحدسه أن شيئا مهمًّا سيحدث اليوم.

الجزء الداخلي من الشقَّة يقتصر على غرفة العمليات هذه ودورة المياه ومطبخ صغير، أما الجزء الخارجي فهو بمثابة شقَّة سكنية متكاملة، فدواليب غرفة النوم تحوي أطقم ملابس كاملة والغسَّالة بها قمصان وملابس داخلية مستخدمة، والثلاجة زاخرة بمأكولات متنوِّعة، وغسَّالة المواعين حبلى بالأطباق المستخدمة، كما يتم تشغيل التلفزيون بانتظام بواسطة جهاز توقيت إلكتروني، هذه الشقة ثمرة خطة تمويه متكاملة تتضمن اسمين وهميين لساكنيها وقصتين مختلَقتين لحياتهما، بما في ذلك خطابات توجَّه باسميهما بين حين وحين من خلال البريد حتى لا يشعر الجيران بأن هناك نشاطا غير مألوف يجري هنا.

أما الأعجوبة التكنولوجية بجد فتتمثَّل في الممر المسحور الواصل بين القسمين، والذي يذَكِّر مارتين بـ «جولد فينجر» و «الدكتور نو» وباقي أفلام جيمس بوند التي كم عشقها في طفولته، فالمدخل السرِّي يبدأ من داخل الحمَّام – أمام الحوض تحديدا – حيث ينزاح الحائط جانبا ويظهر الممر، لكن فقط بعد أن يتعرَّف جهاز الرصد على الشخص المصرَّح له بالدخول من خلال شريحة إلكترونية مزروعة تحت جلده، الآن أصبح ذلك التصريح قاصرا على العميل «ألفا» ومارتين – أو العميل «جاما» طبقا لاسمه الكودي– دون غيرهما، بعد أن كان لهما حتى شهر مضى زميل ثالث، لكن بياناته حُذفت

من على ذاكرة الكومبيوتر المركزي ولم يبقَ بوحدة «الكوبرا» سواهما الآن.

«خبران في الواقع... أحدهما سار والآخر مقلق، تفضِّل أن أبدأ بالسار؟» يردُّ الرجل البدين بعد صمت مستفزّ.

يومئ مارتين بالموافقة، يدرك أن «ألفا» سيفعل ما يريد على أي حال، فهو الرئيس، ونظرا لانقطاع الصلة شبه الكامل بين وحدتهم - وحدة «الكوبرا»- والوكالة الأم فهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة.

«الخبر السار أن «ميكي ماوس» ظهر أخيرا... وكما توقعنا ذهب إلى البنك لسحب بعض الكاش».

«والخبر المقلق؟» لم يعهد مارتين خبرا يقلق «ألفا»، فهو عندما يدخل إلى هذا المكان يترك مشاعره الإنسانية في الشارع أو يركنها مع درَّاجته «الهارلي» أمام باب البناية مباشرة.

«ميكي ماوس» طلب من موظف البنك أن يسحب كل ما تبقى في حسابه... يعني لا ينوي الذهاب للبنك مرَّة أخرى... يريد أن يذوب في زحام القاهرة... إذن هذه فرصتنا الأخيرة». يتحسَّس «ألفا» كرشه المهول وهو يتحدَّث كأنه يقيس أي تغيير محتمل في حجمه بالزيادة أو النقصان.

يدرك مارتين صعوبة تتبُّع أثر الهدف - الذي أعطوه الاسم الكودي «ميكي ماوس»- فهو أعزب لا أقارب له ولم يستدَل له على عشيقة أو حتى صديق، كما أنه لا ينتمي لأي حزب أو تنظيم أو جماعة، وليس له نقاط ضعف خُلقية يمكن استدراجه من خلالها كالقمار والمخدرات والنساء، باختصار بهيئته الصغيرة وملامحه العادية هو المرشح النموذجي للذوبان في زحام العالم الثالث.

يشير «ألفا» إلى الشاشة الوسطى والتي تظهر مدخل بنك في مدينة شرق أوسطية، شرطي في زيٍّ أسود يحرس المدخل، يقف في تبلُّد بجوار إطار كاشف للمعادن، رواد البنك يمرّون من داخل الإطار دون تفريغ ما بجيوبهم من محتويات معدنية، بجد، الأنوار الحمراء أعلى الإطار تضيء وتطفئ دون أن يكترث بها أحد، سيل من المشاة يمرُّ على الرصيف أمام البنك، زاوية الالتقاط جيدة ترصد المشهد من أعلى، يعلم مارتين أن الكاميرا مثبَّتة في بندقية كاتمة للصوت يصوِّبها أحد عملائهم نحو البنك، يتوقَّع أن يكون العميل يطلُّ من خلال نافذة في إحدى البنايات المواجهة.

«لن نفشل هذه المرَّة... المهم أن يكون فريقنا قد احتلَّ مواقعه». ثقة مارتين في كفاءة العملاء لا حد لها، خاصة مع إمكانيات الإدارة والتحكُّم الجيدة المتاحة لهم، فعند إنشاء مركز الأشباح أتيح للقائمين عليه الاستعانة بكافة قدرات أجهزة المخابرات المختلفة دون الحاجة لأن يكشفوا لها عن وجود المركز، فيستطيع مارتين اختراق شبكات الاتصال للحصول على المعلومات، واستغلال الأقمار الصناعية في مراقبة الأهداف وتوجيه التعليمات لعملاء وحدة «الكوبرا» على الأرض عبر قنوات اتصال مشفَّرة... النتيجة أن بمقدورهم أن يديروا عملياتهم كأنهم وكالة مخابرات عملاقة من هذه الشقَّة المتواضعة.

«الأمر ليس بهذه البساطة... زحام القاهرة قد يربك أفضل العمليات تخطيطا». يغترف «ألفا» حفنة من حبَّات البوبكورن من صحن كبير في حجره ويودعها فمه دون تركيز، أمامه على الطاولة كوب بلاستيك عملاق به كوكاكولا، يخطر لمارتين أنه لم يرَ الرجل البدين إلا وأمامه نوع من المأكولات السريعة يلتهمها بشكل تلقائي كأنه شخصية من عالم الرسوم المتحرِّكة تتنفَّس الـ «فاست فود» بدلا من الهواء.

بعد سنوات من البحث المضني تحققت لحظة الـ «يوريكا» لعمليتهم قبل ثلاثة أشهر... عندما تمكنوا من الاستدلال على حساب «ميكي ماوس» البنكي، بعدها لم يصبح من الصعب تتبع الخيط، فبمراجعة حركة الحساب خلال السنوات الأخيرة توصَّلوا إلى منحنى دقيق لمعاملات الهدف النقدية، لم يكن الأمر معقَّدا لأن الرجل حفظ كل المدَّخرات التي جمعها خلال فترة عمله في العراق في شكل ودائع في هذا الفرع من «البنك العربي»، واقتصر تعامله مع مدَّخراته خلال السنوات الأخيرة – منذ هروبه من العراق في يوليو 1999– على زيارة البنك كل ستة أو سبعة أشهر لفكِّ إحدى الودائع وسحب مبلغ ثابت من المال هو خمسة آلاف جنيه مصري.

يستقرُّ مارتين في كرسي متحرِّك مريح إلى جوار «ألفا» المحشور في كرسي مماثل، يعترف في سرِّه أن حدس الرجل البدين كان في محلِّه عندما خصَّص فريقا لمراقبة البنك طوال ساعات العمل، وأنه كان محقا في تمسُّكه بقراره رغم تشكك مارتين في استمرار الهدف على هذا النمط من السحب حتى نفاد ما تبقى من رصيده تماما، فكان ترجيح مارتين أن عالِـمًا على هذا القدر من الذكاء سيبحث عن وسيلة ما للتكسُّب ويدع المبلغ المتبقي في الحساب للاستعانة به عند الطوارئ، وإن كان لم يعترض على مراقبة البنك على سبيل الاحتياط، بيد أنه حضر اليوم وكلُّه ترقُّب، والآن – بعد أن ثبت صحَّة ما توقَّعه «ألفا»– يشعر بعدوانية كامنة تجاه ابن الجنِّية الذي لا يخطئ أبدا.

بحضور مارتين مبكرا اليوم يستطيع «ألفا» المغادرة رغم أن مناوبته لن تنتهي رسميا إلا في التاسعة صباحا، لكنه لا يبدي أي نية للانصراف، الشاشة اليمنى تبرز وجه الهدف بالأبيض والأسود، الصورة جانبية أقرب إلى البروفيل، من الواضح أنها التقطت من مسافة بعيدة للهدف وهو متحرِّك، لا يستطيع أن يميِّز إن كانت الخلفية في مصر أم العراق، هذه الصورة المشوَّشة

ظلَّت تطلُّ على مركز الأشباح منذ التحق به قبل ثلاث سنوات، أيكون القصد إتاحة الفرصة لأعضاء وحدة الكوبرا للتعرُّف على هذه الشخصية غريبة الأطوار... أم تحفيزهم على ملاحقته ككلاب الصيد عندما تتشمم أثر الفريسة؟

يتأمل مارتين وجه الهدف الطفولي البريء، نظَّارته إطارها أكبر من اللازم لكن عينه من تحتها يقظة تشعُّ ذكاءً، أذنه كبيرة نافرة تبرر تسمية «ميكي ماوس» وإن كانت سنتاه الأماميتان البارزتان تشبِّهانه إلى درجة أكبر بالأرانب، ربما كانت تسمية «بَجز بَني» أقرب إلى الواقع.

يظهر «ميكي ماوس» فجأة في بوابة البنك كأنه يستجيب لأمر تليباثي تلقاه من عيني «ألفا» المركزتين تماما على الشاشة الوسطى، يتجمَّد الهدف لحظة ليراقب الشارع، يتخيَّل مارتين إصبع العميل التابع لهم وهو ينساب نحو الزناد، عشر ثوان إضافية ويُقضى الأمر.

نبضات قلب مارتين ترجُّ الكرسي الذي يجلس عليه، صمت لحظي يفرض سيطرته على مركز الأشباح لكن سرعان ما تبدده قرقشة التهام «ألفا» دفعة جديدة من الفُشار، يندفع الهدف فجأة إلى الأمام، أتكون الطلقة أصابته؟ لا يمكن لأن سقوطه عندئذ سيكون للخلف، يستوعب مارتين ما حدث... إنه رجل عجوز يقف وراء الهدف، في اللحظة الحاسمة دفعه، لو كان العميل ضغط الزناد لقتل الكهل بدلا من «ميكي ماوس» ، العجوز يرتدي قبَّعة تركية حمراء، ملامح وجهه غير واضحة من تحتها، لم يكن مارتين يعرف أن الناس لا يزالون يرتدون مثل هذه القبَّعات، الهدف يستدير لمواجهة العجوز، لكن لا يدور بينهما حوار، قبل أن يتمكَّن العميل من إتمام المهمَّة يجنح «ميكي ماوس» يمينا وتنطلق هيئته الضئيلة خارج الشاشة.

الشاشة اليسرى تظهر بشرا يسيرون على الرصيف ذهابا وإيابا، الكاميرا مثبَّتة في نظَّارة عميل آخر متوقِّف بالقرب من مدخل البنك، ثم يظهر ميكي ماوس من الخلف، من الواضح أن العميل بدأ يتتبعه، بحركة سريعة للفأرة ينقل «ألفا» صورة هذه الكاميرا للشاشة الوسطى، تحل محلَّها على الشاشة اليسرى صورة سيل عشوائي من السيارات، من الواضح أنها محاولة عميل ثالث لالتقاط الهدف من الجانب الآخر من الشارع، يحرِّك زميله البدين الفأرة مرَّة أخرى ويستبدل بها صورة ملتقطة من زاوية مرتفعة... قد نجح القنَّاص في متابعة الهدف عبر منظاره.

الهدف مسرع، جسده النحيل ينحشر بسهولة بين الناس، على الشاشتين الوسطى واليسرى الصورتان تهتزان بشدة، «ألفا» يلتهم الفُشار، نهمه في تزايد، يأخذ جرعة ممتدة من الكوكاكولا، يحرِّك الفأرة، لأول مرَّة منذ خطا مارتين أرضية مركز الأشباح تُزاح صورة الهدف الثابتة من الشاشة اليمنى، تحلُّ محلَّها خريطة مكبَّرة للحي الذي يقع فيه البنك –يطلقون عليه «الدقي».

يمسك «ألفا» الميكروفون ويردد بصوته الهادئ المستفزّ:

« كوبرا «3»... للاتجاه إلى تقاطع شارع التحرير مع ميدان الدقي».

« روجر». يأتيه الرد عبر السمَّاعات بأن التعليمات وصلت.

الوحدة «3» تظهر في شكل نقطتين خضراوين متجاورتين تتحركان على الفور في الخريطة، إذن الوحدة مكوَّنة من فردين في سيارة، يظهر العملاء كنقاط خضر مضيئة على الخريطة لأنهم – مثل مارتين – زرعت لهم شرائح إلكترونية تحت الجلد، فيسهل رصد إحداثياتهم بالأقمار الصناعية أينما كانوا.

أصابع مارتين تدقُّ أحرف الكيبورد أمامه دون انتظار تعليمات «ألفا»، يدرك أن الوقت قد حان لتوجيه عدسة القمر الصناعي لملاحقة الهدف، الأمر ليس بهذه البساطة... لكنه مدرَّب تدريبا جيدا، مشكلة مراقبة الأفراد بالأقمار الصناعية تكمن في أن زاوية الرؤية تكون عمودية تماما فلا يظهر سوى أعلى الرأس والكتفين، لذلك يصعب تمييز الأشخاص، من حسن الحظ أن هناك تصويرا أرضيا اليوم مما يسهِّل مهمته، يتابع صورة القمر الصناعي على شاشة حاسبه الآلي الصغيرة، يثبِّتها على منزَل محطَّة المترو وينتظر حتى يمر «ميكي ماوس» بجواره، صورة القمر الصناعي أبيض وأسود على عكس التصوير الأرضي الذي يكون عادة بالألوان، يراقب مارتين الهدف على الشاشات الكبيرة، في الوقت المناسب يركِّز نظره على اللابتوب، في بحر ثوان تُظهر عدسة القمر الصناعي رأس «ميكي ماوس» تتوسطها دائرة صلعاء صغيرة، يثبِّت المؤشر على الهدف ويضغط زر الفأرة، يلتقط أنفاسه، من الآن فصاعدا سوف يتابعه القمر الصناعي آليا، يظهر الهدف على الخريطة كنقطة حمراء متحرِّكة، تحيط بها من كل جانب نقاط خضر تمثِّل عملاءهم.

يتوقَّف الهدف فجأة أمام واجهة أحد المحلات التجارية، أيظنُّ الأهبل أنه يتسوَّق؟ إدراك البشر محدود مهما تعاظم علمهم، الإنسان حتما يخطئ، هذه هي القاعدة الذهبية لكافة أجهزة المخابرات، فمهمة ضابط المخابرات لا تتعدى المراقبة الدقيقة والتحلِّي بالصبر، و«ميكي ماوس» - شأنه شأن كافة الفئران- حتما سيقع في المصيدة.

عدسة القنَّاص تضع الهدف في بؤرتها، لكن مرَّة أخرى يحجب المارة رؤية الهدف الخالصة، يلعن مارتين العالم الثالث وزحامه، على العميل أن ينتظر للَّحظة المناسبة لتوجيه طلقة نظيفة، قرقشة الفشار تغرق الوجود، الهدف مازال متسمِّرا أمام واجهة المحل، هذا من حسن الحظ، لكن المذهل أنه محل

للملابس الحريمي، على الأقل لا يتشكك في أنه تحت المراقبة، هذا دليل على حرفية العملاء وحسن تدريبهم.

حركة المشاة تخفُّ لحظيا، يتوسَّط الهدف منظار القناص، يثني مارتين إصبعه كأنه يضغط على الزناد بنفسه، لحظة النهاية أوشكت، «ألفا» يتجرَّع الكوكاكولا من خلال شفَّاط بلاستيكي، جهد سنواته على وشك أن يثمر، لكن فجأة يحتلُّ الرجل العجوز ذو القبَّعة التركية الشاشة، أنقذ الهدف للمرَّة الثانية هذا اليوم، من يكون هذا المهرِّج؟ أيكون هو أيضا يلاحق «ميكي ماوس» لدين يحصِّله أو خدمة يتلقَّاها؟

الشاشة اليسرى التي تنقل منظور العميل المترجِّل تُظهر الكهل وهو يضع قطعًا معدنية في جيب «ميكي ماوس» العلوي، ثم يستدير العجوز ويبتعد عن الهدف، للحظة خاطفة تظهر الشاشة الوسطى الهدف في مرمى النار، لكن سرعان ما يخرج عن نطاق الشاشة، كاميرا العميل المترجِّل تظهر الهدف وهو ينطلق وراء العجوز ملوِّحا له لأن يتوقف، «ألفا» يهتزُّ بعنف في كرسيه، رأسه كرة صلعاء وردية، يشبهها مارتين بكرة السلَّة، ما تبقى من شعره الأحمر طويل مربوط في ذيل حصان يتراقص فوق ظهره، لحيته عشب أحمر متشعِّب على طريقة الإرهابيين المسلمين، تستلفت نظر مارتين حبَّة من الفشار علقت بها.

صورة الشاشتين تهتزان بشدَّة، يستحيل تمييز الهدف، لكن مارتين يتابعه على شاشته الصغيرة من خلال عدسة القمر الصناعي.

«الهدف خرج عن نطاق القنَّاص». يقول «ألفا» وهو يداعب لحيته، يكتشف حبة الفشار، يضعها في فمه لا شعوريا، ثم يتحدَّث في الميكروفون:

«كوبرا «2»... للاستعداد للحركة».

تنقطع صورة عدسة القنَّاص، سوف ينضمُّ لوحدته المتحرِّكة، بحركة للفأرة يستبدل «ألفا» صورته بصورة القمر الصناعي على الشاشة الكبيرة الوسطى.

فجأة يجنح الهدف لليسار في شارع جانبي، يختبئ وراء كشك للسجائر، إذن أدرك أنه تحت المراقبة، وإن كان على الأقل لا يتخيَّل أنه مرصود بالأقمار الصناعية.

«جميع الوحدات... الهدف وراء كشك للسجائر في الشارع الجانبي... مطلوب عدم الاقتراب حتى يشعر بالاطمئنان». يهمس «ألفا» إلى الميكروفون.

«روجر».

يتساءل مارتين عن أصل مصطلح «روجر» هذا، لكن سرعان ما ينشغل بتحركات «ميكي ماوس» الغريبة، الرجل يترك ساتر الكشك ويتجه على الفور إلى داخل إحدى البنايات فيخرج عن مجال عدسة القمر الصناعي، أيكون فطن كذلك إلى أنه مراقَب من الفضاء؟

«كوبرا «2»... للتوجه فورا لميدان المساحة». يأمر الرجل السمين بإلحاح.

قبل أن يستوعب مارتين خطة «ميكي ماوس» يكون قد خرج مسرعا إلى الشارع، صورة القمر الصناعي تظهره يدفع المارة ويركض بين السيارات، من المؤكد أنه كشف عملية المراقبة، لكن كيف؟

صورة الشاشة اليسرى تهتزُّ بشدَّة، العميل المترجِّل يعدو خلفه، لا يوجد ما يبرر التخفِّي الآن، اللعب أصبح على المكشوف.

«كوبرا «3»... للتوجه إلى ميدان الجلاء». صوت الرجل البدين يتَّخذ نبرة ميكانيكية.

«كوبرا «1»... للتوجه إلى حديقة الأورمان». هذه الوحدة مكوَّنة من شخص واحد على درَّاجة آلية.

بدلا من أن يحكم «ألفا» الخناق حول الهدف يحرِّك الوحدات في دائرة متَّسعة ليضمن متابعة «ميكي ماوس» حتى لو تمكَّن من الفرار.

صورة الشاشة اليسرى لا تزال تهتزُّ بشدَّة لكن على الأقل الهدف قد ظهر بها، العميل يقترب منه، يوشك أن يلحق به، يعلم مارتين أن العميل سوف يغزُّه بشمسية مجهَّزة ، سنُّها عبارة عن إبرة تبثُّ سما، ثم يبتعد عنه فورا، الوفاة ستكون بسكتة قلبية في بحر ربع ساعة ولن يشكَّ أحد أنها بفعل فاعل، فجأة ترتجُّ الصورة بعنف ويبتلع أسفلت الشارع الشاشة... ثم تظلم تماما.

«العميل فقد توازنه وسقط على الأرض». يقول مارتين في ذهول.

الصورة تظهر مرَّة أخرى، سيقان بشر تقترب، من الواضح أن العميل رفع نفسه ويجلس الآن على الأسفلت، المارة تجمَّعوا للمساعدة، تهتزُّ الشاشة مع نهوض العميل، يراجع مارتين موقع الهدف على خريطة الشاشة اليسرى فيجد أنه أوشك على الوصول إلى ميدان المساحة.

«الوضع تحت السيطرة... لا داعي للقلق». يأتي صوت العميل لاهثا على مكبِّر الصوت.

«إنه العجوز ذو الطربوش... أنا متأكد أنه دفعني عن عمد». يضيف في همس ثم يسرع لتعقُّب أثر «ميكي ماوس» .

الأضواء الخضر تتسابق في مختلف الاتجاهات على خريطة الشاشة اليمنى، أما الشاشة الوسطى فتظهر الهدف يحادث رجلين وفتاة، سيارة لاندروفر أو باجيرو تتوقف أمامهم، يدلفون جميعا داخلها... إنها خطة محكمة للفرار إذن... تظهر السيارة الهاربة من الخلف على الشاشة اليسرى، كان مارتين محقا في استنتاجه: هي فعلا باجيرو.

«يبدو أن الهدف استعان بفريق من المحترفين لإخفاء آثاره». يخرج الكلام من ركن شفتي «ألفا» الغليظتين.

يمدُّ يده داخل صحن الفشار لكن يجده فارغا تماما.

«على العموم... مناوبتك سوف تشهد مطاردة غاية في التعقيد في شوارع القاهرة... والزحام ليس بالضرورة في صالحنا».

يأخذ «ألفا» شفطته الأخيرة من الكوكاكولا ثم ينهض، ويجد مارتين نفسه مسئولا عن إدارة العملية بعد أن دخلت مراحلها الحرجة.

***

الفصل الثاني

الجيزة الاثنين 8 يناير 2007

بعد أذان العصر

«باختصار شديد... المزمزيل غاوية تمثيل». يقول صاحب نظَّارة الشمس الفضائية بعد فترة صمت ممتدة، ثم يستدير لمواجهة المخِّيخ من موقعه في المقعد الأمامي للباجيرو.

هذه حقيقة يدركها المخِّيخ جيدا، فديدي هي أخت النجمة المرحومة أحلام الشواربي وسبق لها – على حد علمه – القيام بدور ثانوي في أحد المسلسلات التلفزيونية، لكن كلام الرجل لا يعطي تفسيرا لما يحدث الآن، ومع هذا يشعر المخِّيخ بشيء من الارتياح لأنه نجح في بدء حوار معه، فرغم صغر حجم الرجل مقارنة بالغوريلا الجالس بين المخِّيخ وديدي إلا أنه الأكبر سنًّا ومن الواضح أنه يتمتَّع بزعامة ما.

«يعني بتعملوا كده مع كل واحدة غاوية تمثيل في مصر؟»

«يا أستاذ احنا شركة محترمة... شركة تحصيل... بنقوم بمهمَّة قومية». الرجل يتبنَّى لهجة رجال الأعمال، كأن اختطاف الناس قد تحوَّل إلى نشاط محترم جدا هذه الأيام، لعله كذلك فعلا، قد يكون العيب في المخِّيخ نفسه الذي فقد الاتصال بالواقع المصري منذ سنوات.

«ما هو واضح». تفلت الكلمات من فم المخِّيخ تلقائيا.

«يعني حضرتك لو لك فلوس عند حد... تعرف تستردها بالقانون والبوليس؟» يسأل الرجل بهدوء.

«لا... أحسن لي أكبَّر دماغي وانساها». يعترف المخِّيخ بعد تفكير.

«طيب تمشي البلد ازاي بالطريقة دي... مش هما بيقولوا القطاع الخاص قاطرة التنمية؟ إحنا بقى يا سيدي... القطاع الخاص».

«يعني المشكلة بالضبط إن ديدي مستلفة فلوس منكم؟» بدأت الأمور تتضح أمام المخِّيخ.

«والله العظيم أنا ما استلفتش مليم من حد». تتدخل الفتاة بحدَّة.

«لكن ضمنتِ المنتج». يردُّ الفتوة المجاور لها بصوت محرِّك طائرة نفَّاثة.

«مضّاني على ورق... خدعني مش أكتر». جمال الفتاة يغفر لها أي خطيئة.

«هذا موضوع لا يعنينا... إحنا شغلتنا التحصيل وبس... بعد ما تسددي وينتهي عقدنا مع الزبون ممكن حضرتك تأجرينا نسترد لك فلوسك منه». يوضح الزعيم بهدوء، نظَّارته تذكِّر المخِّيخ بنظَّارات المارينز في العراق.

«معانا مراقبة يا دكتور». يتدخَّل السائق في الحديث بإلحاح.

«انت متأكد؟»

«عملية مراقبة محترفة جدا... لغاية دلوقت رصدت اتنين ملاكي وموتوسيكل... الواحد بيسلم التاني». يتسرَّب دخان السيجارة من فم السائق وأنفه.

«مباحث؟» يسأل الدكتور صاحب نظَّارة الشمس العجيبة.

«لا... على الأقل مخابرات».

يلتفت الدكتور للمخيخ ووجهه مشدود:

«انت بلَّغت مين بالضبط؟»

«هو انا لحقت اعمل حاجة؟»

«بس انت ما كنتش ماشي معاها... كنت بتراقبها... انت تطلع مين أصلا؟»

يخلع الرجل نظَّارته ويتفحَّص ملامح المخِّيخ، عيناه ضيقتان يتطاير منهما الشرر، يدرك المخِّيخ أن الرجل - رغم هدوئه الظاهري- لن يتردد في ارتكاب أي جريمة، لكنه - مع إدراكه لخطورة الوضع- فقد القدرة على التركيز، لا معقولية الموقف بأسره تخدِّره، يرمي ديدي بنظرة جانبية خاطفة فيجدها متحجِّرة كالتمثال.

«أنا بالضبط هربان... فيه ناس كبيرة بتدوَّر عليَّ». يقرر المخِّيخ أن الصدق هو أسلم بديل.

«وإيه علاقتك بالأمورة؟»

«انهارده بالضبط أول مرَّة أشوفها من سنين... صدفة يعني... بس هي بنت حلال وجمالها هو اللي دايما جايبها ورا».

«واضح ان الناس اللي عوزينك مهمين قوي». يحدِّق الرجل في المخِّيخ كأنه يريد أن يستشفَّ ماهية الملاحقين من قسمات وجهه.

«أحسن لك ما تسألش هم مين».

«وهو كذلك... لكن دلوقت احنا اتورطنا معاك». يعيد الرجل إخفاء عينيه بالنظَّارة.

«ما ندلقه في وسط الشارع». يتدخَّل السائق بهدوء، لم يحدث أي تغيير في أسلوب قيادته منذ إعلانه بأن هناك من يتتبعهم رغم أن المخِّيخ توقَّع في أول وهلة مطاردة على طريقة الأفلام الأمريكية.

يخرج الدكتور صاحب نظَّارة الشمس موبايل من جيبه.

«أيوة يا افندم... آسف للإزعاج... عندنا بعض التعقيدات... جماعة كده في ديلنا». يهمس في الموبايل.

«مش حينفع... باين عليهم محترفين... وهو كذلك». يعيد الموبايل في جيبه ويوجه حديثه للسائق: « المناورة رقم خمسة».

يهزُّ السائق رأسه ويسحب نفسا عميقا من السيجارة المستهلكة – التي بدت رغم ذلك امتدادا طبيعيا لشفتيه الدقيقتين – ولا يقول شيئا.

«ما نقدرش ندلقه وخلاص... علشان أصحابه مش حيسيبونا... ممكن كمان يبقوا عاوزين يعرفوا إيه علاقتنا بيه». يستطرد الدكتور.

يقذف السائق أخيرا عُقب سيجارته من النافذة ويسحب أخرى من علبة في جيبه، يضعها بين شفتيه دون أن يشعلها.

يلتفت الدكتور للمخيخ: « الدين اللي عليك تضاعف يا أستاذ».

***

تمرُّ الباجيرو أمام جامعة القاهرة، المنطقة غاب عنها الزحام والصخب، من حسن الحظ أن الدراسة لم تستأنف بعد، يتجه نظر المخِّيخ تلقائيا نحو اليسار إلى كلية الهندسة، يسترجع لحظيا ذلك المزيج اللذيذ من التطلُّع والرهبة الذي انتابه عندما عبرت هيئته الطفولية هذه البوابة العريقة لأول مرَّة، بدا له وكأن الآفاق تتفتح أمامه، كأنه بدأ رحلة الغوص في بحار العقل

والعلم التي لا قاع لها، ربما شعر يومها بشعور هيروس السكندري قبلها بأكثر من ألفي عام عندما شرع في أن يحسب قيمة $\sqrt{8\,1-144}$ ، ففتح الباب على مصراعيه أمام علم الرياضيات البحتة.

الكليّة ضاقت من كثرة المباني الحديثة التي زُرعت في أرضها فجرحت انسيابية مبانيها الأصلية ذات الوقار الكلاسيكي، يخطر بباله أنه لم يضع قدما هنا منذ أكثر من عشرين عاما، هذه البوتقة التي تشكَّل في غليانها، الحلبة التي شهدت أكثر من موقعة حاسمة في حياته... يشعر بارتياح غير متوقَّع عندما تتوارى الكلية عن نظره.

ترتجُّ السيارة فوق أسفلت الطريق المتموِّج، هبط الطريق من حول رءوس البالوعات في تحد صارخ للعلم الذي رنَّت به قاعات الكلية لما يقرب من قرن من الزمان، أساتذة الأجيال الذين رحلوا أكيد يتقلَّبون غضبا في قبورهم مما حدث في مصر، عزم الباجيرو المسرعة قد أزاح مباني الهندسة العريقة للخلف لكن أشباحها تلاحقه، أشباح الانتصار والانكسار، الانتصارات العلمية والأكاديمية التي ألصقت به لقب «المخِّيخ»، والانكسارات في علاقاته مع الجنس الآخر – أو بالأحرى غيابها التام– والتي ثبَّتت اللقب نفسه حتى صار وصفا يختزل شخصيته في أنظار العالم، بل وفي نظره هو أحيانا.

يسترجع فجأة عبارة «الدكتور» الأخيرة... المبلغ الذي هو مدين به قد تضاعف... لكن متى استدان لهؤلاء الأشرار أصلا...؟ بعبارته البسيطة نقل الرجل المسئولية من ديدي إليه... بل ضاعفها... أضاف دينا لم يكن موجودا... هكذا وبكل بساطة... بعد أن انقشع الحق وتلاشى العقل لم تتبقَّ في البلد سوى القوة الغاشمة، بالضبط، الأقوياء يفرضون ما تسوِّغه لهم أهواؤهم... وباقي الناس – الأغلبية الصامتة – فأقصى ما يحلمون به أن يُسمح لهم بالتأوه.

مع اقتراب السيارة من ميدان الجيزة يلاحظ المخِّيخ أن كثافة المرور على الطريق تزايدت، على الرغم من ذلك يضاعف السائق فجأة من سرعته ويبدأ على الفور سلسلة من المناورات لتخطِّي السيارات، لم يشعل سيجارته بعد مكتفيا بأن يتركها تتراقص في فمه ملتصقة بشفته السفلى، لكن دخان السيجارة الأخيرة ما زال مخيما على الكابينة، يتشبَّث المخِّيخ بالكرسي الأمامي حتى لا يميل على الوَحش الملاصق له، يلاحظ أن ديدي تعلَّقت بالمقبض المدلَّى من السقف فوق الباب المجاور لها، لا أحد ينطق، يشعر المخِّيخ بهدوء غير متوقَّع، كأن الأمر لا يعنيه أصلا، كأنه مشاهد محايد، كأن حياته غير مهددة سواء لحق بهم المطاردون أو لم يلحقوا، الأمور خرجت عن نطاق سيطرته ولم يبق أمامه غير انتظار المقدَّر، المهمّ أن المطاردة الأمريكاني التي توقعها بدأت.

تخترق الباجيرو الميدان، تدور للخلف أسفل الكوبري العلوي ثم تقاطع السيل المتَّجه إلى المنيل، دوي أبواق الاحتجاج الغاضبة يطاردها من كل زاوية، تنفذ السيارة إلى أحد الأزقة المزدحمة التي تصبُّ في الميدان من الجهة المقابلة، تهفُّ على المخِّيخ رائحة عرق، يشكُّ في الفتوة الجالس بجواره لكن لا يجرؤ أن يلتفت إليه، يهدئ السائق سرعته في الزقاق حتى يفادي الدرَّاجات والمشاة والسيارات المركونة.

«إيه الأخبار؟» يسأل الدكتور صاحب النظَّارة الفضائية.

«لسه واحد موتوسيكل في ديلنا». يردُّ السائق بهدوء ثم يخرج ولاعة رخيصة من درج السيارة ويشعل سيجارته.

يستغرب المخِّيخ أن الرجل لم يستخدم الولاعة التي لا بد أن الباجيرو مزوَّدة بها، لا يستطيع مقاومة فضوله الطبيعي فيميل على الفتوَّة الجالس بجواره حتى يستطيع رؤية موقع الولاعة وسط التابلوه الأمامي للسيارة،

يجد ثقبا لا تملأه ولاعة ولا حتى عود كبريت... إذن حتى الأبضايات لا تسلم سياراتهم من ظاهرة «السلت»... تلك السرقات الصغيرة المتتالية الذي يتعرَّض لها كل من يعيش على أرض المحروسة...

يخطر له أن مصر كلها تُنهب منذ أيام الفراعنة ليس من خلال السطو المسلح على طريقة عصابات شيكاغو...إنما «سلتا»...

«ما حدش يبص وراه». ينَّبه الدكتور الجميع بحسم.

يستحضر المخِّيخ مصطلحي «الأرقام الودودة» و «الأرقام الاجتماعية»، لا يتذكَّر مدلولها الرياضي بالضبط الآن، يشعر بزهرتيه العاج تضغطان على فخذه من داخل جيبه، لا يعرف ما الذي سيأتي به الحظ، لكنه بكل تأكيد في حاجة اليوم لبعض الأرقام الودودة.

لفترة ممتدة تخرِّم الباجيرو يمينا ويسارا بين الأزقة، البنايات جرباء متهالكة ورغم ذلك تخترق جدرانها مكثفات أجهزة التكييف وتطلُّ أطباق الساتلايت من أسطحها، كل حين وآخر يتبادل السائق التحية مع أصحاب الدكاكين الجالسين على الأرصفة الضيقة، المخِّيخ لم يعد يستطيع أن يميّز اتجاه الحركة، أفكاره تترنح مع ارتجاج السيارة، كم يفتقد حديث فتاة الحلوى المقتضب البليغ، كم يتوق إلى ابتسامتها التي تفوق بسمة الموناليزا جاذبيةً وغموضًا، هذا أول يوم يترك فيه مخبأه منذ أكثر من ستة أشهر، فترة مرَّت ببطء ورتابة، وكأن كل أحداثها ادُّخرت في ركن غامض للكون، تراكمت بعيدا عن مداركه، لتنفلت إلى الوجود في هذا اليوم بالذات، وتتلاحق كشريط سينمائي مجنون، بالضبط... مصادفة غريبة أن يلتقي ديدي بعد سبع سنوات من الفراق، وأن يكون اللقاء في هذا التوقيت الذي هي فيه في أمس الحاجة لمساعدته... أما الرجل العجوز الذي قاده إليها فلم يعد المخِّيخ يعلم إن كان ينتمي لصنف الإنس أم الجان.

لكن كل هذا غير أساسي، المهم أنه قد ثبت له دون مجال للشك أن مخاوفه كانت في محلِّها كل هذه السنين، أعداء حقيقيون يتربَّصون به مصممين على تصفيته، يسخِّرون موارد ضخمة لهذا الهدف، بكل تأكيد ليسوا أوهاما من صنع خياله أو أعراض بارانويا تكون أصابته من فرط ما عانى العزلة والخوف، والأهم من هذا وذاك أن هؤلاء المطاردين لا يملّون ولا يكلّون، ككلاب صيد من جهنَّم لا يزالون يتتبعون أثره بعد أكثر من سبع سنوات على هروبه من العراق.

يتذكَّر فجأة الدنانير الذهب، يشعر بها تثقل جيب سترته العلوي ككنز علاء الدين ماكث فوق قلبه مباشرة، أيستخدمها لافتداء الفاتنة ديدي اليوم أم يحتفظ بها لأيامه القادمة؟ فبعد أن استولى هؤلاء السفَّاحون على كل ما يملك في دنياه كيف يسدد ديونه التي تراكمت لصاحبة العمارة والبقَّال؟ هذا فضلا عن نفقات معيشته الزهيدة في المرحلة المقبلة والتي بدونها لن يستطيع الاستمرار في الإقامة في مخبئه؟

ثم يذكِّر نفسه أن هذه العملات ليست ملكا له أصلا.

من الواضح أن الأجهزة الجهنمية - رغم كل إمكاناتها- لم تفلح في كشف مخبئه بعد، يأخذ المخِّيخ نفسا عميقا ويستريح في مقعده، مخبأه لا يزال آمنا وجيبه محشو بالذهب، المطلوب الآن أن يجد مخرجا من هذا الموقف ثم يذوب في زحام القاهرة...

«عزوز جاهز في انتظارك اهو». كلام الدكتور ينبِّه المخِّيخ إلى أنهم على أعتاب خطوة حاسمة، فيتأهب للـ «مناورة رقم خمسة».

يتفحَّص المشاة بحثا عن هذا العزوز الجاهز لكن لا يجد أي شخص يبدو عليه الانتماء لعصابة راقية جدا أو لعضوية ما يطلق عليه الأمريكان « الجريمة

المنظمة»، من الواضح أن كثرة مشاهدة الأفلام الأمريكية أثَّرت على قدرته على التفاعل مع الواقع المصري.

لأول مرَّة يستدير الدكتور وينظر خلف السيارة، يفعل المخِّيخ مثله تلقائيا، بعد لحظة تأمُّل ينطلق في قهقهة طفولية، فبساطة «المناورة رقم خمسة» وفعاليتها تبرزان عبقرية من خطط لها، عبقرية الإنسان المصري التي عادة ما تهزم أحدث التقنيات.

يدوس السائق على بدال البنزين غير عابئ بالمشاة وبمهارة وتمرُّس ينجح في الوصول إلى شارع رئيسي دون وقوع خسائر بين المشاة أو سقوط السيجارة من فمه.

«إيه... تمام؟»

«مية فل». يردُّ السائق باقتضاب على الدكتور وتنطلق الباجيرو في الشوارع الخلفية لحي الهرم.

«الفاتورة وصلت ميت ألف». يوجه الدكتور حديثه للمخيخ بهدوء وهو يخرج مفكِّرة صغيرة من جيبه. «وصل منك خمستاشر... يبقى فاضل خمسة وتمانين... حتسدد إمتى يا أستاذ؟»

رغم اهتزازات السيارة المسرعة يمسك صاحب نظَّارة المارينز قلما أنيقا «مون بلان» يضعه على أهبة الاستعداد لتسجيل رد المخِّيخ، موحيا بأن ما يُكتب في المفكرة الصغيرة أكثر إلزاما من أي عقد قانوني موثَّق.

سؤال الرجل جاء صفعة على قفا المخِّيخ، أفاقه من شعور مخدِّر لذيذ بدأ يتسلل إلى نفسه بعد أن زال عنه خطر ال «سي آي إي» أو «الموساد» أو الجن الأزرق الذي يطارده، فأدرك من كلام المافيوزو الوقور – الذي يُعرف بالدكتور– أن ورطته لم تخِفّ بل تضاعفت ألف مرَّة، فبعد أن كانت مخاطرته

محدودة لا تتعدى احتمال فقدان حياته – وهو في النهاية مقطوع من شجرة لا يعول امرأة أو طفلا وباستثناء فتاة الحلوى ليس لديه صديق أو قريب، فضلا عن أنه مدفون بالحياة أصلا– بعد أن كان حرَّ نفسه أصبح اليوم مسئولا عن مستقبل فتاة متمرِّدة طاغية الجمال اسمها ديدي طالما اعتبرها رمزا للبراءة والشباب، ونموذجا لكل ما هو جميل في مصر، بسمتها البريئة الجريئة تجسِّد مستقبل البلد المشرق... إن كان هناك أمل أصلا في مستقبل أفضل.

«إدينا حضرتك فرصة كام يوم كده... يعني أنا وديدي ندبر نفسنا... ونتصل بحضرتك على طول». يناور المخِّيخ بعد أن حدد أولويته الأولى في تحرير الفتاة من قبضة العصابة، لكن خنقة الأزمة الصدرية بدأت تعاوده.

«لا حلوة... بذمتك يا أستاذ يبقى ابني على كتفي وادوَّر عليه؟»

تصل الباجيرو إلى شارع فيصل وتتجه يمينا عائدة إلى الجيزة، لا يرتاح للهجة الدكتور وإن كان لم يفهم معنى رده بالضبط، يبحث في جيوبه عن البخاخة، يجد الزهرتين العاج بدلا منها، ينتظر إيضاحا لكن الرجل يكتفي بما قال... والقلم الأنيق لا يزال مرفوعا فوق مفكِّرته الجهنمية.

«إحنا ناس محددين نحب الكلام يكون واضح ودقيق، قلت إيه يا أستاذ...؟» لهجة الدكتور بعد سكوت ممتد تزداد حدَّة، يتساءل المخِّيخ إن كان الرجل فعلا طبيبا أو حتى حاصل على درجة الدكتوراه.

«ما ترد». يغزُّ البوديجارد كوعه في ضلع المخِّيخ الذي لا يزال يؤلمه من الغزَّة السابقة.

«كل اللي طلبته... أربعة وعشرين ساعة... علشان أنا وديدي... ندبر أمورنا... ونبلغ حضرتك بعدها... حنقدر نسدد إمتى». يحاول المخِّيخ التقاط أنفاسه، يناور في كلامه رغم أنه على أي حال لا يستوعب ما هو المطلوب منه بالضبط.

«أربعة وعشرين ساعة على عيني وعلى راسي... أما الأمورة فحتفضل في ضيافتنا معززة مكرمة لغاية ما الموضوع يتسوى».

«ما تقلقش خالص... البرنسيسة حتكون في عينينا من جوة». يضيف الفحل الجالس بجوار المخِّيخ بابتسامة عريضة تنضح شرا، رائحة عرقه أصبحت لا تطاق.

أخيرا يجد المخِّيخ البخَّاخة، يبالغ في الرش في حلقه.

«بس يا افندم...» يبدأ في محاولة يائسة لكن الدكتور يقاطعه:

«خلاص، خلاص... بتعرف تستخدم إي ميل؟» لا ينتظر الدكتور ردا، إنما يبدأ في تدوين سريع في مفكرته كطبيب يكتب روشتة.

يتجه نظر المخِّيخ تلقائيا إلى ديدي، لا تبادله النظر، عيناها مركزتان على قفا السائق أمامها، تتشبث بالمقبض العلوي كأنها لو تركته حتما ستغرق، شعور بالهزيمة يغمره منذ أكثر من عشر سنوات... يصل به الآن إلى نقطة اليأس، أين ذهب علمه وخبرته وعبقريته المزعومة؟ أين ذهب الرقم الذهبي و «سلسلة كنينجهام»؟ بمَ ينفع «عدَّاد الرمال» لـ «أرخميدس»؟ بمَ ينفع العقل في عالم فقد الصواب؟ دخَّان السائق غيم ظالم يخيِّم على قلبه، يلهب عينيه اللتين بدأتا تنزفان دمعا، يخنقه ببطء مشوب بالسادية، لا يعلم لماذا تحضر إلى ذهنه العبَّارة الآن، السلام 98، ألف وثلاث وثلاثون حنجرة تغني ألما قبل أن تغمرها المياه وتنهش القروش أحشاءها.

اهتزاز السيارة لا يطاق، السائق يأخذ الملفات بصفير للإطارات على طريقة أفلام هوليوود، رائحة التبغ تعشش في نخاشيشه، تقبض على أنفاسه، ماذا يفعل لإنقاذ البريئة الفاتنة؟ كيف كان قرينه «مفتول العضال» سيتصرَّف في هذا الموقف؟ يشلُّ العملاق بخبطة حاسمة من كوعه إلى الرقبة أسفل الأذن، ثم يدفع «الدكتور» بقوة حتى يهشِّم برأسه الزجاج الأمامي، ثم يقبض

على السائق بساعديه من حنجرته حتى تتوقف الباجيرو وسط الطريق، كل هذا كان «مفتول العضال» سيفعله في لمح البصر ليحوِّل الموقف برمَّته إلى صالحه وينقذ الفاتنة البريئة ديدي، لكن «مفتول العضال» هناك وليس هنا غير المخِّيخ الذي لا يجد في جعبته سوى أن يضاعف رذاذ البخَّاخة في حلقه، وأن يعصر عقله بحثا عن مخرج ربما لا يكون ممكنا أصلا.

السيجارة في فم السائق معظمها رماد، سوف تنفرط في أي لحظة، لكن تماسكها حتى الآن في شكل السيجارة الأصلي يحمل رسالة ما، مثل الرسالة التي حملها تسجيل آخر الكلمات التي ترددت في كابينة قيادة العبَّارة، رسالة مأساوية يائسة، رائحة عرق البوديجارد شيء لا يطاق، الروح تسحب من جسد المخِّيخ الهزيل، مباني جامعة القاهرة الوقورة تظهر على يمين السيارة ثانية، منطقة بين السرايات على اليسار، الغثيان يسيطر عليه، لم يعد قادرا على التفكير، يتمنَّى أن تنشقَّ الأرض وتبتلعه، يحلم بنهاية سريعة لحياته التي جسَّدت في النهاية مأساة وطن.

تتوقف الباجيرو بصرخة أخيرة للفرامل، رائحة الكاوتش الشائط تملأ الوجود، الغثيان يشلُّه تماما، الدكتور يخلع صفحة من مفكرته المريبة ويناوله إياها.

« الاتصال بيننا عن طريق الـ «إي ميل»». يقول بزهق.

البوديجارد يميل عليه ويفتح باب السيارة، يبحث المخِّيخ عن كلمات تنقذ الموقف، لكن الغثيان قد لجَّم لسانه وحديث الأشباح الآتي من صندوق العبَّارة الأسود يدوِّي حوله، البوديجارد يدفعه بقوة والدنيا تدور، يجد نفسه جالسا على الرصيف يتابع مؤخرة الباجيرو وهي تذوب وسط السيل الميكانيكي المتدفق، صوت أجش يهمس في أذنه:

«المركب بتغرق يا قبطان..».

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الاثنين 8 يناير 2007

الساعة 09:07 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

لم يسافر مارتين أبدا إلى مصر، بل لم يعبر الحدود الأمريكية أصلا إلا في مهمَّته اليتيمة إلى المملكة المتحدة، تخيَّل القاهرة دائما كمدينة من ألف ليلة وليلة، فالأزقة تزخر بالبشر والجمال، وتجار التمور والتوابل يفترشون أرصفتها، والنساء تسير كحيلة الأعين في أثواب من الحرير الملوَّن تظهر تداوير أجسادهن الموقظة للغرائز، ليته كان هناك في القاهرة الآن، يشارك في ملاحقة جاسوسية خطرة ومثيرة تأتي إليه أصداؤها عبر الأثير، بدلا من المكوث هنا في غرفة سرية محكمة المنافذ معزولة الصوت يمقق عينيه أمام شاشات الكمبيوتر الصماء.

يلفُّ يمينا ويسارا في مقعده المتحرِّك وفي يده مَج به قهوة، انصرف «ألفا» بعد نهاية مناوبته بقليل وتركه وحده يتابع مطاردة ساخنة تدور في قارة بعيدة، يرتشف السائل الداكن رغم سخونته، الصورة على الشاشة الوسطى مشوَّشة متقطعة لا تُظهر التفاصيل، مع هذا يستطيع أن يميِّز أن السيَّارات في الشوارع عددها أكبر مما توقع، فضلا عن أن جملا واحدا لم يظهر حتى الآن، فريق المطاردة من جانبهم مكوَّن من سيَّارتين ودرَّاجة آلية، يستطيع متابعة التطورات من خلال صورة القمر الصناعي الأبيض في أسود، لكن الزحام

الشديد جعل إدارته للمطاردة غير مجدية، فالأمر في هذه المرحلة متروك لتقدير العملاء في الميدان، يبدأ دورا من لعبة «فري سيل» على الكمبيوتر المحمول أمامه.

ذكَّرته إيمي قبل أن يغادر البيت هذا الصباح بأن عيد ميلادها بعد غد، استيقظت مبكرا لتراه قبل أن يغادر المنزل، ولتذكِّره... ستتم ابنته الصغيرة خمس سنوات يوم الأربعاء، مرَّت السنين كساعات أو دقائق، يتذكَّر ولادة إيمي كأنها حدثت بالأمس، كانت سوزان تصرخ من وطأة الألم، وهو واقف بجوارها ينفث على طريقة «ليمانز»، لكن بدلا من أن تنظِّم أنفاسها على الإيقاع الذي تمرَّنا عليه معًا عشرات المرَّات أخذت سوزان تلعنه بأقبح الألفاظ وتطالب الممرضة بمضاعفة جرعة المخدِّر.

الولادة تمَّت بمستشفى «كريبتو سيتي» أي المدينة المشفَّرة، مدينة صغيرة بولاية ميريلاند لا يظهر اسمها على أي خريطة وأرقام تليفوناتها غير مدرجة في الدليل، كان وقتها ضابط مخابرات شابا بوكالة «إن إس إي» للتنصُّت، حيث السرِّية عقيدة وأسلوب للحياة، تتفوق وكالته السابقة في هذا الهاجس الجنوني على الـ «سي آي إي» ألف مرَّة، كان بجد ضابطا واعدا، أي من حَمَلة البطاقات الزرقاء، يستطيع أن ينفذ بها إلى غالبية المواقع المحظورة، ويطَّلع على سيل لا نهائي من المعلومات السرِّية، شارة زرقاء كم كان يعتز بها فوق صدره، تدلُّ على مدى الثقة التي حظي بها، إلى أن ارتكب خطأ شخصيا خلال مأموريته الوحيدة خارج البلاد، فوقع في خانة « ماذا لو؟» وانهار عالمه المثالي...

في خلال ساعات من عودته إلى المقر الرئيسي سُحبت منه بطاقته الزرقاء واستبدلت بها أخرى حمراء، وأصبحت بذلك فرص عمله في «كريبتو سيتي» مقصورة على الكافيتريا والسوبرماركت ومحل الحلاقة، ضاقت الدنيا من

حوله... يستعيد مارتين لحظيا مرارة مألوفة في حلقه، شعور بالغبن والمهانة، يتابع بطرف عينه الشاشة الوسطى التي تظهر مركبات قاهرية متنوعة من الخلف، يخسر دور الـ «فري سيل» الذي يلعبه على الشاشة الصغيرة أمامه.

«من الواضح أن «ميكي ماوس» استعان بمحترفين لمحاولة الإفلات منا». يردد بصوت مسموع ثم يبدأ على الفور دورا جديدا.

اعتاد مارتين محادثة نفسه خلال ساعات عمله الممتدة في عزلة تامة، لكن لا خطر من ذلك فالمركز «معقَّم» أي لا يمكن التنصُّت عليه بواسطة أجهزة المخابرات الأخرى، فقد أبلغه «ألفا» خلال فترة التلقين الأولى أنهم التزموا بنظام عزل اسمه الكودي «الإعصار» عند البناء، موضحا أن حوائط المركز مزدوجة، سطحها الخارجي مبطَّن بطبقة من النحاس برتقالي اللون، وأن مسافة مفرَّغة بسُمك خمس بوصات تُركت بين السطحين الخارجي والداخلي، بينما الجدار الداخلي أيضا مبطَّن بشبكة من النحاس، وأكد أن مواصفات البناء هذه تصدُّ كافة الأصوات والإشارات الكهرومغناطيسية وتمنعها من التسرُّب للخارج، شبَّه «ألفا» مركز الكوبرا بالثقب الأسود بين الأجرام السماوية، بمعنى أن المركز يستقبل ملايين الرسائل والإشارات الإلكترونية من كل أنحاء العالم لكن لا شيء يفلت منه على الإطلاق.

«لا يمكن السماح لـ «ميكي ماوس» بأن يفلت منا هذه المرَّة». يجلجل صوت مارتين في القاعة.

قد تكون هذه فرصتهم الأخيرة لتصفية الهدف، فهو خبير في التخفِّي شديد الدهاء، والدليل على ذلك أنه أفلت بالفعل من شباكهم الإلكترونية كل هذه السنوات، فلو حاول العبور من خلال الموانئ والمطارات كان سيتم التقاط اسمه بكل بساطة، وحتى لو استخدم اسما مستعارا وجواز سفر مزوَّرا فكاميرات المراقبة بالملايين في أنحاء العالم المتقدِّم... في المراكز

التجارية والشوارع وحتى في وسائل النقل العام، ولديهم برمجيات حديثة تستطيع تمييز ملامح البشر وتحديد مكانه في بحر دقائق، أما لو كان من مستخدمي الهواتف المحمولة أو كروت الائتمان فقدرتهم على الوصول إليه لا حد لها، لكن «ميكي ماوس» عالِـم يدرك الإمكانات التكنولوجية المتاحة لهم؛ ولذلك فهو حريص على تجنُّب وسائل الاتصال الحديثة، كانت نقطة ضعفه الوحيدة – حتى اليوم – تتمثَّل في احتياجه لسحب النقود من البنك على فترات متباعدة.

المطاردة بدأت تزداد سخونة، الباجيرو ضاعفت من سرعتها، لكن وحداتهم الثلاث لا تزال تتعقبها، مادام الهدف داخل السيارة سيصعب عليه الإفلات لأن القمر الصناعي سيرصد الباجيرو أينما ذهبت، تلحُّ على مارتين الحاجة للذهاب لدورة المياه لكنه يؤجلها.

سوزان حجزت طاولة كبيرة في أحد مطاعم البيتزا للاحتفال بعيد ميلاد إيمي بعد غد، اتصلت بأمهات أصدقائها الصغار لدعوتهم، واشترت عروسة «باربي» ترتدي زي ممرضة، أحكمت إخفاءها في قاع الدولاب حتى لا تفسد على الصغيرة المفاجأة، ونظرا لأنه لن يتمكَّن من حضور الحفل –لتعارض الموعد مع انتقال ورديته للمناوبة الصباحية– اتفق مع سوزان على تقديم الهدية لإيمي مبكرا في الصباح قبل مغادرته للعمل، يشكر الرب لأنه رزقه بزوجة كريمة كثيرة العطاء وابنة جميلة كالملائكة، تلك الثروة التي لا تقدَّر بمال والتي كاد يفقدها في لحظة تهوُّر...

كانت شقراء متفجِّرة الأنوثة هي السبب في سحب البطاقة الزرقاء منه وكادت تتسبب أيضا في فقدانه سوزان وإيمي... حدثت القصة خلال وجوده في إنجلترا في مهمَّة إلى قاعدة «هاروجيت» أكبر محطَّات التنصُّت التابعة لـ«إن إس إي» في العالم، في مساء اليوم الأخير قبل العودة للولايات

المتحدة شرع للتنزُّه في قرية «منويث هيل» القريبة من القاعدة، كان يوما دافئا من أيام الصيف التي يمتد فيها النهار لما بعد العاشرة مساء، لا يدري ما الذي دفعه لأن يتوقَّف في طريقه للقرية، ركن السيارة فوق تلٍّ قريب من القاعدة، ووقف يتأمل قبابها البيضاء الثماني والعشرين تلمع كالفضة تحت أشعة الشمس المائلة، مدركا أن كل قبة تحوي طبق التقاط عملاقا موجها نحو قمر صناعي يزيد ارتفاعه على ثلاثين ألف كيلومتر فوق سطح الأرض، يعلم أن الأطباق تجمع كمًّا من المعلومات يفوق ما تخيَّله الجنس البشري في مراحل تاريخه السابقة.

شعر مارتين يومها باعتزاز لم يشعر به من قبل لأنه جزء من هذا الصرح الشامخ للتكنولوجيا المتطورة – رغم أن العالم لا يعلم عن هذه المحطَّة شيئا، هذه المنشآت في تصوُّره هي بمثابة كاتدرائيات القرن الواحد والعشرين، خلاصة ما توصَّلت إليه حضارة اليوم من ابتكار وإنجاز تنظيمي وتعبئة للموارد.

عندما وصل إلى قرية «منويث هيل» أخيرا كان في حالة من النشوة الخالصة، متأهبا لمغامرة عمره، مغامرة اسمها فيرونيكا...

لقد عقد مارتين العزم على عدم تكرار مثل هذه المغامرة فيما تبقَّى له من العمر، لكنه يقرُّ في نفسه أنه لم يندم ولو للحظة على الليلة التي قضاها مع فيرونيكا، ليلة فاقت في وهجها أسخن أحلامه الإيروتيقية، فلمس جلدها لا يزال عالقا كغيم خفيف لصيق بجسده، ومشهد ثدييها الممتلئين المرتخيين قليلا وحلمتيهما الرقيقتين صار جزءًا لا يتجزأ من تكوينه النفسي من كثرة ما استرجعه في خياله، وفوق هذا وذاك عبق شبقها النفاذ بات رفيقا له لوَّن عمره وأضفى على حياته بعدا حسيّا غير قابل للتعريف المنطقي.

عندما استدعته الوكالة للتحقيق لم ينفِ التهمة، بل سأل الرجل الأصلع جامد الملامح المواجه له على الجانب الآخر من الطاولة الجرداء: «هل وُلد الرجل الذي يستطيع مقاومة شقراء متفجِّرة الأنوثة؟»

أوضح الرجل بنبرة محام لم يعهد المزاح ولا يعرف الملل أن الوكالة لا توظِّف رجالا وإنما ضباط مخابرات، وإنها - مع عدم تحبيذ الخيانة الزوجية- قد تتغاضى عن بعض الأخطاء الشخصية بشرط عدم وجود شبهات حول طرف العلاقة الآخر.

فردَّ مارتين على الفور بأن فيرونيكا لا يمكن أن تحوم حولها الشبهات لأنها ممرضة التقاها صدفة في حانة في «منويث هيل» - حانة «الثور الأسود» تحديدا- وقد دخلها دون تخطيط ولم يسبق له ارتيادها من قبل، أي ليس متصورا أن تكون أجهزة المخابرات المعادية قد زرعت الشقراء في الحانة انتظارا لحضوره... وعلى أي حال فهي ليلة واحدة قضاها معها ولم يحدث اتصال بينهما بعد ذلك مطلقا.

لا يمكن لمارتين أن ينسى ابتسامة المحقق الصفراء وهو يقول:

«في هذه المسائل الأمن يتفق مع الطب تماما... عندما تمارس الجنس مع شخص ما... أنت تمارس الجنس مع كل شخص آخر مارس الجنس معه قبلك».

ثم أوضح الأصلع أن التحريات أثبتت أن فتاته الشقراء كانت منذ سنوات على علاقة بطبيب فلسطيني - زميل لها في المستشفى، وأضاف بسادية تامة أن التحريات لم تتوصل إلى دليل يدين الممرضة فيرونيكا أو الطبيب الفلسطيني - مسيحي بالمناسبة - بأي خرق للقانون، لكن رغم

هذا فلا تستطيع الوكالة تحمُّل مجرَّد احتمال حدوث اختراق أمني لها، فقاعدة «ماذا لو؟» هي في النهاية سيدة الموقف...

ينهض مارتين فجأة، يسارع إلى دورة المياه ويترك الباب مواربا خلفه، صوت رشاش بوله يرنُّ في المرحاض، يعود إلى الغرفة الرئيسية، يطمئن أن الملاحقة لا تزال جارية في القاهرة، يتوقَّف لحظة أمام أربع ساعات دائرية مثبَّتة في الثلث العلوي للحائط المواجه للشاشات، مكتوب أسفلها على التوالي: طهران، القاهرة، لندن، الساحل الشرقي، تظهر ساعة القاهرة أنها الرابعة وعشرون دقيقة بعد الظهر حسب التوقيت المحلي، يتأمل ملصقا كبيرا مثبَّتا أسفل الساعات، خلفية الصورة عبارة عن السماء وقت الغروب ومن تحتها أرض ملونة بدرجات مختلفة من البرتقالي، في المقدمة فرع شجرة أسود مدلَّى منه حبل مشنقة، أعلى الصورة كلمات كتبت بحروف سوداء غليظة: «عقاب من لا يلتزم بقواعد الأمن»، خرير امتلاء صندوق الطرد الوارد من غرفة الحمام يتوقَّف، يهزُّ مارتين رأسه ويعود إلى مقعده.

على الشاشة تتوقف الباجيرو في إشارة المرور عند ميدان مجنون يطلقون عليه «ميدان الجيزة»، ثم تنطلق فجأة والإشارة حمراء، تخترق سيل السيارات المتقاطع دون أدنى اكتراث، سوف يحدث تصادم مروِّع... لكن الحظ حالفهم هذه المرَّة، يتابع مارتين في ذهول كيف ينجح السائق بمهارة في اختراق الميدان والعبور للجانب الآخر.

«يا ابن العاهرة». يأتيه صوت أحد العملاء على مكبِّر الصوت معبِّرا عن عجز سيارتَي المتابعة عن اللحاق به.

لكن سائق الدرَّاجة الآلية ينجح في المناورة بين السيارات المتخبطة ويخترق الأزقة على الجانب الآخر للميدان متتبعا أثر الباجيرو الدافئ، لا يلوم مارتين

العملاء في السيارتين وهو لا يعرف أيًّا منهم شخصيا، فهو رجل محترف يقدِّر أهمية توخِّي الحذر عندما تتم العملية في دولة أجنبية بلا تنسيق مسبَّق مع الأجهزة المحلية، يرتشف قهوته التي بدأت تفتر، مذاقها مرٌّ على لسانه، هذه عثرة عابرة لكن العملية لم تنتهِ بعد.

تُظهر الشاشة بنايات متهالكة وسيارات تسدُّ الأزقة والبشر كالنمل يزحفون في كل اتجاه غير مكترثين بالمركبات السائرة في الطريق الضيق، سائق الباجيرو يناور ويجنح يمينا ويسارا بين الأزقة لكن الدرَّاجة الآلية الملاحقة له تتمتع بميزة نسبية في هذه المساحات الضيقة، يشعر مارتين بقدر من الاطمئنان، ويهمُّ إلى إحضار مَج آخر من القهوة، لكن قبل أن يترك موقعه يحدث تطور غير متوقَّع على الشاشة الوسطى، فلحظة مرور الباجيرو أمام ورشة لتقطيع الزجاج تخرج منها مرآة ضخمة محمَّلة على عربة صغيرة بعجل، تمثِّل المرآة فجأة ساترا منيعا أمام العميل المتعقِّب، سد يعكس صورة الدرَّاجة الآلية المسرعة نحوه، ثم تهتزُّ الصورة بعنف قبل أن تنقطع تماما، تأتي صرخة العميل لتؤكد أن الموتوسيكل اصطدم، صرخة واحدة حادة ثم يسود السكون...

يراقب مارتين الشاشة المظلمة في ذهول، يأمل ألا يكون العميل أصابه مكروه، لكن هذه قضية ثانوية الآن، يراجع تلقائيا صورة القمر الصناعي، سوف يستطيع الاستمرار في متابعة الباجيرو لكن المهم إعادة توجيه الوحدتين الباقيتين لتلحقا بها، يشعر باحتياج ملحٍّ لمزيد من القهوة، مناوبته ستكون حافلة، يقرر أنه لا جدوى من تحريك الوحدتين قبل خروج الباجيرو للشارع العمومي واتضاح الاتجاه الذي ستسلكه، من يدري قد يكون ما حدث مفيدا في المحصِّلة، من المطلوب أن يشعر «ميكي ماوس» وأعوانه بقدر من الاطمئنان.

عندما يعود مارتين بمَج ينفث بخارا، يجد الشاشة الوسطى لا تزال مظلمة، بينما تشير صورة القمر الصناعي إلى أن الهدف عائد نحو جامعة القاهرة لكن من خلال طريق بديل، يوجِّه مارتين السيارتين للحاق به، لكن يفصلهما عن الهدف عشر دقائق على الأقل، تستفسر إحدى الوحدتين عن مصير زميلهم سائق الدرَّاجة الآلية، يتصوَّر هؤلاء العملاء أن مركز القيادة الذي يتابعهم لديه إمكانيات مراكز الـ «سي آي إي» أو «إن إس إي»، لو عرفوا أن مركز الكوبرا أشبه بجحر الثعبان ويقتصر طاقمه حاليا على فردين يعملان بالتناوب لأصيبوا دون شك بصدمة عصبية تفقدهم شعورهم الكاذب بالأمان.

قبل أن يتمكَّن من الإجابة عليهم تتوقف الباجيرو بالقرب من الجامعة، من خلال صورة القمر الصناعي يستطيع مارتين تمييز أن الرجل الذي هبط بجوار محطة المترو هو «ميكي ماوس» ، الهدف يفقد توازنه ويقع أرضا، يجلس على الرصيف لوهلة لكن سرعان ما ينهض ويتجه على الفور إلى منزَل المحطَّة، في ثوان يختفي الهدف في جوف القاهرة... قد خرج عن نطاق المتابعة بالقمر الصناعي...

يجد مارتين نفسه يصرخ كالمجنون، القاعة ترنُّ بسبابه، ثم يتمالك نفسه تدريجيا.

يدرك أن البحث عن فرد واحد وسط زحام القاهرة أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، إلا أن لجوء الهدف إلى جهة على هذه الدرجة من الاحتراف قد أدخل عنصرا جديدا في المعادلة، نعم اللعبة لم تنته بعد، لا يزال هناك أمل، فلا يمكن أن تكون هذه المجموعة تابعة للسلطات المصرية وإلا ما ظهر «ميكي ماوس» أصلا، إذن فالهدف قد تحالف مع عصابة إجرامية أو جماعة إرهابية أو جهاز مخابرات لدولة أخرى من دول المنطقة، خطوة بجد

خطيرة، تضفي على الموقف تعقيدا غير متوقَّع، لكنها في الوقت نفسه ربطت «ميكي ماوس» بكيان أكبر يسهل تتبعه، أخيرا ارتكبتَ خطأ استراتيجيا يا «ميكي» سوف يؤدي حتما إلى وقوعك في الشباك.

«البشر كلهم يخطئون، ألم تدرِ؟» يقول مارتين بصوت مسموع.

تخفف هذه الفكرة من توتره، يبتسم ويبدأ دورا جديدا للـ «فري سيل».

***

الفصل الثالث

الجيزة
مساء الاثنين 8 يناير 2007

مع انطلاق أذان العشاء يجنح المخِّيخ إلى الحارة المتعرِّجة، المؤذن صوته غير مدرَّب، يضاعف من حشرجته شوشرة مكبِّر الصوت المثبَّت في سور إحدى الشرفات إلى جوار ربطة ثوم وشبكة بصل وعلى مقربة من ثلاثة صفوف من الغسيل المنشور، الغسيل عبارة عن ملابس أطفال وألبسة صعيدية رجالي برجلين وفانيلات بكم طويل وجلباب واحد ذي لون داكن، هذه الشقة بلا حريم أو تتبنى عقيدة راسخة بعدم جواز نشر الملابس الحريمي أمام الخلق.

لأول مرَّة منذ أن قرر الإقامة هنا قبل خمس سنوات يشعر بارتياح لسماع صوت الشيخ برهومة المشروخ عبر مكبر الصوت، يكتشف أنه يشعر بالأمان هنا أكثر من أي مكان آخر على وجه الأرض، هنا حيث البنايات بلا أرقام والشوارع لا أسماء لها – على الأقل من الناحية الرسمية – حيث ضيق الحارات لا يسمح بمرور السيَّارات، والمشاة يتخذون مسارات متعرَّجة لتفادي أكوام الزبالة، ويتمرسون الحفاظ على اتزانهم في قفزات متتالية بين الأحجار المبعثرة وسط برك المجاري بعبثية منظَّمة، هذه المنطقة هجين بين الريف والحضر لكنها على بعد أمتار من شارع السودان والمدينة الرسمية،

هنا مأواه، شأنه شأن آلاف البشر يأكلون ويشربون، يحبون ويتناسلون، يمرضون ويموتون دون أي سجل رسمي لوجودهم... تهفُّ على المخِّيخ عفونة صارخة من كوم للقمامة لكنها لا تنجح في تبديد تفاؤل عاد إليه بعد سنوات من اليأس.

هذه الحارة لا تتبع الدولة المصرية التي وصفها جمال حمدان بالغاشمة الجهول، ولا يعترف سكَّانها بالإمبراطورية الأمريكية وحلفائها وتوابعها، ولا حتى بأعدائها من المارقين رعاة الإرهاب أعضاء محور الشر، بل لا يكترثون بهيئة الأمم المتحدة بكل ما في جعبتها من أعلام ترفرف وخطب ترنُّ وإكسلانسات يتداولون في حماس موضوعات لا يفهمها أحد غيرهم، أنت هنا بالضبط في عالم موازٍ خارج مسار التاريخ الرسمي، لا شكل له ولا لون على خريطة الكرة الأرضية، عالم تتظاهر الحكومات المتعاقبة بأنه غير موجود أصلا فتتجاهله ولا تدرج سكانه وأنشطتهم في سجلاتها وإحصاءاتها وتعمل ما في وسعها لمحو أي أثر لهم من على سطح البسيطة، ومأساة عشوائيات العالم الثالث هذه – للمفارقة – هي التي جذبت المخِّيخ إلى هذا المكان أصلا، خاصة بعدما أدرك أن مرافق الكهرباء بقدرة قادر متوفِّرة وحتى الإنترنيت يمكن تدبيره، باستثناء موضوع المياه والصرف الصحي الذي لم يجد بدا من التعايش معه شأنه في ذلك شأن ملايين البشر.

يمرُّ من أمام مدخل عمارة «الست الطيّبة» متظاهرا بأن لا علاقة له بهذه البناية المتعرِّجة ذات الطوب الطفلي وردي اللون والأعمدة والكمرات الخرسانية المكشوفة بلا بياض أو دهان يستر عورتها، بخطوات ثابتة يستكمل مسيرته فوق أرضية الحارة المطيَّنة متعمِّدا الاختباء بين الظلال بقدر الإمكان، بعد مائة متر أو ما يزيد يتوقَّف ويستدير للخلف فجأة، يدرك أن

موقعه في هذا الركن المظلم سوف يخفيه عن أنظار أي شخص يتعقَّبه، عندما يطمئن إلى أن البرَّ أمان يعود مسرعا إلى مدخل عمارة الست الطيّبة المفتوح على الغارب لا يحميه باب ولا يحرسه بواب.

يتأمل سخرية القدر كلما يقرب هذا المبنى الذي ضرب من بناه عرض الحائط بأبسط قواعد الهندسة، فها هو عبقري الهندسة الإنشائية يقيم فوق سطح مبنى يكاد ينافس برج بيزا، كما أن المبنى المجاور -الذي يشعر المرء وكأن بيت الست الطيّبة سوف يكتم على أنفاسه في أي لحظة- بالضبط دار فلاحي من الطوب النيئ، لا بد أنه ماكث هنا منذ كانت المنطقة المحيطة عبارة عن غيطان وسواقٍ وماعز ونساء حافيات يحملن مشنَّات بها مِش وبتاو، عندما كان الفقر يرافقه الرضا وكانت لقمة هنية تكفّي مية، قبل أن تزحف عليه جحافل المهمشين في المدينة كجيش من النمل الأبيض لا يفوق عدوانيته سوى جشعه.

البناية التي يسكنها - والمملوكة للست الطيّبة - مسقطها الأفقي مستطيل لا تزيد عرض واجهته المطلَّة على الزقاق على أربعة أمتار، عند المرور من بابها يشعر المرء بدخول سرداب عميق مظلم، باب الشقة الوحيدة في الدور الأرضي يكسوه قفص خارجي من القضبان الحديدية مغلق بقفل إنجليزي معتبر، الشقة مؤجرة لتاجر يستغلُّها كمخزن، لم يرها المخِّيخ أبدا مستخدمة وإن كان يسمع أصواتًا لعتالين يأتون كل حين وحين وسط الليل لتحميل سيارات سوزوكي - وهي وحدها القادرة على ولوج هذا الزقاق الضيق- ببضاعة يجهلها المخِّيخ وإن كانت على أي حال تثير ريبته.

يتَّجه نحو السلّم المتهرئ المؤدي إلى مخبأه فوق السطح، يسير بخطوات مترقِّبة في الظلام، ثم يتسمَّر في مكانه لحظة أن يرجَّ صوت الـ «ست» البناية كتسونامي ولّدته محيطات الكرة الأرضية مجتمعة.

«انتي يا بِت يا زكزوكة... رحتي فين يا مقصوفة الرقبة».

يدرك المخِّيخ فجأة أنه يلتقط أنفاسا متتالية من فرط مجهود اليوم، تنفُّسه يصفِّر كريح يعصف الأطلال، أزمته الصدرية أصبحت مزمنة في الآونة الأخيرة، لا يعلم إن كان شهيقه سيكشف للست عن وجوده.

«دا انتي تحمدي ربنا إن فيه رجالة بتعبرك... وانتي عاملة كده زي الست الأمريكانية اللي بتطلع في التليفزيون».

يبتسم المخِّيخ للمرَّة الأولى هذا اليوم، أعجبته دعابة الست الطيّبة، ثمة تشابه بالفعل بين زكزوكة ووزيرة الخارجية الأمريكية - أقوى امرأة في العالم، الغريب أنه لم يلاحظه من قبل، أو -للدقة- أدركه بعقله الباطن دون أن يبلوره في فكرة محددة.

يستنتج من نفير الست الطيّبة أن صبرها قد نفد، لكن لا حسّ ولا خبر من زكزوكة.

بسماع رنَّة المزلاج يهمُّ بالصعود، في لهفة يقفز درجتين في كل خطوة، بعبور بسطة الدور الأول في سلام يتصوَّر أنه أفلت من مزيد من التنغيص هذا اليوم على الأقل، لكن صوت الست الخارق للفولاذ «يقفشه» من قفاه قبل أن يدرك البسطة التالية.

«سبع ولا ضبع يا سي الأستاذ؟» أهبل وعبيط من يتصوَّر أن الطيبة من صفات الست الطيّبة، هذا مجرَّد اسم للشهرة، بالضبط علامة تجارية.

«دي قصة طويلة يا ست الكل... إنما خللي في بطنك بطيخة صيفي... مش حزعجك بالتفاصيل بالضبط دلوقت... الصباح رباح». يحاول المخِّيخ في حديثه أن يتقمَّص شخصية ابن البلد.

«والله مزيكا يا سي الأستاذ... قلت رايح البنك عشان تعرف تسدد اللي عليك، وبعد ما غِبت وغِبت جاي تقول لي الصباح رباح... ما تعزف لي كمان لحنين والنبي». تضيء صالة شقتها فجأة فتغمر البسطة وجزءًا من قلبة السلّم بمستطيل من النور المرتعش.

يستنتج المخيخ أنها تعمَّدت إبقاء صالتها عاتمة وهي تفتح الباب على سبيل التمويه.

الست الطيّبة ترتدي عباءة مغربية بلون البن المحمَّص مطرَّزة بخيط ذهبي مشغول برقَّة، العباءة تغطِّي جسدها القصير المنتفخ من الرأس إلى القدمين، فتجعل محترفة الشعوذة – وأشياء أخرى أقل احتراما– تبدو كمخلوق خرافي كروي الهيئة أو كامرأة بدينة في رسم كاريكاتيري.

يتسمَّر المخِّيخ في مكانه، للمرَّة الثانية هذا اليوم يفتِّش في عقله عن جملة سحرية تحلُّ وضعا معقدا أو على الأقل تؤجله للغد، وللمرَّة الثانية لا تسعفه الكلمات، لكن هذه المرَّة يتدخَّل الحظ لينقذه، فيرنُّ بئر السلّم بخطوات ذكورية تستنتج الست أنها لزبون فتتبخَّر تكشيرتها، وتستبدلها بتعبير مدروس بالزهد والارتباط بعوالم غير مرئية لا يعلم البشر العاديون عنها شيئا.

يقطع قلبات السلّم الثلاث في لمح البصر رغم الظلام ويصل إلى سطح البيت وهو يلهث، يحكم إغلاق باب غرفته بالمزلاج ويضغط على زرِّ النور ثم يسارع إلى الرُّكن الذي يستخدمه كدورة مياه ومطبخ في آن، يتذكَّر أنه لم يعِد الدلو إلى مكانه، يخرج مسرعا إلى ركن السطح القبلي ويعود به في قرف، يكتشف أنه لم يفرِّغه بعد من محتوياته، يبول سيلا وفيرا متقطِّعا ثم يتَّجه تلقائيا نحو جهاز الكمبيوتر المحمول المستقر فوق طاولة معدنية صغيرة ذات أرجل نخرها الصدأ، يضغط زرَّ التشغيل، يفتح باب الثلاجة التسعة قدم وينحني ليخرج منها زجاجة بلاستيكية بها ماء، يتجرَّع نصفه ثم يتأمل للحظة كمية الماء الباقية، يعيد الزجاجة إلى رفِّ الثلاجة ويجلس على الكرسي الخيزران أمام الكمبيوتر.

يضغط على علامة الكف وينتظر، يسعى للهروب السريع لكن الأصوات المحيطة ترفض أن تتركه لحاله، رجل ينهر زوجته بعنف أجش، مذيعة رصينة النغمة تقرأ نشرة الأخبار، طفل رضيع يصرخ إيذانا بوصلة من العويل الممتد، سمكري يطرق رفرفرا بطقطقة لا تكلُّ ولا تملُّ، ضوضاء الحياة العادية التي يحاول الفرار منها تحتضنه بعنف، ثم يذوب تدريجيا إلى خلفية مداركه مع ظهور الموقع المألوف بخلفيته الخضراء المريحة للعين، يدخل المخِّيخ «مفتول العضال» في خانة الاسم وتاريخ ميلاده الحقيقي في خانة كلمة السر، وسرعان ما تتفتح أمامه خريطة عالمه الخاص.

***

قرينه في العالم الموازي –الـ«أفاتار»– مستريح على شيز لونج أمام حوض السباحة، عضلاته –أي عضلات المخِّيخ الافتراضية– نافرة من تحت القميص الأحمر المفتوح حتى منتصف الصدر، مشهد جسده الافتراضي الذي يضاهي لاعبي الجمباز يصيبه بقشعريرة لذيذة، أما السلسلة الذهبية السميكة التي تلمع فوق صدره فتصيبه بشيء من تأنيب الضمير كتلميذ يسترق رشفة من سيجارة محرَّمة في الشرفة ليلا، أخيرا استعاد المخِّيخ هيئته المثالية بعد ساعات ممتدة قضاها في عالم عبثي موحش يعجُّ بالمخاطر، خانق للروح بظلم تفشَّى فيه، كاتم للأنفاس برائحة العرق النفَّاذة الممتزجة بدخان السجائر.

فتاة الحلوى مسترخية على شيز لونج بجواره، تأخذ رشفات متمهِّلة من ميلكشيك بالفراولة – مشروبها المفضَّل– بشفَّاط مقلّم أبيض في أحمر، اسمها مكتوب بأحرف لاتينية في الهواء فوق رأسها، شعرها برتقالي منسدل على كتفيها العاريين ومن تحتهما ثوبها الأبيض الكاشف للمفاتن، ثدياها في حجم حبتي المانجة التيمور، يقفز قلبه فرحا لرؤية هيئتها الإلكترونية الشهية.

فتاة الحلوى قالت : تأخرت يا مفتول.

أنت قلت : سامحيني يا حبيبتي... أعتذر أعتذر أعتذر... مشاغل سخيفة.

فتاة الحلوى قالت: أقلق أحيانا أن يأتي يوم لا تستيقظ فيه من النوم بجواري.

أنت قلت: كيف تقولين هذا يا حبيبتي... أنتِ أهم شيء في حياتي... على العموم سوف أعوضها لكِ بسهرة لاتينية صاخبة.

يضرب مفاتيح الكيبورد بأصابع متمرِّسة، الكلام يظهر أسفل الشاشة بالإنجليزية، ينهض «مفتول العضال»، يلفُّ المخِّيخ زاوية الرؤية ليتأمل جسد محبوبته الملفوف ذا الانحناءات المبالغ فيها، سور من الـ «فير فورجيه» لا يزيد ارتفاعه على متر يحيط بحوض السباحة، ومن خلفه هضبة صخرية يفيض منها شلال صامت، يستدير «مفتول العضال» ثانية حتى يواجه حوض السباحة، بخار الماء المنبعث منه يشير إلى أنه مدفأ، والبحر – من وراء السور– ممتد حتى نهاية الشاشة، أمواجه تتراقص في رجفات إلكترونية رتيبة.

فتاة الحلوى قالت: أحبك لأنك تفهمني جيدا... تعلم يا عفريت كم أعشق الرقص.

أنت قلت : وأن التانجو رقصتك المفضَّلة.

تنهض فتاة الحلوى من على الشيز لونج وتقف بجوار «مفتول العضال»، هي أقصر منه كثيرا مما يولِّد بهجة متجددة في نفسه، أكثر ما شجَّع المخِّيخ على تقمُّص هيئة «مفتول العضال» الإلكترونية هو طول قامته مقارنة بالجنس اللطيف، وهو أمر لم يعتده في حياته السابقة، يتأمل باعتزاز شعره الطويل المنسدل على رقبته دون أن يصل لمنسوب الكتفين، يبرز ذكورته من خلال شارب ولحية جزئية على طريقة الـ «نيو لوك».

فتاة الحلوى قالت: إذن هيا بنا.

عند الحديث تُحرك الـ «أفاتار» أصابعها في إشارة الكتابة على الكيبورد قبل أن يظهر الكلام على الشاشة ببضع ثوان.

تتجه الفتاة إلى داخل الفيلا ويتبعها «مفتول العضال» في صمت، تستقبلهما أغنية مألوفة ذات إيقاع راقص في غرفة المعيشة، شاشة تحتلُّ الجزء الأكبر من الحائط تعرض الفيديوكليب الخاص بها، المغنية الشقراء تتراقص مع الأنغام، تشير محبوبته إلى ركن الغرفة.

فتاة الحلوى قالت: أفكّر في شراء تمثالٍ فني لهذا الركن... المفكر لرودان مثلا... ما رأيك؟

ثم تخرج من الباب الخارجي للفيلا دون أن تنتظر ردا منه، ينطلق «مفتول العضال» خلفها إلى الحديقة ثم إلى الممر العام.

أنت قلت: دعنا نسير على الأقدام إلى الملهى الليلي، لا داعي للانتقال المباشر.

فتاة الحلوى قالت: أنت تمر بطور غريب هذه الأيام يا مفتول.

أنت قلت : لديّ رغبة في مشاهدة البيوت المجاورة لنا، أريد أن أتبادل التحية مع الجيران، أحتاج لأن أشعر بالمسافات... بالفضاء... بملايين الناس الذين يشاركوننا عالمنا هذا.

فتاة الحلوى قالت: كلنا نمرُ بهذا الطور من حين لآخر... نحتاج أن نطمئن أنفسنا أن عالمنا لا يقلُّ مصداقية عن العالم المادي... لكن المسافة طويلة للملهى.

أنت قلت: فلنمضِ على الأقدام حتى أشعر بالاطمئنان... بعد ذلك إن شئتِ يمكن أن نستعين بخاصية الانتقال المباشر إلى الملهى.

يسيران وسط ساحة متَّسعة أرضيتها مبلَّطة برخام رمادى معرَّق بتجاعيد بنية، على الجانب الأيمن تتوالى المحلات التجارية التي تبرز بضاعتها في شكل لافتات كبيرة بها فتيات مبتسمات، وعلى جانب الساحة الآخر تلمع صفحة مياه النهر المتسع الذي يصبُّ في البحر، المشاة يسيرون في الساحة في كل الاتجاهات، أسماؤهم تطفو فوق رءوسهم، بعضهم يتسكَّع والبعض الآخر يسرع نحو غاية مجهولة فيخرج عن نطاق الشاشة، على ضفَّة النهر توجد حديقة بها نخيل وورود حمراء وبنفسجية مبالغ في حجمها، على الضفة المقابلة أبراج ومبان ذات تصميمات ما بعد الحداثية تؤكد أنهما يعيشان في متروبوليس بمعنى الكلمة.

أنت قلت: أكره الطابع التجاري الذي تسرَّب إلى مدينتنا.

فتاة الحلوى قالت: معك حق يا حبيبي... لكنها سمة العصر... وأحيانا توفِّر هذه المتاجر سلعا نحتاج إليها في مناسبات معيَّنة.

أنت قلت: تقصدين بالتأكيد محل الورود الجديد... لم أره هنا من قبل.

فتاة الحلوى قالت: تفهمني دائما يا عبقري.

يفاديان كنَّاسًا ينظِّف الرصيف مكتوب بجواره بأحرف حمراء صغيرة: «كسب 8 وحدات نقدية حتى الآن»، يخطر للمخيخ أنها وظيفة يستطيع اللجوء إليها عند الحاجة، يصلان إلى حافة النهر بجوار سلّم رأسي يؤدي إلى زحليقة «توبوجون» ملتوية.

أنت قلت: هيا بنا نلهو كالأطفال.

فتاة الحلوى قالت: أنت طفل كبير رغم عضلاتك وملامحك الرجولية.

يرتجُّ «أفاتار» الفتاة ضحكا، ثوبها الأبيض الرجراج يوقظ حواسه، يضغط المخِّيخ على زر الضحك فيهتزُّ «مفتول العضال» معها، ثم يتسلَّق السلّم حتى يصل المنط، عندما تلحق به يرمي نفسه على الزحليقة الحلزونية، يكتسب هبوطه سرعة مضاعفة مع كل لفَّة من لفَّات التوبوجون، فتاة الحلوى خلفه مباشرة... فتاة أحلامه ذات الجسد الملفوف والحس الرقيق، يشعر بدوار لذيذ، إيقاع موسيقي في الخلفية، سعادة لم ينعم بها من قبل، وسط دقَّات طبول آتية من مسافة بعيدة، يخترق مياه النهر الصافية بطرطشة منعشة، الفتاة تهبط إلى جواره، رذاذ المياه يداعب وجهه بحسيّة شيطانية، الطبول تزداد إلحاحا، يريد أن يعانقها وسط النهر لكنه لم يتقن تحريك الـ «أفاتار» لهذا الحد.

أنت قلت: أرغب في معانقتك يا أحلى وألذ فتاة في الدنيا.

فتاة الحلوى قالت: أنا أفعل ذلك أحيانا... أضغط ذراعَيَّ على صدري فأشعر بجسدك العفي يحضنني بقوة.

يفعل المخِّيخ مثلها، يغلق عينيه وهو يحتضن نفسه، ضربات قلبه ترنُّ كالطبل في أذنه، يشعر بملمس جسدها كالملبن على صدره، يكاد جسداهما يندمجان، يذوب كل منهما في الآخر، دقَّات قلبها ترجُّه، تحدِّثه في همسات شبقية آتية من الأعماق، لكن يتنبه فجأة إلى أن مصدر الصوت خارجي، نقرات قوية على الباب تمتزج مع صوت نسائي به بحَّة حسيِّة.

«فوق يا حضرة الشاعر... يا أستاذ فوق بقى... هو كل مرَّة لازم أقعد أخبَّط لما ينقطع نفَسي؟»

***

لم يستوعب المخِّيخ أنه يعيش في بيت للدعارة إلا بعد ستة أشهر من الإقامة في منزل الست الطيّبة، في البداية برر سهولة الحصول على هذه الغرفة غير المشغولة وبسعر معقول – رغم أزمة الإسكان الطاحنة – بشعوذة الست الطيبة وما تردد حول زواجها من أمير للجان، فذهب تفسيره الساذج إلى أن الغرفة الكائنة فوق السطح لا بد مسكونة، وهو أمر لم يقلقه كثيرا لأنه –بحكم تجربة سابقة له – قد اعتاد التعايش مع الأشباح، ولذلك غمرته نشوة في أول أيامه في هذا المكان وأصبح يسير في الحارة بخطوات «ماتشو» مفرود الظهر نافش الصدر رغم نحول عوده، وبالفعل تصوَّر نفسه فارسا لا يهتز له رمش في مواجهة الأشباح والعفاريت، مار جرجس العصر الحديث يتحدى المجهول من فوق جواده الأبيض، فتقمَّص دور البطل في أفلام الرسوم المتحرِّكة... تلك خلاصة حياته منذ أن تشكَّل وعيه: مأساة إغريقية تارة وكوميديا الـ «سلابستيك» الأمريكية تارة أخرى.

«إيه يا حضرة الشاعر... عايش جوه الكمبيوتر بتاعك على طول؟» أمام الباب امرأة منتقبة لا يظهر منها سوى عينيها، جسدها ملفوف لا تنجح عباءتها الفضفاضة في طمس تضاريسه كليّة، قدماها داكنتا اللون مكشوفتان من تحت شبشب من جلد أسود أنيق، أظافرهما تلمع بطلاء أحمر يميل للبنفسجية.

«أعذريني يا كوندوليزا... كنت منهمك شوية في الشغل». يومئ لها بالدخول على سبيل المجاملة مع إدراكه المسبَّق أنها ستعتذر.

«هو انت كمان حتلوي لي لسانك وتناديني بالاسم المعقرب ده؟»

لا يستطيع تمييز إن كانت عبارتها على سبيل استحسان تدليلها بهذا الاسم غير المألوف أم اعتراضا عليه.

«في مين غيري بيقول لك كوندوليزا؟»

رغم أن الست الطيّبة هي أول من عبَّر عن التشابه الواضح الآن بين زكزوكة ووزيرة الخارجية الأمريكية، إلا أنه لا يتصوَّر أن قدراتها اللغوية تتيح لها نطق الاسم.

«ليه هو انت الوحيد اللي متنوّر يا جِنتِل؟»

لم يقصد التقليل من شأن أحد، في حرجه لا يردّ، يومئ لها بالدخول ثانية.

«حضرتك نسيت حكاية الراجل والست والجدع التالت اللي ما يتسمّاش ده... والا إيه؟» صوتها يشي بصغر سنها رغم نضوج جسدها والذي لا ينجح زيّها في إخفائه.

«ما كنا بنخش وما كانش بيجرى حاجة».

بالضبط، لم تكن تتردد في بداية معرفته بها عام 2002 في الدخول إلى غرفته والاسترخاء فوق فراشه في أثوابها الكاشفة أكثر من اللازم... كانت – ولا تزال إلى حد ما– طفلة حبيسة في جسد امرأة.

«ربنا تاب عليّ يا جِنتِل... حتى رحمة ربنا مستكترينها عليّا؟»

كذَّابة في عينك يا زكزوكة، لا تزالين على حالك رغم العباءة والنقاب، مع هذا فلا لوم عليها؛ فبعد ما مرَّ به من تجارب لم يعد بمقدور المخِّيخ أن يدين أحدا، أصبح يتقبَّل البشر على ما هم عليه، لم يعد شيء يدهشه هذه الأيام، باستثناء سذاجته هو المستحكمة، من المضحك أنه قضى شهورا دون أن يستنتج حقيقة مهنتها، الرجال يدخلون ويخرجون وهو منعزل في عالمه الخاص لا يهتمُّ كثيرا بما يحدث حوله، إلى أن سألته يوما وبشكل عابر: «تحب واحد بلانش؟»، فأخذ يقلِّب كلمة «بلانش» في عقله محاولا استشفاف

معنى لها، فهي قريبة من «لانش» بمعنى قارب سريع أو – وهو الأرجح – وجبة الغداء، لكن نظرة عينيها السوداوين وابتسامتها الشقية أكدتا أنها لا تتحدث عن الطعام، «غلب حماري» اضطر أخيرا للاعتراف بجهله، فانطلقت مقهقهة: «بلوشي يعني يا جِنتِل... على رأي المثل: أبو بلاش كتر منه»، ثم استلقت بمياصة على السرير الضيق معرية فخذا داكنا ملفوفا... عندئذ أدرك عبقري زمانه الحقيقة.

«ونعم بالله... لكن مش خلاص اتفقنا اننا اخوات؟» يردُّ عليها اليوم بالفم الملآن لأنه لم يقبل عرضها يومئذ ولم يوافق في أي وقت أن يحدث تلاق جسدي بينهما.

«والله لو عندي لبن كنت رضَّعتك وحلينا المشكلة». تشعُّ عيناها السوداوان في شقاوة بناتية.

المخِّيخ لا يبادر بالضحك، يدرك أنها مع تحوُّلها إلى التديُّن في الأشهر الأخيرة أصبحت تأخذ مثل هذه الفتاوى بجدية تامة، بل تنفجر غضبا عند إثارة أي نقاش حولها، لكن الموضوع يتعدَّى تديُّن العاهرة الظاهري، فلم يشعر بالأمان الكامل معها سواء قبل تستُّرها بالسواد أو بعده، عيناها تشعان خطرا حتى عندما تمارس الإغواء، ثمة عدوانية كامنة لا تفارقها، تنبض مع كل حركاتها، بالضبط، يشفق على هذه الشابة ويخافها في آن.

«قصدي يعني... إن حاجات تانية أولى بالتوبة». يندهش المخِّيخ لقسوة عبارته... بل لفجاجتها، يبرر رده المفاجئ لنفسه بالحرص على مصلحتها، فهي لم تتعدَّ العشرين، لا تزال في بداية الطريق، لكنه يدرك أن الشفقة لا يمكن أن تفرز مثل هذه الإهانات، يستطرد بسرعة:

«أنا آسف... سامحيني... أصل الجو فيه لسعة برد وكنت خايف عليكي من الأنفلوانزا».

أكثر ما استفزَّه عندما تحوَّلت إلى هذا الزي الكئيب أنه لم يعد يستطيع متابعة تعبيرات وجهها، يحاول أن يتخيَّل ردَّ فعلها إزاء عبارته الجارحة، يهمُّه أن يعرف إن كانت مشاعرها تبدَّلت بعد اعتذاره، لكنها خلف الحاجز تظل طلسما، عاصية على الفهم، حتى الحوار معها أصبح مُجهدا، بل يجد نفسه أمامها في موقف الضعف بعد أن كانت له اليد العليا في السابق لعجزها عن إغوائه بوركيها الملفوفين.

تستدير وتبتعد دون أن تنطق، يهمُّ للحاق بها لتكرار الاعتذار إن لزم، لكنها تعود بصندوق فارغ من صناديق زجاجات المياه الغازية وتضعه على الجانب الخارجي من باب غرفته، تنقضُّ فجأة بنعلها على صرصور هارب من الصندوق، تسحق جسد الحشرة على البلاط بعد قتلها، تحدِّق في المخِّيخ وهي لا تزال تطحن أشلاء الصرصور، الغيظ يشعُّ منها كقنبلة نيوترون صامتة.

«ما تبحلقش فيّ وحياة أبوك... ده من وانا عندي اتناشر سنة بتفعص يوماتي زي الصرصار ده وأكتر شويتين».

توسطن مؤخرتها على حافة الصندوق الضيقة بمهارة، وتحافظ على توازنه في وضع رأسي على بلاط السطح وهي تجلس عليه، ليست هذه أول مرَّة تجلس فيها بهذا الشكل، لكنه لا يستطيع التغلُّب على شعوره بأنها في أي لحظة سوف تفقد توازنها وتندلق على الأرض – المشهد سيكون هزليا بالتأكيد... لكن بسبب تشددها لن يخلو من الجدية.

«انت جِنتِل يا حضرة الشاعر... لأول مرَّة في حياتي راجل يكون شهم معايا..». تستطرد بهدوء بعد أن تمالكت نفسها، تشكره لشخصه وتلعنه لجنسه في آن.

يسعده أن تناديه بلقب الشاعر، وهي الشخصية التي تقمَّصها عندما انتقل إلى هذا المكان، فهذه الغيَّة تبرر في أعين هؤلاء البسطاء عدم اشتغاله بعمل منتظم وقضائه أغلب أيامه منعزلا في غرفته، كما أنها تشتت الأنظار بعيدا عن خلفيته العلمية، لكن هناك بعدا آخر تبلور مع مرور الوقت لا يستند إلى اعتبارات برجماتية بحتة؛ إذ يروق له أن يشِّبه نفسه بالكاتب «جي دي موباسان» الذي أقام في بيت للدعارة في باريس القرن التاسع عشر، فحوَّل تلك التجربة – المنحطة إلى حد كبير– إلى علامة من علامات الإبداع والتميُّز، جعل من الفسق رمزا للبطولة الحداثية، وأشعل خيالات شباب المخِّيخ المبكِّر، ولم يكن إعجاب المخِّيخ بـ «دي موباسان» تطلعا للتشبُّه به في مجال العلاقات الجنسية –لم يتصوَّر أبدا إمكانية إيجاد علاقات جنسية سوية في بيت للدعارة– بل كان حبا للتجربة وتحديا للتقاليد وتعطشا للمغامرة... ذاك العطش الذي أراد له الحظ أن يرتوي لحد الثَّمَل.

«لسه فاضل عندك شاي؟» لا تنتظر حتى يقدِّم هو واجب الضيافة.

«واحد شاي كُشري لسِت الكل وصلّحه». يغلِّف حرجه بالمزاح وهو يتجه للبرَّاد.

هكذا علاقتهما... يتظاهران بالصداقة بينما لا يثق أيهما بالآخر.

«خللينا في الجد دلوقت... أنا جاية لك في موضوع مهم». تهتز قليلا فوق صندوق الكازوزا.

لا يستريح إطلاقا لتبادل الحديث معها عبر الباب المفتوح، خاصة أن الموضوع على ما يبدو له خصوصيته، يتذكَّر فجأة موضوع ديدي وورطته معها، لا يكاد يصدِّق أن موضوعا على هذا القدر من الإلحاح غاب عن ذهنه ولو لدقائق... لكن ديدي في نهاية المطاف ليست واحدة من أهله، لم

تربطه بها سوى معرفة عابرة... علاقة سطحية لا تبرر أبدا أن يورِّط نفسه في حكاياتها العبثية الخطيرة...

«خير؟» يردُّ عليها في شرود وهو يصبُّ الشاي.

«الشيخ عبد المحسن الورور... واحد زبون... بيقول قال إيه فيه حاجة في شرع ربنا اسمها جواز المتعة... الكلام ده صحيح يا حضرة الشاعر؟»

يقلِّب السكَّر بالملعقة في كوبها ثم في كوبه دون تعجُّل، يناولها كوبها ثم يجرُّ كرسيه ليقترب من الباب، يجلس في مواجهتها ويضع الكوب الساخن على البلاط.

«الورور؟» يستوقفه الاسم.

ترتشف الشاي بحركات كوميدية من تحت النقاب غير عابئة بالبخار المنبعث منه، تُصدر صوت كركرة ممتدة وهي تبرِّد السائل المُلهب في فمها، رغم أن المسافة التي تفصلهما لا تتعدى مترا -هي جالسة فوق الصندوق في مواجهة الباب المفتوح بينما هو على كرسيه الخيزران داخل الغرفة- إلا أن حاجزا منيعا يفصل بينهما، فالأبواب المغلقة مفتاح الخصوصية.

«هو طالب من الملتحين... بس رُد على السؤال وحياة ابوك أصل الموضوع ده يهمني خالص». تقول بعد أن تضع كوبها على البلاط.

يجد المخِّيخ صعوبة في أن يأخذ كلامها بمحمل الجدِّ، غيظ تولَّد داخله تجاه هذه العاهرة التي تمارس الرذيلة مع كل من هب ودب ثم ترفض أن يغلق باب غرفته عليهما، فتعرِّضه لهواء يناير القارس بينما هي محتمية بخيمتها المتحرِّكة.

«ما عندناش احنا جواز المتعة... بالضبط... الكلام ده عند الشيعة». يردُّ في زهق.

المهم الآن ما العمل لإنقاذ ديدي؟

ها هو عقله يعود ثانية لحكاية ديدي وبلاويها...

يتعرَّض المخِّيخ فجأة لقصف من الضوضاء: أم تصرخ في ابنها، حفيف قطار عابر على القضبان التي تفصلهم عن الشارع العمومي، أغنية لأم كلثوم، قطة تموء في هياج جنسي، زن حركة المرور التي لا تكلُّ على شارع السودان، رجل يقهقه في مرح، الأصوات تبلورت فجأة بعد أن كانت غاطسة في لا وعيه، مجرَّد التفكير في ورطة ديدي أخرجه من نعاسه وأيقظ الحواس.

«طب هم الشيعة مش مسلمين برضك؟» يميِّز أنها عقدت حاجبيها في تركيز، نجاحه في اختراق حاجز النقاب ولو جزئيا يشعره براحة ما.

«طبعا مسلمين... لكن كمان عندهم شروط علشان جواز المتعة يكون شرعي». بدأ يدرك ما ترمي إليه كوندوليزا بالضبط، العاهرة الفاجرة شيء مفهوم لكن العاهرة المتديِّنة أمرها محيِّر، لماذا لا يرضى الناس بحالهم أبدا؟

شيء غريب صحيح، لكن الأغرب أنه هو – العالم العبقري – لم يعد لديه شخص يحادثه في الدنيا الواسعة غير كوندوليزا العاهرة – بعد فتاة الحلوى طبعا.

«شكرا... يا ابو العارفين». يبدو على عينيها الارتياح، تتجاهل تحذيره ببساطة نسائية، ثم تستطرد:

«ما قلتليش... سبع والا ضبع؟»

«إيه حكاية السباع وضباع اللي كلكم طالعين لي فيها... حمار مخطط يا ستي... غوريللا... وحيد القرن... مبسوطة؟»

«تبقى رجعت قفاك بيقمر عيش». تطلق سلسلة متصلة من القهقهة الفاجرة لا تتناسب مع الزي الذي ترتديه.

«نأجل التريقة لوقت تاني من فضلك... المهم المصيبة اللي انا فيها دلوقت».

«ولا مصيبة ولا حاجة... اعتبر حسابك مع الست الطيّبة اندفع يا سيدي... ما تخليش حاجة زي كده تعكّر دمّك أبدا».

بزلة لسان كاد يكشف لها الحكاية، لكنها فسّرت كلامه بالشكل الذي يتمشّى مع المعلومات المتاحة لديها، عرضها السخي يثير ريبته، كان من المفترض أن يشعر بالعرفان للفتتها الكريمة، لكنه لم يثق بها أبدا، يخلع المخِّيخ نظّارته ويلمّعها بطرف القميص، لم يعد يدري أصلا إن كانت أحداث اليوم حقيقة وقعت أم محض خيالات تمكّنت منه بفعل صدمة الخروج للواقع المصري مجددا.

ثم ما الذي تخطط له كوندوليزا بالضبط؟

***

الفصل الرابع

شارلوت - كارولاينا الشمالية
الاثنين 8 يناير 2007
الساعة 21:00 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

«أتعشَّم أن تكون لديك أخبار سارة هذا المساء». يقول «ألفا» وهو يعلِّق سترته البنية الجرباء، لم يعنِ نفسه بأن يلقي على مارتين التحية قبل أن يطرح سؤاله.

«مساء الخير «ألفا»... لديّ خبران في الواقع... أحدهما سار والآخر مقلق، تفضِّل أن أبدأ بالسار؟» لهجة مارتين بها تهكُّم، بجد تستفزه نظرة الآخر الوقحة، كأنه يلومه مقدما على أي إخفاق محتمل.

لا يردُّ «ألفا» ، يحمل علبة كرتون عليها علامة إحدى شركات الـ«دوناتس» وكيسًا بداخله مشروبات غازية في الأغلب، يضعها في المطبخ ثم يعود وفي يده معلَّب «بيبسي»، يسند هيئته الضخمة على الحائط المجاور للمدخل، فوق رأسه مباشرة مصباح أحمر للإنذار يضيء في حالة حدوث تسلل إلى الشقَّة الخارجية، لم يشهده مارتين يضيء بشكل تلقائي منذ أن بدأ العمل في هذا المكان وإن كانوا يختبرونه كل ثلاثة أشهر للتأكد من أنه يعمل بكفاءة، وجه الرجل المستدير يشعُّ احمرارا، كأنه هو الآخر يعلن حالة التأهب القصوى.

«في الواقع... أفضِّل الاستماع للخبر السيئ أولا». يأخذ رشفة من مشروبه ثم يحدِّق به كأنه يحاول أن يقرأ أفكاره قبل أن ينطق بها.

«نجح «ميكي ماوس» في الإفلات... بجد عملية على درجة عالية من الاحتراف». يقرُّ مارتين باقتضاب.

«أفلت الهدف... كيف؟» وجهه في لون الطماطم.

«في محطَّة مترو الأنفاق... زاغ في الزحام». يحاول مارتين إخفاء ارتباكه.

«إذن الهدف أفلت». يُخرج الرجل البدين إصبعا من شيكولاته «مارز» بالمكسَّرات من جيبه، يفكُّ الغلاف ويقضمه بغِلٍّ.

«والخبر السار؟» يسأل بفم ملآن.

«نجحنا في الوصول إلى مقرِّ المجموعة التي أدارت عملية الهروب... مزرعة على مشارف القاهرة». يشير إلى الشاشة الوسطى التي تظهر مسقطًا أفقيًّا للمزرعة بالأبيض والأسود التقطتها عدسة القمر الصناعي.

يسترجع مارتين وهو يتكلَّم حجم الإنجاز الذي تحقَّق، لن يسمح للرجل البدين أن يصف عملية اليوم بأنها فاشلة، يجب أن يفهم أن الكرة لا تزال في الملعب.

«إذن الهدف أفلت... بعد أن كان في قبضتنا». يهمس «ألفا» كأنه يحادث نفسه، يقبض بكفِّه الهواء.

يحدجه مارتين بنظرة تحدٍّ، لن يتهاون معه هذه المرَّة، مع ذلك بدأ الإرهاق يحلُّ عليه.

«هل تساورهم أي شكوك بأنهم تحت المراقبة؟» يسند «ألفا» كفه على الخزينة الصلب الرمادية، يحتفظون بخطة إدارة الأزمات وأسلحة متنوعة بها.

«هذا مستبعَد... المتابعة تمت بالقمر الصناعي وليس من خلال العملاء الأرضيين». ينهض مارتين، حان وقت الانصراف.

«هل نجحنا في تحديد هويتهم؟» يهتزُّ ذيل حصان «ألفا» عندما يتكلم.

«العنوان غير مسجَّل في ملفاتنا... المسألة قد تتطلب عدة أيام». يلبس مارتين سترته التويد.

«هل هناك تطورات في تجنيد بديل للعميل «بيتا»؟» يطرح مارتين سؤاله بشكل عابر قبل أن يخرج، يحاول أن يتظاهر بأن الموضوع لا يمثِّل أهمية ملحَّة بالنسبة له، محاولة مكشوفة بالتأكيد، «ألفا» أول من يعلم أنه منذ انقطاع زميلهم الثالث امتدت المناوبات لاثنتي عشرة ساعة بدلا من ثماني ساعات.

«سوف يبلغوننا في الوقت المناسب». تعبيرات وجه «ألفا» تنقلب من اللوم إلى الحرج، يتَّجه إلى مقعده المتحرِّك المواجه للشاشات، يسترخي فيه، يلاحظ مارتين أن «ألفا» الحريص أصلا يضاعف من تحفُّظه عند تناول هذا الموضوع، منذ اختفاء العميل «بيتا» تجنَّب الرجلان الحديث عنه بقدر الإمكان، ربما كان ذلك بمنطق العائلات العريقة حين تتجنب سيرة ابن عاص أو فتاة هربت مع رجل غريب.

«ابنتي عمرها أربع سنوات... لم أعد أقضي أي وقت معها بسبب مواعيد العمل الحالية». يردُّ مارتين بحدَّة، علاوة على طول المناوبات وانعدام العطلات تماما يقع بيتهم على مسافة ساعة بالقطار، الاستمرار بهذه المواعيد أصبح يهدد حياته الأسرية.

« سوف أعتبر أنني لم أسمع شيئا بشأن حياتك الخاصة... يجب أن تفهم يا عميل «جاما» أن أي بيانات تتعلَّق بشخصك تعتبر من الأسرار التي تمسُّ

الأمن القومي... ليس من حقك الإفصاح عنها أصلا». يحدِّثه دون أن ينظر إليه، يتظاهر بالانهماك في قراءة التقارير على شاشة الكمبيوتر.

«أنت لا تتصور حجم معاناتي... عيد ميلاد ابنتي غدا... ستفتقد أباها كاليتيمة». ينفجر مارتين صارخا، لم يعد قادرا على السيطرة على انفعالاته، يشعر بالخجل لضعفه المفاجئ، هذا موضوع تافه على أي حال وكان لا يستحق الخوض فيه أصلا، لا بد أن يكون الانقطاع عن العالم لساعات ممتدة قد أثَّر عليه، الإرهاق قد حلَّ بعد مناوبة طويلة وقلَّص قدرته على السيطرة على غضبه، لكن أكثر ما يستفزه هو هذا الرجل البدين الذي ترتسم الطيبة على ملامحه بينما في حقيقته هو مجرَّد تماما من المشاعر الإنسانية.

«يبدو أنك لم تنصت إليّ جيدا... هذا مركز الأشباح... عندما تدخل من الباب تترك مشاكلك وأسرتك وحياتك كلها بالخارج... إلى جوار درَّاجتك... هنا أنت شبح... لا تاريخ لك ولا مستقبل... لا اسم لك في أي سجل... يعني لو اختفيت من على سطح الأرض فإن ذلك لن يمثِّل أي مشكلة لأحد... لأنك لست موجودا أصلا». يستدير إليه في كرسيه.

يرتجف مارتين في مواجهة «ألفا» ، يدرك أنه تصرَّف بشكل يتناقض مع ما تدرَّب عليه لسنوات، الكارثة تبدأ دائما عندما يتصوَّر ضابط المخابرات أنه موظَّف كسائر الموظفين ويحاول أن يعيش حياته كإنسان عادي، عندئذ يقع في المحظور، يقع في مصيدة «ماذا لو؟»، ثم يرنُّ في أذنه ما قاله البدين صاحب ذيل الحصان حول إمكانية أن يختفي من على سطح الأرض دون أن يشعر أحد.

أيكون هذا الذي حدث للعميل «بيتا» ؟

«إذن الهدف أفلت... بعد أن كان في قبضتنا». يهمس «ألفا» بينما مارتين يتَّجه إلى باب الخروج.

الهواء راكد هنا رغم نظام التكييف المركزي المضاد للحرب الكيماوية الذي تكلّف الملايين من دولارات دافعي الضرائب، يشعر مارتين بالاختناق، السقف والحوائط جامدة تكاد أن تطبق على أنفاسه، قد أصبح في أشد الحاجة للخروج إلى الليل، إلى السير تحت قبّة السماء – صافية أكانت أم ممطرة لا يهمّ– كم يتوق لنفَس من الهواء الطبيعي.

يدلف مارتين إلى داخل الممر الموصِّل إلى الشقَّة الخارجية، يقف في الحيز الضيق المغمور بضوء فلورسنت أزرق، يكاد يصرخ كالمجنون من حدَّة شعوره بالانقباض، جسده يرتجف وهو ينتظر أن يُحكم إغلاق باب مركز القيادة حتى يُفتح الباب المؤدي إلى حمَّام الشقة الخارجية، يخطر له فجأة أن العميل «بيتا» بدأ – قبيل اختفائه المفاجئ – يشكك في مدى تمشِّي عملياتهم مع مبادئ الأخلاق، بل ذهب يوما إلى حد التساؤل إن كانت عمليات اغتيال العلماء على وجه الخصوص تمثِّل انتهاكا للقانون الأمريكي... لكنه في الحقيقة لم يعترض أو يتذمَّر أو أي شيء من هذا القبيل، مجرَّد تساؤلات طرحها، أفكار شخصية جدا لكنه نطقها بصوت مسموع لا أكثر، أيكون...؟

يسحب درَّاجته المركونة داخل الشقَّة بجوار باب الخروج، لحظة أن يضع يده على المقبض يلمح صورته فوق طاولة جانبية، يتوسَّط فريقا جامعيا جميعهم في زي لعبة الكرة الأمريكية بالخوذة والأكتاف العريضة، يبتسم، الصورة طبعا ملفَّقة فهو لم يلعب الراجبي الأمريكي في حياته، وضعوها هنا لزوم التمويه، صورة مزيَّفة لا تحمل ذكريات أو معاني.

تخطر بباله صورة أخرى – لكنها حقيقية – التقطت له منذ عدة سنوات في مدخل مبنى «إن إس إي» في «كريبتوسيتي»، يرتدي بدلة أنيقة ورباط عنق مخططا، على الحائط فوق رأسه مباشرة مثلَّث مذهَّب داخله نسر برونزي يحمل في أحد مخلبيه مفتاحا فضيا، شعار الوكالة مكتوب بأحرف من ذهب

أعلى المثلَّث: «إنهم يعملون في صمت»، سمحوا له أن يضع الصورة في مكتبه بالوكالة شريطة ألا تخرج عن حدود المبنى أبدا، وعندما اضطر للاستقالة لم يسمح له بالاحتفاظ بها، هكذا الحياة، تلك صورة وهذه صورة، الحقائق تختلط بالأكاذيب، الصدق يتوارى أمام الخداع، الحقيقة الوحيدة في الوجود هي سيطرة الأقوياء، تلك الحقيقة الخانقة التي ظلَّت قابضة على أنفاسه لسنوات دون أن يدرك.

يتذكَّر أنه ظاهر على شاشة المراقبة داخل المركز، قد يكون «ألفا» يتفحَّصه في هذه اللحظة، يدرس تعبيرات وجهه، المراقبة مستمرة في كل زمان ومكان، ومن يدري ما الذي يدور داخل عقول الرجال الصلع البدينين الجالسين وراء الشاشات يلتهمون المأكولات السريعة؟ يفتح الباب ويستقبل نسمة الهواء النقية باشتياق، فتعيد إليه – ولو جزئيا – ثقته في ثبات الأشياء.

***

الجيزة

مساء الثلاثاء 9 يناير 2007

نقرات الباب غير مألوفة، ليست دقّات كوندوليزا الحازمة الطافية فوق عبق عطرها الرخيص الممتزج برائحة الديتول التي تخرق النخاشيش، ولا يمكن أن تكون طرقات الست الطيّبة التي أصبحت نادرة لعناء صعود السلّم، وعندما تحدث تتلازم مع جعير غالبا ما يكون غير مفهوم، هذه نقرات مهذَّبة كموظَّف يستأذن لدخول مكتب وكيل الوزارة أو مواطن يقف في خشوع أمام باب مأمور قسم الشرطة.

الطارق بالتأكيد شخص غريب، أيكون كمينا؟ يتردد المخِّيخ، ثم يقرر أنه لو كان مطاردوه فعلا على الجانب الآخر من الباب لكان الأمر قد قُضي ولا أمل له إطلاقا، ببطء يلفُّ المقبض.

«آسف ان كنت بطُب على حضرتك في وقت غير مناسب». شاب طويل نحيف، ملامحه سمراء مسمسمة تحت شعر منسَّق حديثا من الواضح أنه تعرَّض لمقصّ حلاق مستواه أرفع من مزيّني هذا الحي، يرتدي بلوفر بني من صوف ناعم -كشمير على الأرجح- وبنطلون جينز، عيناه تشعَّان ذكاءً تحت نظَّارة عدساتها صغيرة مستديرة مثل نظَّارات موظفي التلغراف في أفلام رعاة البقر.

«حضرتك أكيد غلطت في العنوان». لا يطيق أي تشتيت الآن، كفاه أرقا وشرودا.

الشاب مألوف التقاه المخِّيخ على السلّم أكثر من مرَّة، لكن بخلاف اليوم كان شعره عبارة عن هالة هائشة، لا يدري إن كان من الزبائن أم السكان، لماذا لا يتركه الناس لحاله، للمصيبة التي وقعت من السماء في حجره؟

«أنا جارك من الدور الأول... بقى لي مدَّة بفكَّر أزور حضرتك... لكن كنت متردد شوية». الشاب يتحدَّث بلهجة هادئة بها ثقة، بعيدة عن الأنماط الشائعة في هذا الحي ذي المباني والسلوكيات العشوائية.

«تحت أمرك». يردُّ المخِّيخ بتحفُّظ على أمل أن يتخلَّص منه في أسرع وقت.

«كان نفسي أعرض بعض إنتاجي على شاعر كبير زي حضرتك... أتمنّى أستفيد من خبرتك... لو وقت حضرتك يسمح طبعا». يلاحظ المخِّيخ أنه يحمل في يده كلاسير به ورق.

«بتقول انك ساكن في الدور الأول... لكن دي شقة الست الطيّبة... صاحبة البيت... إنت بتشتغل معاها؟»

«أنا طالب... لسه ما بشتغلش بانتظام... الست الطيّبة... تبقى والدتي». يغضُّ بصره.

«اتفضل يا...» يشير المخِّيخ إلى الكرسي الوحيد المواجه للكمبيوتر، لا يجرؤ على إغضاب ابن الست الطيّبة، كفاه مشاكل، يتجه لإبريق الشاي ويملأه من البرميل، يتفادى بعض الحشرات الطائفة فوق سطح الماء، يحرجه غياب المياه الجارية في غرفته على عكس باقي شقق البيت، يستغرب أنه لم يشعر بمثل هذا الحرج عندما يعدُّ الشاي لكوندوليزا.

«اسمي طاهر... أنا كنت منتظر الأودة تبقى مليانة كتب وورق منتوَر في كل ركن». ثم يتوقَّف أمام اللابتوب ويهزُّ رأسه كأن الجهاز يحمل إجابات لكل أسرار الكون.

«وانت في كلية إيه يا طاهر؟» يحاول المخِّيخ أن يخفي حرجه الذي تضاعف مع إدراكه أن صنَّ البول لا بد أن يكون عبَّق الغرفة، هو اعتاد الرائحة مع غياب الصرف الصحي واعتماده على الدلو المغطَّى الذي لم يخرجه بعد إلى مكانه المعتاد في ركن السطوح البعيد، فلم يعد يشمها .. لكن تأثيرها على الآخرين لابد أن يكون غير محتمل.

«أنا في بكالوريوس علوم... قسم رياضة بحتة..». يتكلَّم الشاب بهدوء، ثم يستطرد بشيء من التحرُّج:

«حتى الآن امتياز مع مرتبة الشرف».

كلية العلوم... قسم الرياضة البحتة... امتياز مع مرتبة الشرف... كلام لا يُعقل... هذا كله هراء... أيكون مجرَّد شاب يبالغ في إنجازه... أم هو جزء من مخطط أوسع موجَّه ضد المخِّيخ؟

يضع البرَّاد على النار ثم يأخذ ثلاث خطوات ليقف إلى جوار طاهر، يخرج الزهرتين من جيبه ويرميهما على الطاولة الإيديال أمام الشاب.

«قل لي يا طاهر... إيه احتمال اني أجيب دُش؟» يتعمَّد أن يطرح سؤالا قلَّ من يعرف إجابته، الآن سوف يكشف الفتى على حقيقته... بالضبط... أو على أقل تقدير سيلهيه عن ملاحظة ظروف المخِّيخ المعيشية بكلحها وروائحها الكريهة.

لا يصدِّق أن شابا نشأ في هذه البيئة يمكن أن يكون متعبِّدا في محراب الرياضيات متذوِّقا لجمالياتها، سؤاله سوف يحرج الفتى بلا شك، اليه على

رأي المثل تكذِّب الغطَّاس، وأسلوبه الدرامي في رمي الزهر سيزيد الطين بلَّة... يتسلل تأنيب الضمير إلى قلبه، لم يعهد في نفسه هذه القسوة، وماذا لو كان صادقا فيما يقول؟ شاب كهذا يستحقُّ التشجيع وها هو يكسِّر مجاديفه.

«الخواجة باسكال علّمنا إن حضرتك محتاج ترمي الزهر 24 و555 من الألف مرّة في المتوسط عشان يجي لك دُش». يردُّ ابن محضِّرة الأرواح – التي تدير بيتها للدعارة – دون تردد.

وهج مفاجئ ينتشر من وجنتي المخِّيخ إلى أذنيه، مجرَّد وجود هذا الشاب في هذا المكان يخالف كل منطق، الطفل الذي يترعرع في بيت دعارة في بناية لا رقم لها في شارع بدون اسم في منطقة عشوائية غير موجودة في السجلات الرسمية أصلا... يجب أن ينشأ قوادا أو بلطجيا أو تاجرا للمخدرات، بالضبط... وإن تديَّن يتحوَّل إلى إرهابي، أما أن تنجب هذه البيئة شاعرا وعالما للرياضيات فهي ظاهرة تتعارض مع قوانين الطبيعة، تحيي الأمل في أحلك المواقف، تجبر العاقل على إعادة النظر في الفرضيات... وتفرض عليه مراجعة شاملة للنفس.

صفير البراد يستدعيه لتحضير الشاي، طاهر يتابع حركاته بنظرات حبلى بالفضول، ربما بانت على المخِّيخ حالة التخبُّط التي ولَّدها لقاؤه فتصور طالب الرياضة البحتة أنه مخبول، يتمالك المخِّيخ مشاعره بصعوبة، إحساسه بتأنيب الضمير لمحاولته إحراج الشاب يتحوَّل إلى مشاعر أكثر إيجابية، تجتاحه سعادة من يصادف قطعة من الماس في مستنقع موحل، بالضبط، إحساس بأن الدنيا طيّبة في جوهرها وأن هذا القبح المحيط به مجرَّد صدأ سطحي يغطِّي معدنها الذهبي الأصيل، الحقيقة أنه لم يلتقِ بإنسان يبثُّ فيه مثل هذا الأمل سوى الفاتنة ديدي منذ عدة سنوات... يوه... مهما شرد عقله يعود مجددا لمحنتها.

«طيب والأولوية عندك يا طاهر... للشعر ولا للرياضيات؟» يسأل المخِّيخ وهو يستريح على حافة السرير وفي يده كوب الشاي.

«هو ده السؤال اللي محيّرني... ما ينفعش الاتنين مع بعضهم؟»

«ينفع». يردُّ ضاحكا.

يريد أن يطرد صورة ديدي من ذهنه لما يصاحبها من شعور ثقيل بالعجز، يمدُّ يده للفتى مشيرا إلى ملفِّه الشعري، يلاحظ رعشة قبضة الشاعر الشاب وهو يناوله عصارة أحلامه المنقوشة على رزمة غير سميكة من ورق التصوير، يضع المخِّيخ كوبه على البلاط، يمرُّ بإصبعه على أول صفحة من أعلاها إلى أسفلها، يكرر الشيء نفسه مع التي تليها... ثم التي تليها... وفي أقل من دقيقة يكون انتهى من قراءة الديوان بأكمله، يعيد الكلاسير للشاب:

«إنت تتمتع بموهبة حقيقية يا طاهر... بس لازم تعرف ان الشعر مشواره طويل».

«هو إيه النظام يعني... انت بتهزر... والا بتستهزأ بيّا؟» الشاب النحيل يرتعد غضبا.

«أرجوك اسمع ملاحظاتي الأول..». يدرك المخِّيخ صعوبة إقناع الفتى بأنه بالفعل يستطيع القراءة والاستيعاب بهذه السرعة الفائقة، فعليه أن يثبت ذلك بالبرهان العملي، يستطرد دون أن يترك للشاب فرصة للتعقيب:

«يعني مثلا السطر التاسع من قصيدة «قوت القلوب» في الصفحة ستة وعشرين..».

«الصفحات مش مُرقمة». يقاطعه طاهر بحدَّة.

«صحيح... بس اتفضل عدهم». يردُّ بهدوء.

يعدُّ طاهر الصفحات المرتَّبة داخل الكلاسير بصوت مسموع، يتوقَّف عند السادسة والعشرين فيجد القصيدة التي أشار إليها المخِّيخ، لا يعلِّق.

«السطر التاسع بيقول - وصححلي لو أخطأت - لما أغمض عيناي أشوفك قدامي... ده أكلشيه يا طاهر... يعني كانت صورة جميلة لما سمعناها أول مرّة... لكن بعد ما دشليون شاعر كرروها بقت بايخة».

يمسك الشاب ذقنه في تركيز، ثم يهزُّ رأسه ويقول:

«نقد أدبي مقبول... لكن شغل الثلاث ورقات ما يدخلش عليّ... عيب ده ابن الوز عوام».

«انت مش لسه بتقول انك ما بتشتغلش في الشعوذة..». يرفع المخِّيخ كوب الشاي، ينفخ فيه قبل أن يرتشف.

«صح... لكن ما يتاكلش بعقلي حلاوة..».

«أنا بقى... أحسن واحد في الدنيا يتاكل بعقله حلاوة..». يقهقه المخِّيخ، يحاول أن يثبِّت يده حتى لا يسكب الشاي الساخن في حجره، لو عرف طاهر كم خدعته الأيام ما غضب من كلامه أبدا.

لكن لماذا انقلب الشك ثقةً بهذه السرعة؟ ما سرّ ارتياحه الكامل لهذا الشاب الواثق من نفسه أكثر من اللازم؟

«أنا صحيح عايش مع والدتي... لكن بصرف على نفسي..». يقول الفتى بجدية، ثم يستطرد:

«أنشطة مشروعة طبعا». وجهه الأسمر يميل للازرقاق.

يخطر للمخيخ أن عقدة حياة طاهر تتمثَّل في عمل أمِّه، كأنه يريد أن ينفي أن يكون لحم أكتافه من المال الحرام، يشعر بتعاطف عميق معه، فإذا كان

مشهد أبيه هو وهو يخرج إلى الشرفة بالملابس الداخلية لا يزال حتى الآن يصيبه بالقشعريرة فما بالك بهذا الفتى الذي نشأ في مناخ لا يستطيع المخِّيخ حتى تصوُّره.

«ما تحاولش تقنعني ان الشعر ممكن يأكِّل عيش الأيام دي». المخِّيخ بدأ يستعيد فضولا ظن أنه فقده من زمان.

يبتسم الشاب للمرَّة الأولى هذا المساء.

«بَدي دروس في الرياضة لطلبة الثانوية العامة..». يتكلَّم الفتي بثقة كهل يستعرض خبرة عمره.

إذن لا يكتفي بالتفوّق في دراسته وفي الشعر بل يعتمد على نفسه ماديا، لا يصدِّق المخِّيخ أن هذه البيئة تنتج إنسانا على هذا القدر من النزاهة، أتكون مجرَّد مباهاة شبابية عادية أو محاولة لتحسين شكله أمام غريب؟ أتكون تعبيرا عن احتياج دفين لتعويض واقع قبيح ونشأة أكثر قبحا؟ أم أن للفتى غرضا آخر؟ أهو طرف في خطة احتيال محكمة، عملية نصب على مستوى عال؟ الشكوك تعاوده لكن حسَّ المخِّيخ يؤكد له أن نفس هذا الشاب في نقاء البفتة، ثم ماذا عساه أن يكسب من وراء مفلس مثله خاصة بعد أن استولت العصابة على تحويشة العمر؟

يتذكَّر فجأة القطع الذهبية التي وضعها العجوز في جيبه، من هول المفاجأة لم يدقق النظر فيها لحظتها ولم تتح له الأحداث المتلاحقة أن يخرجها من جيبه كي يتفحَّصها، ثم سقط أمرها من ذهنه تماما بعد عودته إلى مخبئه، كيف يتأتَّى له أن ينسى أمر هذه القطع الذهبية العشر ليوم كامل بينما قد تمثِّل طوق النجاة الوحيد للصغيرة ديدي؟ ثم من قال إنها عملات ذهبية أصلا، الأرجح أنها مجرَّد قطع لا قيمة لها من معدن لامع كالتي يخدعون بها الأطفال

والمغفَّلين، أو أن الحكاية برمَّتها وهم كبير... مجرَّد حلم وردي من أحلام اليقظة.

أيكون طاهر اشتم خبرا بوجود العملات الذهبية في حوزته؟ لكن كيف وهو لم يخبر مخلوقا بأمرها؟

«أصلي أنا طول الوقت قافل على نفسي باب الأودة... لا حد يزورني ولا أزور حد... قصَّة حياتي عبارة عن قراية وكتابة ونِت». يضيف الفتى بهدوء.

يريد أن يبرر سبب تعدد مجالات علمه رغم صغر سنه، كأن العلم يحتاج تبريرا.

أو لعله يريد أن ينفي عن نفسه الاختلاط مع باقي سكان المنزل وروادهم.

«أنا ملاحظ انك مهتم بمظهرك... وده شيء نادر الأيام دي». يقول المخِّيخ على سبيل المجاملة، لكن الفتى يحدِّق فيه بارتياب.

«قصدي... الحلْقة دي شيك قوي... وأنا بدوَّر على مزيّن كويس». يستطرد المخِّيخ بسرعة.

من يدري ما هي الهواجس التي يمكن أن تدور في عقل شاب نشأ في مثل هذا المكان؟

«دي البنت كوندوليزا... أشطر من أي مزيّن». يردُّ الفتى بعد فترة تردد.

يستلفت نظر المخِّيخ أنه أيضا أطلق على العاهرة الشابة تدليل «كوندوليزا»... يفهم أخيرا إشارتها لوجود آخرين «متنورين» غيره في هذا المكان، يلاحظ مدى تحرُّج الشاب من مجرَّد ذكر اسمها، كيف يشرح لطاهر

أن علاقته بالعاهرة الصغيرة لا تعنيه... أنه ليس أفضل منه حتى يصدر الأحكام عليه؟ يشعر بألفة حقيقية تجاهه، فهو مثل الفتى تماما... قصَّة حياته تتلخَّص في الكتابة والقراءة والنت، يقرر أن يغيِّر الموضوع.

«تقدر تقول لي يا طاهر... إيه هو الرقم الذهبي؟» ضروري يتحقق مما إذا كان الفتى صادقا أم عضوا في عصابة إجرامية، طرفا في مؤامرة جديدة تضاف للمؤامرات التي تحاك ضدَّه من كل جانب.

«تقصد النسبة الذهبية؟»

«النسبة الذهبية... الرقم الذهبي... هو نفس الشيء». لماذا يدقُّ قلبه كالمجنون؟ كأنه هو الذي يواجه الامتحان، أو كأن مصير الكون أصبح يتوقَّف على إجابة الفتى.

«نحصل على النسبة الذهبية لما نجيب خط مستقيم ونقطعه في نقطة بحيث تكون نسبة الخط ككل للجزء الأكبر منه تساوي نسبة الجزء الأكبر للجزء الأصغر». يفهم المخِّيخ أن الشاب مثله يستمتع باستعراض علمه.

«وتطلع كام النسبة دي بالضبط؟»

«1.618» يردُّ الفتى كأنه يكرر معلومة بديهية يعرفها أي تلميذ في الثالثة الابتدائية.

«قل لي نماذج من هذه النسبة في الطبيعة». سعادة المخِّيخ بإجابات الفتى الصحيحة تتعدى التأكد من أنه لا يبطن شرا تجاهه، فهذا الشاب قد يمدُّه بالعون الذي يحتاجه للتعامل مع موقف ديدي.

«مثلا هي النسبة اللي بتحكم الشكل الهندسي للنتوءات على سطح ثمرة الأناناس».

«وإيه تاني؟»

«وتجاعيد القواقع».

«وإيه كمان؟»

«وتوزيع الورق في شجرة الكمثرى».

«والوريقات في الورد البلدي». ينضمُّ المخِّيخ إليه بحماس، فحديث الأرقام له متعة حقيقية قلَّ من يتذوَّقها.

«وتوزيع النوتة الموسيقية في السوناتا رقم «1» لموزار». يضيف الفتى على الفور.

«أما أهرامات الجيزة بقى... فحدِّث ولا حرج». أخيرا ينطلق المخِّيخ ضاحكا.

***

لمعان النجوم في سماء الشاشة الصافية يبدد توتُّر المخِّيخ كما تذيب أمواج البحر المتلاحقة حصون الأطفال الرملية على الشاطئ، التقلُّصات في عضلات الرقبة والكتفين تتضاءل مع كل خطوة إلكترونية صامتة، «مفتول العضال» يسير بسلاسة فوق أرضية الساحة الرخامية، على يساره حافلة للنقل العام متوقِّفة في المحطَّة، وعلى يمينه متاجر بعضها متخصِّص في بيع الأجساد الإلكترونية كاملة بأعضائها التناسلية، والبعض الآخر للملابس التي تكسوها، لم يجد فتاة الحلوى في موقعها المعتاد بجوار حوض السباحة، فبدأ يبحث عنها في أماكنها المفضَّلة: محل بيع الكتب والأسطوانات، الدكك المتناثرة حول الحديقة الأقرب للمنزل، ساحة التسوُّق الرئيسية... والآن يتجه إلى الحانة اللاتينية.

لكن ماذا لو لم يعثر لها على أثر...؟ ماذا يفعل لو اختفت فجأة من حياته؟

هو الهاجس الأوحد الذي يخيِّم على عالم المخِّيخ الموازي؛ ففي الحياة الجسدية كل إنسان له عنوان ووظيفة وأقارب يُستدل عليه منهم، كل منا هناك مكبَّل بالخوف والحب والجنس والفلوس والتقاليد والاستقرار المتوهَّم، أما هنا في الحياة الإلكترونية فالشخص عبارة عن إشارة إلكترونية، حر كشعاع من الضوء، كالإلكترون بإمكانه أن يوجد في أكثر من مكان في اللحظة نفسها، لا يأبه بقوانين الطبيعة النيوتنية، يختفي دون مقدمات، ويستبدل شخصيته بأخرى بلا قيد أو شرط، الرجل بإمكانه أن يتحوَّل إلى امرأة، والطفل إلى كهل، والبدين إلى نحيل دون الحاجة لأن يبرر نفسه لأحد.

هذه مغامرة مسلَّم بها في علاقات العالم الموازي، مغامرة تتحوَّل إلى مقامرة أحيانا، لكن المخِّيخ يذكِّر نفسه أنها لا تختلف كثيرا عما يخاطر به البشر في حياتهم الجسدية، بالضبط، فالغدر وارد في كل أوجه الحياة، فلولا غريزة الأمومة لما ضمن الرضيع استمرار تدفُّق الغذاء والعناية، ولولا ثقة الزوج بامرأته لما ضمن وفاءها، وهذه هي الثقة نفسها التي بنيت عليها علاقة «مفتول العضال» بفتاة الحلوى، فارتباطه العاطفي بها لا يقل أبدا عن تعلُّق الرجل بصديق عمره، وثقته بها تتعدى الثقة بين الأزواج.

يتوقَّف أمام محل الورود الجديد، بعد تأمل سريع للألوان والأشكال المبهرة يدلف للداخل، يشتري باقة من الورد البلدي الأحمر - رمز العشق الملتهب - مبددا بجمالها كل مخاوف العالمين المادي والافتراضي معا، ثم يسارع نحو مرقصهما المفضَّل.

الموسيقى ذات الإيقاع المشطشط تنبعث كالعادة من الحانة اللاتينية، أثناء سيره يقرأ في شرود مقتطفات من أحاديث يتبادلها الراقصون والمتسكعون

لكنها سرعان ما تخرج عن نطاق الشاشة وهو على أي حال لا يعيرها اهتماما يُذكر، المكان مزدحم لكن لا أثر لمحبوبته... ثم يلمح صديقتها «وندي 90» تراقص شابا وسيما.

أنت قلت: هاي ويندي، أبحث عن فتاة الحلوى، أرأيتِها اليوم؟

ويندي 90 قالت: هاي مفتول، لا لم ألتقِ بها اليوم، سوري.

يخطر له أن يبحث عنها في ركنها المفضل وهو خُن هادئ في الدور الثاني يطلُّ على حلبة الرقص من أعلى.

بصعود السلّم يقفز قلبه فرحا برؤية فتاة الحلوى، تحادث شخصا يدعى «ماكس المجنون» لم يلتقِ «مفتول العضال» به من قبل.

فتاة الحلوى قالت: أتعلم يا ماكس أنني أحلم بأن أطبع على شفتيك قبلة فرنسية حارة؟

يستدير ماكس المجنون لمواجهة «مفتول العضال».

ماكس المجنون قال: هذا حوار خاص بعد إذنك يا «مفتول العضال».

أنت قلت: ما هو واضح.

فتاة الحلوى قالت: هاي مفتول، يضايقك أن نلتقي بعد نصف ساعة في الحديقة المواجهة لمنزلي؟

أنت قلت: لكن... أفتقدك كثيرا... ثم إن...

يمسك «مفتول العضال» باقة الورد كدليل مادي يدينه في تهمة الغباء... لا ينجح المخِّيخ في صياغة جملة مفيدة على الكيبورد.

فتاة الحلوى قالت: نصف ساعة لا أكثر... يا حبيبي.

يستدير «مفتول العضال» ليعود من حيث أتى، رأس المخِّيخ على وشك الانفجار، الكلمات لا تسعفه، لا يدري كيف يتعامل مع الموقف، المشكلة أنه لم يستوعب بعد ماذا يحدث، الفتاة لم تختفِ لكنها فعلت ما هو أسوأ، لكن هذا شيء غير معقول، لا يوجد ما يبرر الخيانة على النت، ثم لو لم تكن تحبه لـمَ طلبت أن تلتقي به بعد نصف ساعة؟! أكيد هناك تفسير منطقي جدا، يكتشف أنه يحرِّك «مفتول العضال» دون تركيز وقد أوقعه في النهر، جعله يسير كالمجنون تحت الماء، يشعر أن روحه تُسحب من جسده، كأنه يغرق بالفعل أو يسقط في بئر بلا قاع، يشهق بعنف، يسحب البخَّاخة بعصبية ويضخُّ جرعة مضاعفة في حلقه، عليه أن يسيطر على مشاعره للدقائق الثلاثين القادمة، عليه أن يتماسك حتى تتضح الرؤية، لكن ماذا لو تأكدت شكوكه؟

«وهو كذلك». يقول المخِّيخ بالعربية وبصوت مسموع ردا على الفتاة الإلكترونية التي لم تعد ظاهرة على الشاشة أمامه.

يتذكَّر فجأة زعيم العصابة الذي أطلق على نفسه لقب «الدكتور»، يا ترى ماذا فعلوا بكِ يا ديدي؟

بدلا من أن يتعاطف مع الفتاة المختطَفة يجد نفسه يصبُّ جام غضبه عليها، تلك المستهترة التي تصوَّرت أن جمالها الملائكي يضعها في مرتبة أعلى من البشر العاديين ويضفي عليها حصانة خاصة، تورِّط نفسها في مصيبة تلو الأخرى ثم تحمِّل أمثاله ممن لا يملكون أمر أنفسهم أصلا عبء نجدتها، ما له وما للعصابات والمجرمين ومنتجي السينما وديونهم، ألا يكفيه أنه مُستهدف من قبل أعتى الأجهزة وأشرسها؟ ألا يكفيه أنه مدين لشوشته وقد خسر ما تبقى من مدَّخرات عمره... ولم يبقَ أمامه الآن غير أن يمدَّ يده للتسوُّل من العاهرات؟

المصيبة أن المطلوب منه اليوم أن يضرب الأرض فتخرج كنزا يستخدمه في فداء المتهوِّرة الجميلة، ينهض ويتَّجه إلى سترته المعلقة على خطَّاف خلف الباب المغلق، يخرج الوريقة التي اقتطعها «الدكتور» من أجندته ويعود بها إلى كرسيه الكالح، بدقات سريعة ينشئ لنفسه عنوانا إلكترونيا جديدا سوف يخصصه للتراسل مع العصابة، الحذر واجب في كل كلمة يطلقها على النت حتى لا تتمكن العصابة أو الأجهزة الملاحقة له من الاستدلال على مخبئه.

يلعن العيال وسنينهم وهو يكتب رسالته بأصابع متمرسة... رغم أن ديدي ليست ابنته ولا تمتُّ له بصلة، ثم يبتسم مدركا أنه يردد بالضبط عبارة أمِّه المفضَّلة، يتوقَّف لحظة عن الكتابة، يقرر أن المطلوب في هذه المرحلة إيجاد قناة اتصال مع العصابة ولا جدوى الآن من المساومة، يراجع رسالته بسرعة:

عزيزي الدكتور،

أطمئنك أن العمل جار على قدم وساق لتدبير المبلغ المطلوب، وإن كان الأمر للأسف قد يتطلب مزيدا من الوقت، طمئنِّي عن صديقتنا الجميلة.

صديق مخلص.

يبتسم مجددا وهو يضغط زرَّ الإرسال، أعجبته عبارة «العمل جار على قدم وساق»، شرُّ البلية ما يضحك، ينظر إلى الشاشة فيجد «مفتول العضال» متجمِّدا وسط تلال صخرية صارمة، يحيط به من كل جانب نخيل استوائي متناثر أبهتت عتمة الليل ألوانه، فيقرر التحليق في الهواء حتى يتمكن من العودة للحديقة في الموعد المتفق عليه، يضغط على زر الطيران فيطفو «مفتول العضال» وتظهر أضواء المدينة تدريجيا مع ارتفاعه، يشعر المخِّيخ بارتياح عندما يطفو بسلاسة في اتجاه أكبر تركيز للأضواء، سيظل هذا عالمه المفضَّل

حتى لو تخلَّت عنه فتاة الحلوى، عنفوان الحياة ينبض في عروق «مفتول العضال» بما يفوق أي شعور عرفه المخِّيخ في عمره السابق.

مصيره يتحدد هنا على الشاشة السحرية وليس هناك في حوارٍ تفترش البغاء والنشل والقمامة... أو في خيّات عصابات الإجرام الحديثة... أو كمائن أجهزة المخابرات.

يجلس «مفتول العضال» على دِكَّة في الحديقة انتظارا لقدوم المحبوب، يكتشف أنه لا يزال يحمل باقة الورد البلدي الأحمر، يشعر بخجل مضاعف، يهمُّ مسرعا للتخلُّص منها في سلَّة المهملات، ثم يعود للدِّكَّة...

تظهر هيئتها الشهية المجنونة في الموعد المتفق عليه دون تأخير.

فتاة الحلوى قالت: وحشتني يا حبيبي.

قلب المخِّيخ يدقُّ كعازف درامز مخمور في فرقة لموسيقى الروك، بصعوبة يتمالك نفسه.

أنت قلت: يا سلام.

من حسن الحظ أن الحوار يتمُّ بضرب الحروف على الكيبورد وإلا ما نجح أبدا في التحكُّم في انفعالاته.

فتاة الحلوى قالت: لو لم أعهد بك رجاحة العقل لتصورت أنك غيران.

أنت قلت: في الواقع أنها الحيرة وليست الغيرة.

فتاة الحلوى قالت: مبعث إعجابي بك لم يكن عضلاتك... فهي كما تعلم تُباع في المحلات... إنما عقلك... عمق فهمك للحياة... وروحك... رغبتك الأكيدة في فهم الآخر والانفتاح عليه.

أنت قلت: وهل يقي العقل صاحبه من الألم... خاصة عندما يتعرَّض للخيانة؟

ما أن تظهر كلمة «الخيانة» على الشاشة حتى ترنّ أصداؤها في وعي المخِّيخ، ما الذي يعطيه الحق – هو الذي لم يتزوج أو يرتبط يوما بعلاقة حقيقية مع أي شخص آخر – في أن يدَّعي أنه تعرَّض للخيانة؟ لقد وُلد مختلفًا عن الآخرين، بالضبط، هذه حقيقة لم يستطع إنكارها منذ اليوم الذي اكتشف فيه – وكان تلميذا في الصف الثالث الابتدائي – أنه أشطر في الحساب من المدرِّس ذاته، مسيرته منذ ذلك الوقت لا يمكن وصفها بالطبيعية، لكن الآن وهو جالس أمام شاشة الكومبيوتر لا يشعر بأدنى ندم على مسار حياته، فالعزلة كانت دائما أسلوب الحياة الأنسب لتكوينه الفريد، حصَّنته من التقلُّبات الانفعالية التي دائما ما تعرقل التطور العقلي للشباب، وأتاحت له رؤية بلّورية للعالم من حوله، ومن ثمرات تلك العزلة أنها أعفته من التعرُّض للخيانة التي يحادث اليوم شاشته الصمَّاء عنها، إذن كيف يضع عواطفه بعد هذا العمر تحت أقدام دمية إلكترونية لو انقطع التيار الكهربي لتلاشت بلا أثر؟

فتاة الحلوى قالت: أي خيانة؟

أنت قلت: أتنكرين أنني كشفتكِ في وضع غرامي مع شخص آخر... ألا تعتبرين مثل هذا التصرف... خيانة؟

فتاة الحلوى قالت: التقاليد التي تتحدث عنها ليست مطلقة... لها أسبابها التاريخية... الحفاظ على تماسك المجتمع مثلا... وحدة الأسرة لحسن تربية الأطفال... الحيلولة دون حدوث الحمل إن كانت ظروف الأم الاقتصادية لا تسمح برعاية الطفل... إضافة إلى تجنب اختلاط الأنساب... وعدم انتشار الأمراض الجنسية كالإيدز... كل هذه الاعتبارات غير موجودة هنا. هذا عالم الحرية الحقيقية لا مكان فيه للغيرة والشوفينية، نعيش دون غذاء ولا نشعر بالجوع... كلانا يحق له أن يقيم العلاقات التي يرغب فيها دون أي قيود أو تأنيب للضمير... لا يوجد دين وثواب وعقاب هنا... لا يوجد فردوس وجحيم... ألم تعلم أن الآلهة ذاتها غير موجودة في هذا النطاق أصلا؟

ينقر المخِّيخ الطاولة الإيديال الصدئة بعصبية، يستوعب منطق فتاة الحلوى، لكن يعجز عن تصور كل أبعاده، هي أيضا تتمتع بعقل رصين، وهو على الأرجح سبب انجذابه إليها، لكن كلامها يهدم كل المعاني، بالضبط، يحتاج أن يفكِّر في كلامها بتمعُّن لكن لا ينجح في السيطرة على الغضب الذي أخذ يتنامى في نفسه.

أنت قلت: إذن لا تنكرين أنك على علاقة برجل آخر.

يحتاج أن يعرف الحقيقة حتى يتخلَّص من هذا الشك القاتل، الحقيقة مهما كانت قاسية أفضل من أن يفقد صوابه بالمرَّة.

فتاة الحلوى قالت: ومَن أخبرك أنني لست متزوجة في العالم المادي؟

أنت قلت: تصورت دائما أن علاقتنا فريدة.

فتاة الحلوى قالت: وأنت على حق... علاقتنا فعلا فريدة، لكن هذا لا يمنع من ارتباط كل منا بعلاقات أخرى.

أنت قلت: قد أتقبل هذا بالنسبة للحياة المادية... على اعتبار أننا نتحدث عن وجودين منفصلين، وأن لكِ احتياجات جسدية مرتبطة بالوجود الآخر لا يمكن تلبيتها هنا، لكن الأمر الذي يكاد يصيبني بالجنون أنك شعرتِ باحتياج لعلاقة أخرى في العالم الموازي، أليس في استطاعتي تلبية احتياجاتك هنا على الأقل؟

الكمبيوتر المحمول يهتزُّ فوق الطاولة المعدنية من عنف نقرات المخِّيخ عليه.

فتاة الحلوى قالت: رغم علمك الغزير الذي ألمسه دائما في أحاديثك إلا أنك تتشبث بفكر العالم المادي وتقاليده... تحاول أن تنقلها إلى هذا الكون الجديد... هذا يحدُّ من انطلاقك... ألا ترى أننا نشهد ولادة نسق غير مسبوق لم تعرف البشرية له مثيلا من قبل؟

أنت قلت: بل على العكس، هذا الكون الموازي أصبح يمثِّل حقيقة وجودي؛ لهذا أحرص على الحفاظ على ثوابتي هنا أيضا، أما أنتِ فمن الواضح أنك تتخذينه مرتعا للهو... لعبة جديدة من الفيديوجيم.

يشعر المخِّيخ بأن زلزالا يرجُّ عالمه، عمارة الست الطيّبة على وشك الانهيار فوق دماغه وأدمغة عاهرتيها وزبائنهما.

فتاة الحلوى قالت: الواقع قد تداخل بالفعل مع الفيديوجيم بحيث لا يمكن التفرقة أين ينتهي الأول وأين يبدأ الثاني... تخيَّل للحظة حجم الحرية التي يتيحها لنا الوجود الموازي، كل القيود السابقة تتلاشى هنا، الحرية مطلقة وقدرات الإنسان تمتد إلى ما لا نهاية...

الواقع قد تداخل مع الفيديوجيم، بالضبط، لا ينكر المخِّيخ ذلك، كان يمكن التعامل مع المعضلة التي فجَّرتها فتاة الحلوى لو ظلَّ العالمان منفصلين، ربما استطاع حتى أن يتقبَّل طرحها وأن يخوض التجربة معها... لولا أن عالم الواقع غزا حياته بفضل الجميلة البريئة ديدي، ولوَّث العالم الموازي برذاذ أطماعه ومخاوفه وذلك الشعور بالمسئولية الذي تسرَّب إلى قلبه بين ليلة وضحاها، ذاك الشعور بالذنب الذي بات ينغِّص عليه حياته.

أنت قلت: أنك تقتلينني... ألا تفهمين أنك وقعتِ على حكم إعدامي؟

يشعر بدمعة ساخنة تنزلق فوق وجنته، كان حلما لذيذا بأن يختبئ في العالم الموازي هروبا من شرور الواقع، لكنه ككل حلم لذيذ يتبدد مع أول شعاع لنهار جاحد لا يعرف الرحمة.

فتاة الحلوى قالت: بل أرمي إليك طوق النجاة... أفتح أمامك أبواب حياة جديدة بلا قيود أو حدود... على العموم أقترح عليك أن تفكِّر في الأمر حتى نلتقي غدا... أوكي؟

بقرقعة معدنية حادة يطبق الكومبيوتر المحمول كما يغلق التلميذ البليد كتابا عصى عليه استذكاره، يهمس لنفسه بصوت يكاد أن يكون مسموعا – متقمصا لهجة زعيم عصابة يرتدي نظَّارة المارينز ويتكلم بلغة رجال الأعمال الجدد:

«وهو كذلك».

***

الفصل الخامس

الجيزة
مساء الأربعاء 10 يناير 2007

يرمي المخِّيخ زهرتيه العاج فوق الطاولة الإيديال، ينصت بتلذذ مقامر محترف إلى رنين دحرجتهما على السطح الصاج، يخمِّن أن يكون مجموع الرقمين 7، وهو ما يتحقق إن كانت النتيجة 6 و1... أو 5 و 2... أو 3 و 4، إحدى الزهرتين تصطدم بحرف اللابتوب وتثبت على رقم 2، يكتم نفَسه، لو توقَّفت الأخرى عند 5 لتحقق المراد، الزهرة الثانية تقفز فوق السطح غير المستوي حتى تتوقف من تلقاء نفسها على حافة الطاولة، تثبت على 6.

«شيش دو». يهمس بخيبة أمل مستعيرا لغة لعبة الطاولة.

الغالبية العظمى ممن يهوون ألعاب الحظ لا يدركون أن زهر اللعب هو أحد تجليات العقل البشري ودلائل عبقريته، يرفع المخِّيخ إحدى الزهرتين ويتأملها، يعلم أن مركز ثقلها يتطابق تماما مع مركزها الهندسي، فيشترط في الزهرة أن يكون احتمال ثباتها عند أي من الأرقام الستة متساويًا، وإلا اعتبرت الزهرة «مضروبة»، وهو السبب وراء تصميم الزهرة بحيث يكون مجموع رقمي أي سطحين متوازيين يساوي 7 دائما، يقلِّبها بين سبابته وإبهامه كأنه يريد التأكد للمرَّة الألف من هذه الحقيقة التي أدركها لحد اليقين لكنها مع ذلك تدهشه، تلك النقاط السوداء التي تحدد رقم كل سطح، لا يكاد

المرء يلاحظ تجويفها بالعين المجرَّدة، لكن عددها يؤثر – رغم ضآلة المادة المفرَّغة منها – على مركز ثقل الزهرة، بالضبط، يخطر بباله أن مصيره يتحدد برمية واحدة لهذا الزهر، ثم يتذكَّر فجأة الفيل الذي فقد حياته حتى يصنعوا زهرتيه الفاخرتين من عاج أنيابه، راح هو الآخر في لفَّات لوترية الحياة التي تتعدى في تعقيدها فهمنا.

تخرجه نقرة الباب المألوفة من تأملاته، يفتح دون تلكؤ، لأول مرَّة يستقبل الخيمة السوداء النابضة بفضول يقترب من اللهفة، تمسك في يدها صندوق الكازوزة الفارغ مؤشرا على أن زيارتها ستكون ممتدة هذا المساء.

«خير يا حضرة الشاعر؟ أول مرَّة تفتح على طول... فيه مشكلة؟»

«وحشتيني يا كوندوليزا... فيها حاجة دي؟» لأول مرَّة منذ زمن بعيد يشعر أنه يحتاج لمن يؤنس وحدته... في هذه اللحظات يتوق لأي إنسان يحدِّثه ولو بكلام فارغ.

تطلق ضحكة ممطوطة لا تتناسب مع الزي الذي ترتديه، توسطن مؤخرتها الإفريقية على سيف الصندوق ثم تتفحَّص عينيه، يدرك المخِّيخ أن تعبيرات وجهه ربما تكون أبلغ من عبارة المجاملة التي نطقها بشكل عفوي... يرتبك... يخطر بباله أنه لم يتعامل معها من قبل على أنها إنسان من شحم ولحم لها مشاعرها وأفكارها وطموحاتها، اعتبرها صورة باهتة في عالم كالح، بالضبط، ممثلة لمستوى من الوجود لفظه وهاجر للعالم الموازي هربا منه، لا يستطيع أن يذكر الآن أنه في مرَّة أنصت باهتمام لثرثرتها أو عبَّر لها عن رأي ما في قضية تهمُّه، صحيح أنه بريء من تهمة ازدرائها باعتبارها في نهاية المطاف امرأة ساقطة... لكن موقفه الذهني منها كان أسوأ من ذلك، بالضبط بالضبط، فقد سطَّح وجودها من أصله، شأنها في ذلك شأن باقي الناس، عظماء أكانوا أم صعاليك، قتلة أم قديسين... جرَّدهم جميعا من بشريتهم على حد سواء.

تتجلى الحقيقة لأول مرَّة أمام عينيه وهو يقف في مواجهة امرأة تخفي شبقيتها الصارخة وراء ساتر من البفتة السوداء، يدرك أنه باختياره فتاة الحلوى شريكة لحياته قد رفع عالمها الافتراضي إلى مرتبة الواقع، فسطَّح العالم الخارجي حتى صار أقرب إلى لوحات ديكورية في خلفية مسرح الأحداث.

أما اليوم وهو يترنَّح تحت وطأة خيانة عاطفية إلكترونية بدأ يشعر أن حياته البديلة – التي تصوَّرها الأكثر نقاء والأقل خطورة – ليست بهذا القدر من المثالية، لا يثق في أنه يعرف كيف يتعامل مع كوندوليزا من منظوره المكتسب توا، بعد أن اكتسبت هي وضعية جديدة تصرخ بالألوان وتنبض بالحيوية... فيتجه للإبريق لتحضير الشاي.

يشعر بنظراتها تحفر في قفاه وهو يلقِّم الشاي، يدرك ضعفه الكامل في مواجهة هذه العاهرة التي تحدِّق فيه من وراء ساترها المنيع، يلعن النقاب وسنينه، يرى الغرب في هذا الزي إذلالا للمرأة وإبرازا لوضعيتها الدونية، وقد يكونون محقين على المستوى الرمزي، لكن السلفيين أيضا على حق عندما يؤكدون أنه يحمي المرأة، يحصِّنها من الأعين الجائعة، يضعها في موضع القوة في تعاملاتها مع الآخرين... لأنه ينزع عنها المشاعر التي تفشي بها الوجوه أسرارها، فيسدُّ ثقوب مفاتيح ضعفها البشري...

يفسِّر المخِّيخ أخيرا لنفسه أسباب الغضب الذي يتولَّد تلقائيا لديه تجاه المنتقبات.

«تلاعبني طاولة؟» تتحدَّث بمياسة، من الواضح أنها لمحت الزهر على الطاولة.

«ما ليش في اللعب».

لم يمارس اللعبة أبدا لكنها مستقرَّة في ذهنه كرمز لحالة مثالية تخلو فيها الأذهان من كل أرق، رنَّة الزهر منذ دقائق أعادت إليه جلسات القهاوي أيام الجامعة، وسهرات شبابية في شقة مفروشة، أطلقوا عليها وقتها لقب «المنطاد» لأنها أتاحت لشلة الأصدقاء التحليق في الطبقات العليا بين سحب الدخان الأزرق، أمور كلها لم يكن المخِّيخ طرفا فيها بل متفرِّجا، يتابع ما يحدث حوله بطرف عينه، بينما الجزء الأكبر من تركيزه منصب على التهام كتاب يقرأه بسرعة أذهلت الآخرين في بادئ الأمر ثم اعتادوها، فأصبحوا يأخذون تفوُّقه الذهني كأمر مسلَّم به.

تحيط به الآن – وهو ينتظر أن يقترب ماء البراد من حد الغليان – ضحكات رنَّانة تحمل في ثناياها طاقات جنسية غريزية... اندفاع أعمى نحو غايات مجهولة، صخب الشباب المنتمي لزمن لم يتلاشَ مع باقي الأزمنة، بل ظل عالقا في أركان غرفته الكالحة، منتظرا كلمة السر ليتجسَّد في مجالس الأحياء، كشبح حائر لم يدرك بعد حقيقة فنائه.

يناولها الشاي ثم يستدير ليحضر كرسيه الخيزران الملخلخ، ينتشل الزهر من على الطاولة ويضعه في جيبه بخفة يد غير معهودة، ثم يسحب الكرسي، لا يدري إن كانت لمحته أم شغلها ارتشاف الشاي الملهلب بطريقتها الكوميدية من تحت النقاب، يجلس في مواجهتها على الجانب الداخلي من فتحة الباب.

«منوَّر يا مولانا».

«حضرة الشاعر على قدي... أما حكاية مولانا دي... ما ليش دعوة بيها». ينطلق ضاحكا، يخطر له أن اليأس ربما يكون حرر الضحك بعدما تجمَّد في قلبه قبل سنوات.

«حضرة الشاعر علي عيني وعلى راسي... لكن دلوقتي بقيت كمان مولانا..».

حديثها غريب هذا المساء، لا يفهم معناه، كما أنه لم يعهدها تمزح في مسائل يشتبه أن يكون لها علاقة بالدين، أتكون تختبره؟

«مولانا دي خليها للشباب الملتحين اللي بيزوروكي». يقرر ألا يأخذ كلامها على محمل الجد.

«ما هو علشان خاطري وخاطرهم لازم تكون مولانا». لهجتها بها جدية، استجداء حتى.

رنَّة اصطكاك الزهر في جيبه لا تكاد تكون مسموعة وسط عويل طفل رضيع وقهقهة رجل أجش ونباح كلب غاضب... تذوب ببساطة في صخب الحي العشوائي المحيط به، تخطر بباله مقولة أينشتاين الشهيرة بأن الرب لا يمكن أن يدير الكون من خلال رمي الزهر، كان العالم العبقري يعلِّق بالرفض على نظرية هايزنبرج بانعدام اليقين، لكن العبقرية مهما بلغت لها حدودها، فالعلم الحديث في النهاية أثبت صحة النظرية وخطأ أينشتاين.

«خلاص يا ستي... قولي لي يا مولانا... ولا تزعَّلي نفسك..».

«كتر خيرك يا جنتل... وبعدين لا مؤاخذة يعني... كله بحسابه».

أخيرا ستكشف أوراقها، من غير المتصوَّر أن تسدد له ديونه للست الطيّبة لو لم تكن تتوقع مقابلا.

«أوعي تكوني عاوزاني أشتغل بالشعوذة... ده كانت الست الطيّبة تطيِّن عيشتي وعيشتك». تجربته السابقة مع الشعوذة لا تزال عالقة في ذهنه، عندما اتخذ شقة مسكونة في برج فاخر بالمعادي مخبأ له، الشقة رقم 1301.

«تف من بقك يا راجل... وبعدين وطي صوتك أحسن تسمعنا». تهمس وهي تلتفت خلفها في اتجاه السلّم.

«أنا يعجبني فيك يا حضرة الشاعر إنك على طول لابس هدوم الخروج... حتى الجزمة ما بتقلعهاش... رغم انك ما بتسيبش الأوده خالص... في الأول كنت بقول حضرة الشاعر مستنظر زيارة... لكن عمر ما حد جالك... يبقى لزمن الهندمة في طبعك». تبدِّل الموضوع بسرعة.

لا يدري ما الذي ترمي إليه لكن الأمر المؤكد أنه لا يستطيع الاستهانة بالعاهرة الشابة، كيف حدث أنه لم ينتبه إليها من قبل؟ الناس بسيطو الحال ليسوا بسطاء العقل على الإطلاق، بل إن سذاجة الدنيا كلها تجسَّدت فيه هو العبقري الفذّ، الهبل حتى، يذكِّر نفسه بأهمية التعامل معها بيقظة، لكن المشكلة فيه هو، بالضبط... في حالة الاضطراب التي يمرُّ بها منذ التقى أجمل فتيات الدنيا بالصدفة في شارع جانبي بالقرب من ميدان الدقي... موضوع ديدي الذي يزنُّ عليه دون هوادة حتى كاد يطيِّر برجا من دماغه، تلك المصيبة التي أخرجته من جنَّته الافتراضية وأنزلته إلى عالم المخاطر والقسوة والظلم.

«قل لي يا سيدنا الشيخ... ما عندكش في الدولاب عباية فخيمة كده... أقصد فوق القميص والبنطالون تبقى حاجة أبهة خالص».

«ما عنديش عباية... ما هو ما فيش أصلا دولاب».

ألا ترى هذه المجنونة أن ملابسه مدلاة من ثلاثة خطاطيف مثبَّتة في الحائط؟ ولماذا تتوقَّع منه أن يرتدي عباءة أصلا؟ ثم ترنُّ في أذنه كلمة «سيدنا الشيخ» التي نطقت بها دون مزاح أو سخرية وكأن هذا هو اللقب الذي اعتاد الناس مناداته به، إذن هي جادة في محاولة جرجرته إلى كار الشعوذة.

«ولا يهمك... الحكاية دي سِبها عليّا».

«لا فوقي معايا كده... واسمعي كويس... أنا ولا شيخ ولا بلبس عباية

ولا عمري حلبسها... وكمان مش مستعد آجي على آخر الزمن أنصب على الناس وآخد فلوسهم». ينفجر فيها، هو لم يثق بها أبدا، وفي اللحظة ذاتها التي تبسَّط معها في الحديث وأحسن معاملتها... تحاول توريطه في عمل إجرامي، بالضبط.

إحباطات الأيام وغضب السنوات ها هي قد تبلورت كلها في رفضه لطلبها السخيف وغير المفهوم أصلا.

«انت فهمتني غلط يا حضرة الشاعر... أنا مش بتاعت نصب ولا شعوذة ولا حاجات من دي لا سمح الله... أنا كل عشمي فيك فعل الخير... مش أكتر».

يهفُّ عليه فجأة عطرها الفاقع بمذاق البنفسج ممتزجا برائحة عرق خفيفة، لكن يخيل إليه أن عبقا أكثر إلحاحا يعتدي على حواسه، عبق الهورمونات المتوحشة، عبق المخالطة الحسيّة، عبق ألف رجل قد علق على جسدها كهالة مشعَّة لا يخفيها برقع أو يمحوها عطر أو يغسلها صابون...

شعور بالشفقة تجاهها يجتاح المخِّيخ فجأة، يغسل الخوف والغضب الذي عكَّر دمه منذ لحظة، لم يعد ضعيفا أمام هذه المرأة المحصَّنة بزيها العازل وضحكتها الفاجرة، بل هي التي صارت مكشوفة أمامه، عارية كما ولدتها أمها، عارية بتاريخها المأسوي وحاضرها المتخبِّط ومستقبلها الملبَّد بالغيوم، لم يعد هناك ما يستر ندوبها المتكلسة وجروحها الحية، رغم تبلور قبحها بشكل غير مسبوق يريد أن يأخذها في حضنه، أن يحميها من قسوة الدنيا، لكنه يحترم مشاعرها الدينية رغم تخبُّطها، الآن فقط بدأ يستوعب أهمية تشبثها بقشَّة التديُّن الشكلي.

«أنا دايما مظلومة معاكم كده يا رجالة..». تقول كأنها تردُّ على أفكاره.

«يا زكزوكة... غطسانة فين يا مقصوفة الرقبة؟» صوت الست الطيّبة يرنُّ في بئر السلّم.

«إنتي عاوزة إيه مني يا كوندوليزا...؟ هاتيلي من الآخر». يقول المخِّيخ بسرعة متجاهلا نداء أمنا الغولة.

«كل اللي بتمناه آكل عيش بالحلال... وانت الوحيد اللي يقدر يساعدني». تضغط كفيها على أذنيها من فوق غطاء رأسها كأنها تريد إلغاء الست الطيّبة من الوجود.

«الله ينور عليكي... خلاص نشوف لك شغلانة تانية». يردُّ بحماس.

«يا بت يا زكزوكة». صوت المعلِّمة يأتي كالقضاء المستعجل مبددا بحسم كل الأحلام الوردية.

«حاولت كتير... حتى آخر مرَّة جرّبت الكوافير اللي في شارع السودان... ورغم إني أجدع من يقص ويسرّح برده ما فيش فايدة... أصل مين اللي حيشغّل واحدة زيي...؟»

«يا ستي نجرّب كمان مرّة..». يردُّ بحماس.

«بس أنا اتعودت على كده خلاص... لكن فيه حل تاني هو اللي أنا جايالك فيه».

يشعر المخِّيخ بحرج لِما قاله منذ لحظة، قد وعدها بأن يجد لها عملا شريفا، كأنه رأسمالي كبير سيأمر بتعيينها في إحدى شركاته أو في مصنع من مصانعه، أو موظف كبير في الحكومة يأمر مدير شئون العاملين بأن يخلق لها وظيفة ولو من تحت طقاطيق الأرض، قد نسي – أو تناسى – أنه طريد مقطوع من

شجرة لا يجرؤ أن يظهر أصلا في شوارع القاهرة، يعيش معظم حياته في عالم الإنترنت الافتراضي، كل همِّه أن يسدد ديونه وأن يجد مصدرا لتمويل نفقاته الزهيدة، كتر خيرها أدركت حقيقة عجزه لكن آثرت ألا تؤنبه أو تقلِّب عليه المواجع.

«وإيه بقى الحل السحري ده إن شاء الله؟» يسأل المخِّيخ بصوت خفيض بينما الأفكار تتسابق داخل عقله المتعب.

«الحل السحري هو الجواز... جواز المتعة يعني... بس لازم يكون فيه شيخ محترم يعقد القران على سنة الله ورسوله... حتى لو على مذهب الشيعة... المهم اسمه إسلامي وخلاص». تتحدث كوندوليزا ببطء وإصرار، من الواضح أنها فكَّرت في الأمر مطولا.

ينصت إلى كلامها ويهزُّ رأسه بهدوء، طبعا، كلامها يتَّسق مع منطق الأمور، أكل عيشها مرتبط في نهاية المطاف بحالة السوق، بالعرض والطلب، بحركة المجتمع، بينما همُّه هو الأول أن يعزل نفسه عن المجتمع المصري الجديد، أن يوهم نفسه أن الأمور في مصر لم تتغير، أن مصر التي عرفها وعشقها لا تزال شامخة في الزمان... وأن هذه الأمور التي تحدث من حوله لا تزيد على كونها قشرة من الصدأ لم تؤثر على صلابة المعدن، أتكون خلوته إذن إجبارية حقا خوفا من المتربِّصين به... أم أنها هجرة اختيارية هربا من بلد لم يعد يعرفه أو يستطيع العيش به؟

ربما يكون بهجرته الإلكترونية قد ابتدع – دون أن يقصد – حركة عكسية للتكفير والهجرة بعد أن تمكَّن التكفيريون من فرض منهجهم على المجتمع.

«تعالي يا مقصوفة الرقبة... حضّري نفسك عشان فيه زبون على وصول... دا انتي تحمدي ربنا ان فيه رجالة بتعبرك... وانتي عاملة كدة زي المرة الأمريكانية اللي ما حدش طايقها».

ينطلق المخِّيخ ضاحكا للمرَّة المائة هذه الأيام.

« إنت وافق بس... وبكرة تكون عندك أجدعها عباية في البلد».

تنهض العاهرة وتأخذ صندوق الكازوزة معها، تختفي عن أنظاره في ثوان، لكن عبقها الشهواني يظلُّ عالقا كغيم روحاني فاضح للأكاذيب وكاشف لكل ما هو مستور.

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الأربعاء 10 يناير 2007

الساعة 11:30 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

يبدأ مارتين دورا جديدا للـ «فري سيل»، ينقل اللعبة من شاشة اللابتوب الصغيرة إلى الشاشة الكبيرة الوسطى على الحائط، يرتاح لمشاهدة أوراق اللعب مرصوصة أمامه بالحجم الكبير، هذه اللعبة ليست مجرَّد وسيلة للتسلية بل هي مدرسة متكاملة للفلسفة؛ لذلك فصفاء الذهن ووضوح الرؤية أمران حيويان للاعبيها، لكن أين يجد صفاء الذهن بعد ليلة كاملة قضاها يتقلَّب في الفراش، يستحضر النوم فلا يجده، أمامه على المكتب مَج ترسبت بقاعه بقايا من القهوة، إلى جواره معلبان فارغان من مشروب «ردبول»، عيناه مفنجلتان بفضل ما تجرَّعه من منبِّهات لكن تفكيره متقطِّع.

من سوء الحظ أن عليه الوردية الصباحية طوال هذا الشهر، فلا يعود للمنزل قبل الحادية عشرة مساء، واليوم عيد ميلاد الصغيرة إيمي... لن يحتفل مع ابنته بعيد ميلادها الخامس بسبب تقاعس الإدارة عن تعيين بديل للعميل الذي اختفى دون مقدمات، لكنه لا يعلم مَن يلوم تحديدا أو إلى مَن يتوجَّه بالشكوى، مَن تكون هذه الإدارة التي يقع عليها مسئولية اختيار العاملين في مركز الأشباح؟ يتمالك مارتين نفسه ويطوي هذا الموضوع إلى خلفية تفكيره، يحاول أن يصبَّ تركيزه في دور الـ «فري سيل».

تبدأ اللعبة بأوراق اللعب مبعثرة بشكل عشوائي، المطلوب من اللاعب ترتيبها تناقصيا ابتداءً من ورقة الشائب في أعلى العمود إلى الاثنين في أسفله مع اشتراط أن تتوالى الأوراق في كل عمود بين الأحمر والأسود، يؤكد مارتين لنفسه أن الـ «فري سيل» نموذج مصغَّر للحياة، ملخَّص لصراع الجنس البشري منذ بداية الخليقة لاستنباط النظام من الفوضى.

«الحضارة هي القدرة على فرض الإرادة على كل ما حولك». يردد بصوت مسموع ثم يبدأ في تحريك الأوراق.

«... أن تفرض إرادتك على كل شيء... البشر والحيوان والنبات وحتى الجماد». يستطرد محركا ذراعيه في الهواء للتدليل على اتساع نطاق المهمَّة.

من الدروس التي تعلَّمها من الـ «فري سيل» أن النجاح والفشل يعتمدان أولا وأخيرا على حسن ترتيب أوراق اللعب، الفرق بين الحياة والموت هو مجرَّد اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وأن يبتسم إليك ملاك الحظ، فالحظ والتدبير امتداد واحد... لا يمكن تحديد أين يبدأ الأول وينتهي الآخر، والدرس الثاني هو أن اللاعب كلما حقق قدرا من النجاح حمى نفسه بدرجة أكبر من احتمال الفشل، ببساطة لأن رصيد اللاعب يمكِّنه من تحمُّل عقبات أخطائه والاستمرار في اللعب.

«الاستمرار في اللعبة هو سرُّ النجاح». يحادث الشاشة أمامه ثم يستطرد بلهجة خطابية:

«الأغنياء يزدادون ثراء بينما الفقراء ينغمسون بدرجة أكبر في فقرهم، والقاعدة نفسها تنطبق على الدول، فالإمبراطوريات مهما ارتكبت من أخطاء تكتيكية تنتصر في النهاية، وأكبر دليل على ذلك..». يتوقف فجأة عن الحديث.

كان سيدلل على نظريته بأن الولايات المتحدة – رغم أخطائها المتكررة – لا تزال تتسيد العالم، لكنه ليس غافلا عن احتمال أن تكون الإدارة تسجِّل ما يدور داخل المركز، وأخشى ما يخشاه أن يشكك أحد في ولائه.

«هنا كوبرا «1»... وصلنا إلى الموقع... وسوف نبدأ في تركيب المعدات». يأتي الصوت إليه عبر مكبِّرات الصوت من آلاف الأميال كأنه يؤكد بالبرهان العملي الفكرة التي راودته بأن الولايات المتحدة رغم كل أخطائها لا تزال تتسيد العالم.

بعد دقائق تُظهر الشاشة اليسرى الصورة الواردة من الكاميرا التي ركَّبتها الوحدة «1»، الصورة أمامية لمقر المجموعة التي ساعدت «ميكي ماوس» على الفرار، ألوان الصورة تميل إلى الاخضرار لأنها التُقطت بواسطة كاميرا تعمل بالأشعة تحت الحمراء، فالدنيا مساء في الشرق الأوسط بينما النهار في أوجه في كارولينا الشمالية، أما صورة القمر الصناعي التي ظلَّت على الشاشة اليمنى للساعات الست والثلاثين الماضية فتكشف مجموعة مبان متفرقة محاطة بالزراعات، كما أن هناك أيضا صفوفا من الأشجار حول المحيط الخارجي والمبنى الرئيسي.

الصورة الجديدة لا تظهر سوى مدخل المزرعة، عبارة عن بوابة ضخمة مزيَّنة بتماثيل لأفراس في أوضاع مختلفة، على جانبي البوابة غرفتان محصنتان بهما فتحات صغيرة من الواضح أن الهدف منهما تسهيل مهمة الدفاع عن المزرعة بالأسلحة النارية، هذه معلومة مهمَّة يتعيَّن أخذها في الاعتبار، لكن عملاءهم الذين وصلوا توا إلى محيط المزرعة – ثلاث وحدات مكوَّنة من سبعة أفراد مدربين تدريبا عاليا – قادرون على التعامل مع الموقف، تتحرَّك الصورة يمينا ويسارا ثم يجرِّب العميل الزوم اقترابا وابتعادا، لا بد

أن الكاميرا مثبّتة على شجرة أو عمود نور والعميل يختبرها باللاسلكي من داخل السيارة.

«هنا كوبرا «2»... سوف نخرج من السيارة ونتحرّك سيرا على الأقدام».

تنتقل الصورة على الفور وتركّز العدسة على الطاقم الثاني الذي قد تسلل بمحازاة المحيط الخارجي للمزرعة من الجانب الأيمن، أفراده الثلاثة متنكرون في زي فلاحين مصريين، يدرك مارتين أن هذه المرحلة بالغة الخطورة، الكاميرا التي ثبّتتها المجموعة «1» توا تنتقل من متابعة تقدُّم العملاء إلى التجوال داخل المزرعة للتأكد من عدم انكشاف أمر الطاقم الثاني، يراقب مارتين من جانبه صورة القمر الصناعي، الصورة واضحة رغم غياب الألوان، لا يلاحظ أي تحركات غير طبيعية داخل السور، منذ بداية المراقبة بالقمر الصناعي رصد مارتين ستة أفراد داخل المزرعة، اثنان منهم يحملان مدافع رشاشة ويتمركزان فوق سطح المبنى الرئيسي... في هذه اللحظة الاثنان يتبادلان الحديث في الركن البعيد عن الوحدة «2»، يستطيع مارتين تمييز أنهما يدخنان السجائر.

الأشرار يدخّنون دائما في السينما، والخيرون كذلك - خاصة في أفلام زمان، تلك الشاشة الذهبية التي ألهبت خياله حتى دفعته للالتحاق بالعمل المخابراتي، كان حلمه بجد أن يُرسل في مهمَّة إلى كازابلانكا، يرتدي معطف همفري بوجارت ويبحث عن إنجريد برجمان في الملاهي الليلية، يتصارع مع شخصيات لا تنسى... لا أن يقضي عمره أمام شاشة الكمبيوتر.

«كوبرا «3»... للقيام بمناورة تمويهية... كوبرا «2»... للانتظار عند أسفل الشجرة حتى تحتلّ كوبرا «3» موقعها..». يضع قلما في ركن فمه، ويتقمَّص صوت همفري بوجارت الأجش في الميكروفون.

الوحدة «3» تتحرَّك على درَّاجة آلية وسط الأرض الزراعية غير الممهدة بمحاذاة السور الأيسر الأقرب إلى الحارسين المسلحين فوق السطح، يتابعها مارتين في صورة القمر الصناعي لأنها خارج نطاق الكاميرا الأرضية، تتوقف الدرَّاجة الآلية عند أقرب نقطة للحارسين بهدف شغلهما عن الوحدة «2»، الدرَّاجة كشَّافها موقد، سوف يتظاهر العميلان بأن آلتهما تعطَّلت.

«هنا كوبرا «3»... عملية جذب الانتباه جارية».

بعد ثوان مكهربة يقرر مارتين أن البرَّ أمان ويعطي الإشارة للوحدة «2»، بسرعة خاطفة ينطلق أحد أفرادها متسلِّقا شجرة شامخة خارج نطاق السور مباشرة، الكاميرا الأمامية تمسح المحيط الداخلي بحركات سريعة، لا ترصد أحدا في هذه المنطقة، تعود الصورة إلى العميل الذي وصل إلى ارتفاع كبير وبدأ يثبِّت الكاميرا الثانية – هو صحيح في حماية الظلام لكن تسلُّق الشجر ليلا في حد ذاته لا يخلو من المخاطرة – بعد الانتهاء من تثبيت الكاميرا سوف يثبِّت جهاز التقاط الاتصالات الذي يستطيع التنصت على الأحاديث التي تدور داخل المبنى، وجهاز الأشعة تحت الحمراء لتحديد مواقع الأفراد من وراء الجدران، كل شيء يسير طبقا للخطة.

ضربات قلب مارتين تهزُّ جسده بعنف، لا يرفع عينه عن صورة القمر الصناعي للتأكد من أن الحارسين لا يزالان على الجانب الآخر من سطح المبنى الرئيسي، ثمَّة إثارة في مركز الأشباح أيضا... لا ينقصه الآن سوى إنجريد برجمان...

فجأة يُفتح الباب الرئيسي للمبنى مضفيا مخروطا من الضوء على الحديقة، يخرج منه ثلاثة رجال مسلَّحون، فيقع قلب مارتين في قدميه.

أتكون المزرعة مزوَّدة بكاميرات للمراقبة؟ صورة القمر الصناعي لا تجيب عن هذا السؤال، لو كان العملاء لاحظوا مثل هذه الكاميرات

لأبلغوه، لكن الكاميرات ما أسهل إخفاءها، حياة العملاء في خطر... نجاح العملية بأسرها أصبح الآن في الميزان.

«جميع الوحدات: الكود أحمر... أكرر الكود أحمر... كوبرا «2» للتجمُّد والتحصُّن في نفس الموقع... كوبرا «3» لتكثيف عملية التمويه والإفادة بالوضع». يصرخ مارتين في الميكروفون تاركا القلم يسقط من فمه.

لحظة طويلة مكهربة.

لا يدري مارتين ماذا يحدث بالضبط، التكنولوجيا لا تسعفه، منظور القمر الصناعي يظهر الأشخاص عبارة عن دائرة الرأس داخل مستطيل الكتفين، البنادق أو المدافع الرشاشة خطوط سوداء غليظة، الرجال الثلاثة متوقِّفون أمام المبنى، لا يستطيع تمييز في أي اتجاه ينظرون، أفراد الوحدة «2» اختفوا بين الأشجار فلا يظهر أي منهم في صورة القمر الصناعي أو صورة الكاميرا الأمامية، هم مدرَّبون للدفاع عن أنفسهم لكن الرجل المعلَّق في حضن الشجرة في خطر، ثم إن قيمة العملية في سريتها التامة وإلا باءت بالفشل، يجنح المسلحون الثلاثة يمينا، يتجهون نحو وحدة التمويه، يتنفَّس مارتين الصعداء.

«هنا كوبرا «3»... عملية التمويه تسير بشكل طبيعي حتى الآن». يأتي الصوت عبر مكبِّر الصوت تأكيدا لما شاهده مارتين على شاشة القمر الصناعي.

«كوبرا «2»... لاستكمال المهمَّة». يهمس في الميكروفون.

يظهر المبنى الرئيسي للمزرعة على الشاشة الوسطى فجأة بدلا من لعبة الـ «فري سيل»، قد نجح العميل المتسلِّق في تثبيت الكاميرا في موقع نموذجي يكشف الجزء الأكبر من المزرعة.

«هنا كوبرا «3»... عملية التمويه دخلت مرحلة الخطر... أطلب إذنا بالإجهاض قبل أن تتمكَّن الأهداف المسلحة من محاصرتنا... أكرر أطلب إذنا بالإجهاض».

«انسحب كوبرا «3»... أكرر انسحب فورا». يأمر مارتين في الميكروفون.

«هنا كوبرا «2»... جاهزون للانسحاب». صوت العميل الذي يجهل اسمه يبدو في أذنه أنقى من أحلى أغاني ديانا روس، على الشاشة أفراد المجموعة يهرولون نحو سيارتهم.

«كل الوحدات... للعودة للقواعد فورا... عملية ناجحة وشكرا». يبتسم مارتين للشاشات الثلاث أمامه... ما رأيك يا بوجارت؟

أصبحت المزرعة أخيرا تحت المراقبة الخارجية، علاوة على التنصُّت على الاتصالات الهاتفية والإلكترونية وحتى الأحاديث الشفاهية بين أعضاء المجموعة داخل المبنى وخارجه، الوصول لقيادة هذه المجموعة أصبح الآن مسألة وقت، وإن كانت المؤشرات توحي أنها لا تتبع أي حكومة.

موجة من الارتياح تجتاح مارتين، لكن سرعان ما تتبدد بهجته بتذكره ابنته الجميلة إيمي، ما فائدة النجاح إذا كان الأب لا يستطيع حضور عيد ميلاد ابنته؟ وما جدوى الوظيفة التي لا توفِّر لصاحبها أدنى حقوق العمل؟ أيكون يقدِّم كل هذه التضحيات من قبيل وطنيته المفرطة أم تلبية لرغبة دفينة في نفسه للسيطرة والتسلُّط؟ ثم من هو صاحب قرار اغتيال العلماء الأجانب دون محاكمة وفي غياب أي دليل يدينهم؟ بجد هل هناك سند من الأخلاق والقانون لعملياتهم؟ ومن الذي يتحمَّل المسئولية؟ أكان همفري بوجارت سيقبل هذا الوضع؟

كيف يواجه إيمي لو انكشف الأمر... لو في يوم تصدَّرت صورته نشرات الأخبار وصفحات الجرائد بين السفَّاحين ورجال الأعمال الفاسدين؟

يعلم جيدا أن مثل هذا لن يحدث أبدا، فهو شبح ضمن الأشباح لا صورة له ولا اسم، إن أخطأ التقدير والتصرُّف فالأرجح أن تكون نهايته بالاختفاء المفاجئ أو الهلاك في حادث غرق مشوب بالغموض، يذكِّر نفسه بأنه ليس موظفا كسائر الموظفين، لا يجوز له التذمُّر أو الاستقالة، إن مجرَّد الشك أو التردد هو ترف لا يملكه، فقد دخل طوعا في علاقة زواج كاثوليكي مع أجهزة لا تعترف بأخلاق أو قانون، هو كذَّاب بين كذَّابين ولص بين لصوص وقاتل بين قتلة... فعليه أن يكفَّ عن النحنحة كالأطفال.

بعد لحظة تأمُّل يعود مارتين لدور الـ «فري سيل» المؤجل.

***

الفصل السادس

الجيزة
مساء الخميس 11 يناير 2007

يقف المخِّيخ في منتصف الغرفة وذراعاه مضمومتان فوق صدره في وضع مومياء فرعونية، أمامه على السرير عباءة بنِّية مطرَّزة بالخيط المذهَّب فردها فوق البطَّانية حتى يتأملها بهدوء، صوفها يبدو رقيقا ناعما فوق وبرة البطَّانية المنفرطة المترهِّلة، ألوانها ناضرة ثابتة مقارنة ببطَّانية الجيش السوداء الباهتة في الخلفية، عباءة فخمة، أكيد كلَّفت زكزوكة الشيء الفولاني، لكن إلى أين سيأخذه ارتداؤها؟ هذه القصة برمَّتها غير مريحة، يبتسم... على الأقل لم تحضر له زي مأذون شرعي على طريقة أفلام زمان.

يرفع العباءة برفق ويرتديها فوق بدلته الرمادية التي كانت أنيقة قبل أن يأكل الدهر عليها ويشرب، يحشر جسده النحيف بين الطاولة والنافذة، يتفقَّد هيئته المنعكسة في الضلفة التي يغطيها زجاج – الأخرى مسدودة بلوح من الأبلاكاش – يزرُّ سترته فوق القميص الأبيض النظيف غير المكوي، شكله محترم بلا شك بين جيرانه من النشَّالين والسمكرية والعاهرات، إن كانت كوندوليزا وزبائنها يبحثون عن شخص يضفي شرعية ما على نشاطهم المحرَّم فقد وجدوا الرجل المناسب، ومن جانبه لم يعد أمامه بديل إن كان يريد الاستمرار في مخبئه يسدد فاتورة الإنترنت وقيمة الإيجار ويتحصَّل على

ما يسد رمقه... علاوة طبعا على العبء الجديد الذي ألقي دون مقدمات على كاهله، مسئولية نجدة الفاتنة البريئة ديدي.

يعني أكل العيش يحب الخفيّة، بالضبط، ستكون تجربة مثيرة على أي حال – هكذا قصة حياته ينتقل من تجربة مثيرة إلى أخرى أكثر إثارة دون أن يقصد ذلك أو يبغيه على الإطلاق... يخرج من حفرة فيقع في دحديرة على رأي أمِّه رحمها الله، من حسن الحظ أنه تحرر من الأحلام والأمنيات، والندم... فما جدواه؟ تعلَّم أن يتعامل مع مصائب الدهر بواقعية مجرَّدة... بسرنديبية حتى.

يقرر المخِّيخ أخيرا أنه سوف يترك رأسه عاريا ولن يدَّعي أي صفة دينية، لا يمكن أن يتحوَّل إلى نصَّاب على آخر الزمن، يعني هو بالضبط رجل أعمال يقدم سلعة... خدمة للأسف ازداد عليها الطلب في السوق هذه الأيام، هو فيلسوف وجودي... أو علماني متصوِّف يطفو فوق محيط الحياة – كما يحلو له أن يصف نفسه هذه الأيام.

وهو يتأمل نفسه في الضلفة الزجاجية يتذكَّر هيئة أبيه النحيلة المعرَّقة في ملابسه الداخلية البيضاء، وهو الزي الذي اكتفى الرجل به في المنزل طوال فترة الصيف، على عكس أمه التي لم تكن تسمح لمخلوق أن يراها إلا وهي على سنجة عشرة ووجهها مزيَّن بمكياج خفيف... يسترجع المخِّيخ ملامح وجه أم سعاد يوم أن حضرت من القرية للاطمئنان على ابنتها الشغَّالة الصغيرة، ففتح لها أبوه الباب بملابسه الداخلية – ليس قميصا بكم وسروالا على طريقة الفلاحين إنما فنيلة مقوَّرة وسليب على طريقة الخواجات – ورحب بها ودعاها للدخول، لكن تعبيرا كوميديا بالدهشة لم يفارق وجه السيدة حتى لـمَّت ابنتها أشياءها وسحبتها من يدها بلا عودة.

كانت أمه تعشق الطبخ، يراها الآن واقفة أمامه، ترتدي مريلة بمبية مشغولة فوق فستانها الكحلي المنقط في أبيض، تغني «نار يا حبيبي نار» بصوت خفيض وهي تقلِّب التقلية بأناقة تامة، أجمل عطور الدنيا لا تقارن بعبق تقلية أمِّه، حتى مهام التنظيف كانت تقوم بها عند الحاجة دون مشقَّة أو تأفف، كانت تذكِّره بزينات صدقي عندما تظهر في دور الخدَّامة – أو «الكاماريرا» بلغة أفلام زمان – تدندن وتمرُّ بالريشة بخفَّة على الأثاث الفاخر كأنها أمتع رياضة يقوم بها الإنسان، بالمقابل فإن أكره ما كرهته أمه كان نشر الغسيل في الشرفة، كانت تعتبر أنه يظهرها في صورة لا تليق بها أمام أعين العالم، فأصبحت هذه المهمَّة الرئيسية الموكلة للخادمة.

لذلك كاد إصرار أبيه على تجنُّب الملابس الفوقية طوال الصيف ، يحدث شرخا عميقا في بنيان الأسرة – ليس لاعتراض السيدة الفاضلة على أن يكون زوجها «على راحته» في منزله، إنما لأن هذه العادة تسببت في تسرُّب سلسلة طويلة من الخادمات الصغيرات، وأمه سيدة طيبة لكن «زعلها وحش» – لو طلبت من المخِّيخ الصغير أن يذهب للسوق لشراء طلب عاجل فتململ انقلبت عليه وظلت لأشهر «مقموصة» لا تبادله حديثا وتتجاهله كأنه غير موجود في الغرفة – لولا أن الرجل نجح في احتواء أزمة تعليق الغسيل – بحكمة غير معهودة به – بتطوعه أن يتولَّى مهمَّة النشر بنفسه.

طوال هذه السنوات ظلَّ المخِّيخ إن تذكَّر أباه رآه بعين خياله خارجا إلى الشرفة صارم الملامح حاملا طشط الغسيل... لا يستر جسده المعظَّم – وعضوه التناسلي المتضخم بشكل لا يتناسب مع هيئته النحيفة – غير الفنيلة والكلوت.

لكن لماذا يسترجع الآن حيرة طفولته؟

يخطر للمخيخ – وهو يضغط على زرِّ تشغيل اللابتوب – أنه لم يدعُ أيًّا من أصدقائه قط لزيارته في منزلهم في شارع لاظوغلي حتى وفاة أبيه بعد تخرُّجه من الجامعة، بالضبط قضى عمره حبيسا في كبسولة، ربما كانت كلها مرحلة إعداد له... إعداد للمرحلة الأخيرة من عمره التي – طالت أم قصرت – سيقضيها هربا من قوى جهنمية غير معرَّفة تحديدا... يتمالك نفسه بحزم، لا وقت للذكريات الآن، عليه أن يجبر نفسه على التركيز، على الأقل يجد وسيلة لإخراج ديدي من ورطتها، مأساة ديدي تلحُّ عليه بعد أن أبرزت شعورا بالعجز أخذ يتبلور في نفسه منذ سنوات.

لعله يجد الآن ردًّا من «الدكتور»، في انتظار النفاذ إلى شبكة المعلومات يراجع رسالته السابقة إلى زعيم العصابة، لم ترَدّ إليه مما يؤكد وصولها للمتلقي، صياغتها تؤكد أن تدبير المبلغ جارٍ ولا تطلب إلا الاطمئنان على ديدي، يرتاح لصياغته الحذرة التي لم تتضمن أي معلومات تكشف عن هويته، اقتصر توقيعه على «صديق مخلص» لإدراكه أن كافة رسائل النت تتعرض للمراقبة بواسطة خوادم إلكترونية عملاقة تمشِّط النت بحثا عن أهدافها، فالشبكة العالمية تتحكَّم فيها مجموعة من التقاطعات أو المفاصل الإلكترونية، تسيطر عليها خوادم شركة «سيسكو» الأمريكية، مما يسهِّل مهمَّة أجهزة المخابرات الأمريكية في مراقبة كافة المعلومات التي تمر من خلالها، لا يشك المخِّيخ في أنه لو أخطأ مرَّة واحدة وكشف عن أي بيانات شخصية خاصة به سوف يلتقط مطاردوه أثره، وينجحون حتما في كشف مخبئه؛ لذلك حرص على إنشاء عنوان جديد على النت خصصه للتراسل مع العصابة... لكن ما جدوى كل هذا إن كانت العصابة لا حس لها ولا خبر أصلا؟

يشعر بالوحدة، صداع خفيف يغلِّف دماغه، يقاوم بصعوبة رغبته في البحث عن فتاة الحلوى، حياته موحشة بدونها، نبضات قلبه تدوّي كدقّات طبل داخلي، يفرك الزهرتين في جيبه، لَم يصرُّ على نقل عُقد الواقع وتعقيداته إلى الحياة الافتراضية؟ ألم يحن الوقت لأن ينضمَّ إلى الملايين الذين يستكشفون أنماطا جديدة للعلاقات الإنسانية...؟ لكن هو على حق في اعتبار علاقاتها بآخرين خيانة له، فالخيانة خيانة سواء أحدثت في مصر أم الهند الصينية، بالضبط، الخيانة خيانة سواء أكانت جسدية أم تمَّت عبر الأثير، خيانة القريبين هاجس الناس منذ ظهور البشرية، لا يُعقل يعني أن تمحوها حجج حداثية أو بدع تكنولوجية.

تصوَّر نفسه رغم كل شيء إنسانا متحررا، لكن هذا هراء، بالضبط، هراء، كالآخرين هو حبيس، أسير للـ « تسايتجايست» ذات القبضة الأخطبوطية، فإذا كان الفضاء ذاته مليئا بالمطبَّات، فما بالك بدروب الحياة في مصر الحديثة التي فقدت طريقها أصلا... هو شخصية ضبابية من شخصيات الفنان «بيزليتز» المنقلبة رأسا على عقب، هو سجين للإطار، مسيَّر من التاريخ، تابع وفيٌّ لروح العصر... وهذا عصر رحيقه مر.

ينقبض قلبه فجأة لتلقيه رسالة من عنوان مجهول، يرتجف إصبعه وهو ينقر الفأرة، ثم تتلاحق أنفاسه وهو يقرأ الرسالة شديدة الاقتضاب:

الصديق المخلص،

تأخركم ترتب عليه نقل الملكية. مرفق شريط مصور لتفقد حالة البضاعة. السعر الحالي 200 باكو.

المالك الجديد

الكلمات تصفعه... المالك الجديد... بساطتها كالسم وحسمها كالسيف، يساوره أمل بأن ثمة لبسا حدث، ربما يكون تلقَّى رسالة تتناول صفقة تجارية حقيقية بطريق الخطأ، لكن الشيطان يلعب في عبه، أتكون الجميلة البريئة ديدي هي «البضاعة» التي يتحدَّث عنها «المالك الجديد»؟ والأخطر من ذلك: أتكون الفدية المطلوبة وصلت إلى مائتي ألف جنيه؟ كم من الاحتيال والدعارة سيكون مطلوبا لتحقيق مثل هذه المكاسب؟

يفتح الـمُرفق والإعياء يتسلل إلى حلقه.

يشهق لرؤية ديدي تتوسَّط الصورة أمامه، يسحب البخَّاخة وأنظاره أسيرة الشاشة، الفتاة تجلس وذراعاها موثقتان إلى مسندي الكرسي، عيناها معصوبتان على طريقة رهائن تنظيم القاعدة، لكن رأسها مرفوع، لا رجفة خوف أو انحناءة استعطاف، لم ينجح الأسر في كبح جماحها، يقشعر بدنه، فتكرار النهايات الدموية في مثل هذه التسجيلات قد أهَّله نفسيا لأسوأ الاحتمالات.

رجل بدين يظهر في الكادر من ظهره فيغطي على الجزء الأكبر من هيئة ديدي، بالتأكيد ليس من ضمن أفراد العصابة الذين التقاهم في السيَّارة الباجيرو، يحدِّث الفتاة لكن كلماته غير واضحة، رأسه أملس تماما، يحلقه بالموس على الأرجح، ينحني فوقها، بحركة مفاجئة يمزِّق البلوفر الأحمر الذي ترتديه – نفس البلوفر الذي رآها فيه المخِّيخ آخر مرَّة – ثم يخرج من الكادر تاركا الفتاة تواجه الكاميرا، لا يسترها سوى حمالة صدرها، نهداها رقيقان يرتجفان مع أنفاسها المتصاعدة، جلدها شاحب أملس كالأطفال، تمرُّ لحظة، لا يعلم إن كانت ستنهار، اصرخي يا ديدي لعل أحد الشرفاء ينجدك، توسلي يا ابنتي، استعطفي سجانيك لعل قلوبهم الجاحدة تلين، لكنها بهزَّة عنيفة من رأسها تبصق في وجه الكاميرا، تنطلق قهقهة ممتدة مصدرها غير

مرئي، كأن شريرا هرب من فيلم عربي قديم وتجسَّد في هذا الكابوس الذي أصبح جزءا من واقع المخِّيخ الجديد.

يتوقَّف التسجيل.

يعيد المخِّيخ تشغيل التسجيل لكن ما أن تظهر هيئة ديدي المغللة حتى يوقفه، لم يعد يحتمل المشهد، لم يكن يتصوَّر أن «الدكتور» زعيم العصابة سيتصرَّف بهذا الشكل الوحشي، وكان هو معجبا بصياغة رسالته الإلكترونية التي أكد فيها أن تدبير المبلغ جارٍ، هؤلاء ناس لا يفهمون هذا الكلام... إما الفلوس أو نبيع البرنسيسة لشبكة من إياهم على رأي الأبضاي في الباجيرو... وكل شيء الآن أصبح متوقفا عليه.

يكاد رأس المخِّيخ ينفجر، دقدقة متلاحقة منتظمة تتوارد إلى مداركه، أيكون صوت اصطدام مشابك أبيه الخشبية بالبلاط المترب عندما تنفرط من العب القماش الذي يحويها، أم إيقاع الموسيقى اللاتينية الذي يملأ دنياه بهجة خلال رقصة متحررة مع فتاة الحلوى؟ بعد لحظة يستعيد فيها اتزانه يتجه بنظره إلى باب الغرفة، ثم يتنبَّه إلى أن النقرات تتسرب إليه من خلال الأرضية، يستنتج أنها صديقته شبيهة وزيرة خارجية أمريكا تقرع سقف غرفتها – غالبا بعصا المقشَّة – ثم يتذكَّر اتفاقهما الأخير ويفهم أنها تناديه ليحضر إليها في عباءته الجديدة.

***

الجيزة
مساء السبت 13 يناير 2007

الذرَّات التي تكوِّن أجسادنا صُنعت في بوتقة النجوم.

يضمُّ المخِّيخ شفتيه الرفيعتين في محاولة شبه ناجحة للتصفير، يقف خلف نافذته ذات الضلفة الزجاجية والأخرى المغطَّاة بخشب الأبلاكاش، يتأمل سماء الليل من خلال المثلَّث الذي ظهر منها من بين البنايات القبيحة الداكنة التي تخيِّم على الزقاق كأغوال هرمة، والأسلاك المتشابكة التي تنقل الكهرباء وخدمات الهاتف والإنترنيت التي توفِّرها الحكومة مضفية على الحي شرعية مشكوكا في أمرها، النجوم فوقها باهتة قد أخفت غيم التلوُّث القابض على أنفاس القاهرة بريقها، يخطر له أنه كلما نظر بعيدا في الفضاء الخارجي كلما غاص في الماضي السحيق، بالضبط، فأصداء الانفجار الأعظم الذي ولَّد الكون لا تزال عالقة هناك بين المجرَّات الأبعد التي نرصدها بأجهزتنا المتطورة... لكن لا ندري إن كانت لا تزال موجودة وقت استقبالنا الضوء المنبعث عنها أم تلاشت قبل أن يطأ آدم سطح الأرض، وحتى دون أجهزة التقاط متطورة فإننا نرصد أصداء الانفجار الأعظم في الشوشرة الإلكترونية التي تزعج أسماعنا من حين لآخر عندما نقلِّب محطات الراديو والتلفزيون، يسمُّونها الشوشرة الكونية... شوشرة الدنيا على عقله المتعب.

جسده مثقل كأن دمه تحوَّل إلى رصاص منصهر، مشهد انتهاك الصغيرة ديدي قد سمم كل خلية في جسده، يشعر المخِّيخ أنه أصبح محاطا بالشوشرة من كل جهة، يستحيل التمييز إن كان مصدرها داخليًّا أم خارجيًّا، قريبًا أم بعيدًا، إن كان منبعها ينتمي للعالم المادي أو الافتراضي، إن كانت أصداؤها تأتي إليه من الحاضر المتربِّص أو الماضي الذي يأبى أن ينطوي.

يرحِّب بنقرات طاهر المهذَّبة، يذهب إلى الباب دون تلكؤ، هو الآن في أمسِّ الحاجة لابتسامة الشاب الواثقة.

«إيه النظام؟» يدخل عليه الشاب بتحية جيله.

«ابن حلال مصفّي... كنت بفكر في قضية مهمّة... ممكن تساعدني؟» يذهب المخِّيخ ليحضِّر الشاي.

طاهر يستريح على السرير في شبه استلقاء ساندا جذعه على كوعيه، لا يردُّ.

«تسمح تقول لي إيه أهم ثلاث نظريات أهداها القرن العشرين للعِلم؟» يميل المخِّيخ إلى داخل البرميل ليملأ البراد، يملأه ثم يفرِّغه عدة مرَّات حتى يتأكد من نظافة المياه... المنسوب انخفض والحشرات الطائفة بالعشرات.

قد أهمل في الأيام الأخيرة في تنظيف الغرفة وتهويتها وملء البرميل وتفريغ الدلو بعد أن كانت طقوسا يومية شبه مقدَّسة... اختلال طقوسه يضاعف من اضطرابه.

يفسِّر سكوت طاهر بأنه ينتظر مزيدا من الإيضاح.

«القرن العشرين تفوَّق على القرون السابقة في حاجتين... الأولى: بشاعة الحروب والمجازر... والثانية: الإضافة الكبيرة لمنظومة العلوم الطبيعية...

لكن إيه هي أهم النظريات في الرياضيات والفيزياء اللي حتؤثر على مستقبل تقدُّم العلوم البشرية؟»

«نظرية النسبية». يردُّ طاهر ببساطة.

«بالضبط... يعني الزمن نفسه ما بقاش ثابت... لو اتنين مسافرين على سرعات عالية لكن متفاوتة ممكن واحد يعجِّز قبل التاني... وإيه كمان؟»

«الميكانيكا الكمية». يتكلَّم الشاب بشيء من الزهق.

«هايل... بمعنى إن انت بكرة الصبح ممكن تصحى تلاقي نفسك في المريخ... ناقص لك واحدة يا جميل..».

يشعر أن الفتى لا يبذل جهدا في التفكير، شيء ما يؤرقه، شيء أو أشياء، هذا داء الإنسان الحديث في كل مكان، القلق والخوف والتوتُّر وعدم الأمان، بالضبط، هكذا مصير البشر بعد أن بدد القرن العشرون بالدليل العلمي كل يقين ممكن ومحتمل.

«الفوضى يا عبقري زمانك... نظرية الفوضى..». يصيح المخِّيخ ثم يطلق ضحكة عصبية.

نظريات ثلاث كل منها قادرة بمفردها على زلزلة أركان الرؤية الكونية الإستاتيكية التي ظلت لآلاف السنين تحصِّن الإنسان في مواجهة المجهول... فاجتمعت ثلاثتها لتحوِّل معابد البشرية الشامخة إلى أطلال... والنظرية الأخيرة في رأيه هي الأكثر بلاغة في وصف مسيرة الحياة.

«المخ نفسه بيشتغل من خلال قوانين الفوضى... حتى ضربات قلب الإنسان تتبع نهج فوضوي..». يناول الشاب كوبه ثم يجلس على كرسيه الملخلخ.

يتفحَّص وجهه باحثا عن ردِّ فعل ما لكلامه المحمَّل بالمعاني، لكن الفتى عابس تماما، وهل في ذلك ما يثير الدهشة؟ يحدِّثه هو عن نظرية الفوضى من منطلق نظري بحت... بينما حياة طاهر منذ أن ولد فوضى في فوضى.

الفوضى هي الأصل وكل ما عداها سراب، بالضبط، هكذا أثبت العلم لنا... فبلا رأفة بدد أوهامنا... إذن لماذا نندهش عندما يبدأ القرن الواحد والعشرون برفض المنهج العلمي من أصله؟ ثورة اليقين على الشك، عودوا بنا للشعوذة، لا تتركونا وحدنا في مواجهة العدم... أسامة بن لادن وبات روبرتسون وجان ماري لي بين هم رجال الساعة ورجال العصر... لأن الحداثة أتمَّت دورتها وعادت بنا إلى ما قبل التاريخ، أعادتنا إلى ما قبل اليقين وما قبل الأمان، فلم يبق للبشر سوى استعادة زمام المبادرة بعيدا عن العقل، بعيدا عن العلم الحائر المحيِّر.

العلم سفينة... وكل سفينة مصيرها الغرق... أليس كذلك يا طاهر؟

لا... بل أنت بريء... بعيد عن مثل هذه الأفكار... كلنا نغرق لكن ليس أنت يا طاهر... لا أنت ولا ديدي...

«ما تشيلش في نفسك يا طاهر... إنت بذكاءك وجديتك مش حتطوِّل هنا... قريب حتعدي شارع السودان للمهندسين... ولا يمكن تشوف لك فيلا في كمباوند من بتوع المدن الجديدة».

ينتبه الفتى كأنه يسمع كلامه للمرَّة الأولى هذا اليوم، يأخذ لحظة حتى يستوعب ثم يردُّ بصوته الهادئ المحمَّل بالثقة:

«وإيه فايدته يا شاعر يا عبقري...؟ طول ما فيه حي عشوائي واحد في البلد تبقى مصر كلها عايشة فيه... اللي يتصوّر إنه قافل على نفسه باب أو باني حوالين عياله سور... عايش وهم في يوم من الأيام حتما راح يفرقع في وشه».

كلمات الفتى ترجُّه كالزلزال، ها هو يتفلسف في النظريات بينما ديدي تواجه مجرمين لا تحمل قلوبهم أي مشاعر إنسانية بالمرَّة... حيوانات... بالضبط، هو يهرب من واقعه الأليم، كالنعامة يدفن رأسه في رمال الرياضيات... بينما هذا الطاهر يواجه بصدره العاري حراب الحياة وسهامها.

ينهض المخِّيخ ويغرس إصبعيه في جيب سترته المعلَّقة فوق شمَّاعة مدلَّاة من مسمار في الحائط، يدرك أنه يأخذ مخاطرة بإفشاء سره أمام الفتى لكن حدسه يؤكد سلامة نية الشاب، ثم إنه على أي حال لن يستطيع تحرير ديدي دون مساعدة طاهر... يلتقط أحد الجنيهات الذهبية لكن قبل أن يقبض عليه في كفه يفلت منه ويسقط برنَّة معدنية على البلاط المترب، يرفع الفتى العملة المعدنية من على الأرض ويدقق النظر فيها قبل أن يمدَّ يده بها للمخيخ.

«إيه ده؟» يعقد طاهر حاجبيه.

«بتفهم في العملات يا طاهر؟»

يتفحَّص المخِّيخ وحدة العملة لأول مرَّة، لمعانها يؤكد أنها ذهبية بالفعل، لكنها ليست جنيها كما تصوَّر بل عملة إسلامية، الكلام نقش بها بالخط الكوفي في ثلاثة أسطر دائرية أولها بمحاذاة حافة العملة وثالثها قرب مركزها.

«للأمانة مش قوي... لكن أعرف اللي يفهم فيها».

«خبير يعني؟» يسأل المخيخ وهو يقلِّب العملة، لا يستطيع تمييز إلا عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

«صاحب دكّان في الزمالك بيبيع طوابع وعملات نادرة... بيسموه السنيور».

«أنا أعتقد إنها دهب». يتحدَّث المخِّيخ ببطء، ثم يستطرد: «لولا اللمعان كنت قلت دي عملة أثرية».

يمدُّ طاهر يده ليسترد العملة، يبدأ بأن يضغطها بين ضرسيه ثم يتفقد جانبيها.

«بالضبط... دهب... لكن ما قلتليش... حضرتك جبتها منين؟»

«دي بقى قصة طويلة... لكن احتمال العملة تساوي فلوس كتير». معالم الخطة أصبحت الآن واضحة، لأول مرَّة منذ أحداث الباجيرو يرى أمامه بصيصا من الضوء، أخيرا قد ينجح في إنهاء الصداع الذي سببته ديدي له، ثم يعود لعالمه الافتراضي... يبحث عن حل لحكاية فتاة الحلوى.

«لو كانت عملة أثرية فعلا تبقى كنز». يؤكد الشاب باهتمام.

يريد المخِّيخ أن يأخذ الفتى بالأحضان، أن يقبِّله على الخدين، لكن يتمالك نفسه، عليه أن يحذر من الأمل المتسلل إلى نفسه، المخاطر لا تزال كثيرة وهذا الفتى قد يكون أفَّاكا، وعلى أي حال لا يوجد ما يضمن إنقاذ ديدي حتى ولو توفَّر المبلغ الكبير المطلوب، عليه أن يسيطر على مشاعره الآن، من أجل ديدي، بالضبط، عليه أن يتعامل مع الموقف بسرنديبيته المعهودة.

«يا أستاذنا الكبير... من لحظة ما دخلت وحضرتك هريني أسئلة... مسموح لي أنا أسأل سؤال واحد؟» يستطرد الشاب وقد استعاد شيئا من تجهُّمه السابق.

«اتفضل يا طاهر». يتأهب المخِّيخ لمعضلة رياضية يدلل بإجابتها مجددا على عبقريته.

«هو صحيح ان حضرتك بدأت تشتغل مع البت كوندوليزا؟»

***

الفصل السابع

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الأحد 14 يناير 2007

الساعة 9:00 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

ملعون من تضطره الظروف لأن يعمل أيام الأحد، ليس مرَّة أو مرَّتين بصفة استثنائية بسبب ضغوط العمل، إنما كل أحد من كل أسبوع، وليس الأحد وحده بل السبت والاثنين وكل الأيام دون استثناء، بلا عطلات أو إجازات، دون هوادة، وهو مزكوم محموم، وهو يصرخ من آلام الظهر، عندما تكون بواسيره تنزف، العمل دائما العمل، بجد بلا رحمة، بينما باقي الناس يعتبرون الأحد يوم الراحة، المتدينون منهم يتوجهون للكنائس، والعاديون يستيقظون متأخرا من النوم، يتمطّأون في كسل إلى جوار أطفالهم، يداعبون كلب الأسرة، ثم يخرجون لتقليم حدائقهم إذا كان الطقس ملائما، وفي الأيام الممطرة يمارسون الحب مع زوجاتهم في الفراش... هذا هو الحلم الأمريكي الذي كم يفتقده مارتين، ومما يضاعف من سخطه أنه لم يعد يحصل على مقابل يبرر معاناته، فلا هو يتقاضى مرتبا طائلا، ولا توجد أمامه فرصة للترقي إلى وظائف مرموقة، هو مجرَّد ترس في آلة عملاقة لا تكترث بالبشر، يؤدي عمله لأنه ضروري، يتعين أن يؤديه أحد الناس لكي تستقيم الحياة؛ كصنع المقانق وكنس الشوارع وتسليك بالوعات المجاري... تلك الوظائف التي تعلم أن أحدا حتما سيؤديها لكنك لا تتصور أن هذا الشخص سيكون يوما ما... أنت.

يدلف مارتين إلى داخل مركز الأشباح في تثاقل، يزداد تذمرا كل أسبوع، لا توجد مؤشرات لقرب انضمام عميل ثالث إليهم، بينما العمر يفرُّ كبالون انحلَّ رباطه، لكنه لم يعد يجرؤ على إثارة الموضوع مع «ألفا» ، لا يمكن التنبؤ بردِّ فعله أو ردِّ فعل القيادة لو تنبهوا للشكوك التي تساوره، فالالتحاق بمثل هذه الوظائف صعب والاستقالة منها أصعب، هي أقرب للزواج الكاثوليكي أو للدقة أشبه بالالتحاق بعصابات المافيا أو خلايا القاعدة، فلو ألحَّ على «ألفا» بأكثر مما ألحَّ بالفعل ربما حدث ما لا تحمد عقباه، بل إنه أصبح يتشكك أصلا في قدرة زميله البدين على الإسراع في تعيين بديل لزميلهم الذي اختفى دون مقدمات، إذن مَن صاحب القرار وأين مقر هذه «القيادة»؟

«صباح الخير «ألفا»». يعلِّق مارتين سترته إلى جوار سترة زميله الجرباء، يلاحظ أن البقع الداكنة تنتشر يوما بعد يوم على جلدها البني، هذه السترة أصبحت تثير اشمئزازه، يخيَّل إليه أن طبقة قليلة السُّمك تغطيها من بقع البيرة والكاتشاب والبطاطس المحمَّرة وزيت تشحيم درَّاجته الآلية الـ«هارلي دافيدسون» فضلا عن الطين والعرق وبقايا فضلات جسدية لا يريد أن يتخيَّلها، يحرِّك سترته إلى خُطَّاف آخر حتى لا تلامسها.

«اكتشاف مثير... يلقِّننا دروسا مهمَّة». يردُّ العميل «ألفا» بفم ملآن دون أن يلتفت إليه، في يده كيس ضخم من البطاطس المحمَّرة.

ينتظر مارتين شرحا لعبارة الرجل، يشعر أنها ربما تحمل نبرة تأنيب، لكن العميل «ألفا» لا يضيف شيئا، عيناه مركزتان على الشاشة الوسطى، يقترب مارتين في حذر، الصورة الوسطى تظهر المسقط الأفقي للمزرعة، المباني باللون الأصفر والحديقة المحيطة بها بالفستقي، مارتين هو الذي صمم هذا المسقط المجمَّع بواسطة الحاسب الآلي من خلال تركيب كل المعلومات

الآتية من كاميرات المراقبة وأجهزة الأشعة تحت الحمراء فوق صورة القمر الصناعي، الأفراد المعادون يظهرون كنقاط حمر، لا توجد الآن أي نقاط خضر لأن عملاءهم قد عادوا إلى بيوتهم الآمنة، ألفا يرتدي غطاءً للرأس من الصوف الأسود على طريقة شباب الـ «راب»، ذيل حصانه قليل الكثافة يسيل من تحته كشلال هزيل مائل للاحمرار يتراقص فوق كتفيه.

«ألا تلاحظ شيئا غريبا يا عميل «جاما» ؟» يقول دون أن ينظر إليه.

«في أي إطار تقصد؟» يحاول مارتين كسب الوقت حتى يتمكَّن من دراسة الصورة بشكل كامل.

«أقصد عدد الأفراد المتواجدين داخل المبنى... يا أينشتاين».

تستفزُّ مارتين لهجته التهكُّمية.

«هناك ثلاثة أشخاص فقط... وبالأمس كانوا ستة». بجد لا يفهم مارتين ما هي المشكلة، ثم لماذا يحمِّل الرجل كلامه لهجة اللوم؟

يلاحظ أن «ألفا» أعاد صورة «ميكي ماوس» إلى الشاشة اليسرى، هي الصورة المشوَّشة نفسها التي اعتادها منذ سنوات، مأخوذة من البروفيل والهدف متحرِّك، وتحتها بياناته الأساسية:

الاسم: يُعتقد أنه مصطفى محمود قرني.

اسم الشهرة: المخِّيخ.

تاريخ الميلاد: يُعتقد أنه 7 مارس 1955.

الشهادات الدراسية:

- بكالوريوس الهندسة المدنية تخصص خرسانة مسلحة من جامعة القاهرة 1977 بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

- ماجستير هندسة المواد من جامعة القاهرة 1979.

- دكتوراه في المنشآت المقواة من جامعة كيمبريدج 1982.

الحياة الوظيفية:

- مدرس بجامعة القاهرة 1982 - 1987 (يُعتقد).

- أستاذ ثم رئيس لقسم الهندسة الإنشائية بجامعة بغداد 1987 - 1999.

- رئيس لفريق العمل المسئول عن المنشآت المحصَّنة للبرنامج النووي العراقي 1989 - 1992.

محل الإقامة الحالي: لم يستدل بعد.

أقارب على قيد الحياة: لم يستدل بعد.

أصدقاء: لم يستدل بعد.

علاقات نسائية أو جنسية من أي نوع: لم يستدل بعد.

هوايات وأنشطة: لم يستدل بعد.

ممتلكات واستثمارات: له حساب في البنك العربي فرع الدقي - الرصيد الحالي صفر.

كل هذه المعلومات معروفة، لكن لماذا قرر «ألفا» اللعين أن يضعها على الشاشة الآن؟ أيريد أن يذكِّر مارتين بأن الهدف الذي يبحثون عنه اسم شهرته «المخِّيخ» دليلا على عبقريته؟ أم يبلِّغه بشكل غير مباشر أنهم عادوا إلى نقطة البداية وأن كل التقدُّم الذي تحقق في الأيام الأخيرة قد تبدد نهائيا؟

«صحيح... العدد تضاءل... لكن المشكلة أن أحدا لم يغادر المزرعة طوال الليل». يردُّ «ألفا» بحدَّة.

«أنت متأكِّد؟» يتجنَّب مارتين الإيحاء للرجل بأن النعاس ربما غلبه أثناء الليل.

«راجعت التسجيلات بدقَّة... العدد تضاءل من ستة إلى ثلاثة رغم أن أجهزتنا لم ترصد أحدا يغادر المزرعة... هذه حقيقة مؤكدة». يلتقط البدين آخر شريحة من البطاطس ثم يكوِّر الكيس الفارغ ويلقي به فوق الطاولة إلى جوار الكيبورد.

«إذن هناك سرداب يربط بين المزرعة والخارج... يستخدمونه لتجنُّب المراقبة». يتحدَّث مارتين ببطء، بدأ يستوعب حجم المشكلة.

«ملاحظة جيدة... وإن جاءت متأخرة ثلاثة أو أربعة أيام». يطلق العميل «ألفا» ابتسامة صفراء سرعان ما تختفي، يستطرد:

«انظر جيدا..». يشير إلى الشاشة اليمنى التي تظهر صورة القمر الصناعي بالأبيض والأسود، يحرِّك الفأرة ليخفِّض من الـ «زوم» فتظهر المنطقة المحيطة بالمزرعة، ثم يحرِّك المؤشر ويتوقَّف به عند مربَّع صغير إلى جانب درب ترابي مواز للطريق الرئيسي، يعود فيكبِّر الصورة فيتضح أنه كوخ من البمبو... أكيد مخرج النفق بداخله.

«إذن هذه عصابة إجرامية منظَّمة تنظيما جيدا». يقول مارتين بعد فترة صمت.

«صحيح... فالأجهزة الرسمية لا تحتاج لمثل هذه الأساليب عندما تعمل داخل حدود أوطانها».

«على العموم نحن لسنا معنيين بأنشطة العصابة في حد ذاتها... اهتمامنا يقتصر على علاقتها بـ «ميكي ماوس» ». يحاول مارتين أن يقلل من حجم الإخفاق الذي لحق بعملية المراقبة.

«الخلاصة أننا ليس لدينا سجل لتحركات العصابة دخولا وخروجا من المزرعة خلال الأيام الماضية... ولا بد أن يكون «ميكي ماوس» قد استغلَّ هذه الأيام لمسح أي آثار له وإحكام اختبائه». يجزُّ «ألفا» على أسنانه معلنا عن نهاية الحوار.

ينهض الرجل البدين ويتجه إلى سترته الجرباء، يختفي في الممر الموصِّل للشقة الخارجية دون أن ينطق بكلمة، يبدأ مارتين في لمِّ أكياس المأكولات المتناثرة وأكواب القهوة والمشروبات الغازية البلاستيكية الفارغة، يلقيها في سلَّة المهملات في المطبخ ثم يعود بسفنجة مبتلة لينظِّف سطح الطاولة... بجد لا يطيق أن يعمل في مثل هذه المزبلة.

يجلس مطولا وعيناه مركزتان على الشاشات الثلاث العملاقة، لا شيء يحدث، الدنيا هناك في سكون، «المخِّيخ» ينظر إليه بطرف عينه من الشاشة اليسرى، تسمية «المخِّيخ» تذكِّره بفيلم كوميدي قديم اسمه «المخ» بطولة «ديفيد نيفين»، لعب الممثل البريطاني القدير فيه دور زعيم عصابة شديد الذكاء والدهاء، لدرجة أن محققي الشرطة توصلوا إلى أنه لا يمكن أن يكون شخصا ذا ذكاء طبيعي، فأطلقوا عليه لقب «المخ»، بل وحاولوا أن يحسبوا حجم مخ الشخص الذي يمتلك هذا القدر من الذكاء فاستنتجوا أن رأسه لا بد أن يكون أكبر من المعتاد، ومن ثم فإنه سيعاني حتما آلام الرقبة، بل إنه ربما حتى يسير ورأسه محنيٌّ إلى جنب... كم قهقه في طفولته أمام التلفزيون...

لكن اليوم يرى نفسه كواحد من هؤلاء المحققين السذَّج الذي كان «ديفيد نيفين» يسخر منهم...

كان عليه أن يلاحظ أن أحدا لا يغادر المزرعة أو يدخلها، كان عليه أن يحكم استطلاع المنطقة المحيطة، كان عليه ألا يسمح للرجل البدين أن يمسك عليه خطأ بهذا الفدح، يردع الطاولة بكف مرتجفة، نجاح العملية

بأسرها أصبح الآن في الميزان، لا يعنيه كثيرا أن يفلت «ميكي ماوس» من الاغتيال، فهو لم يعد يمثِّل تهديدا كبيرا لأمريكا أو إسرائيل، وفي الأغلب لم يكن يمثِّل مثل هذا التهديد في الماضي، لكن ما يغيظه حقا أن ابن العاهرة «ألفا» هو الذي اكتشف موضوع النفق، وبوقاحته التي أصبحت لا تطاق حمَّله وحده ملامة خطئهما المشترك.

لكن ما علاقة «ميكي ماوس» بهذه العصابة الإجرامية أصلا؟ لا يمكن أن يكون على علاقة مباشرة بها، فلم يُعرف عنه إقامة الصلات مع المنتمين للجريمة المنظمة، إذن هناك حلقة وصل، شخص ما هو الذي ينقل المعلومات بينهما، وهذا الشخص هو مفتاح القضية، هو الذي مكَّن «ميكي ماوس» من الفرار بعد أن أوشكوا على الانقضاض عليه، إن لم يتوصلوا لهذا الشخص لن يتمكنوا من العثور على الهدف وتصفيته، أيكون الكهل ذا القبعة العجيبة؟ أم شخصا آخر أكثر دهاء نجح كل هذه السنوات في التمويه والتخفِّي؟ وكيف ينجح مثل هولاء في الإفلات من رقابة شبكة «إتشيلون» للتجسس التي تسمع دبَّة النملة في أقصى الصحاري وحفيف أجنحة الفراشة في أكثف الغابات؟

يستحضر مارتين هيئة الفتاة الجميلة التي رافقت الهدف في السيارة الباجيرو من تسجيلهم للحدث، يختار الكادر المناسب الذي يظهر فيه وجهها، يجمِّده، يركِّز الصورة على وجهها ثم يضاهيها آليا بالصور المحفوظة في قاعدة البيانات المركزية، تتعدى حجم المعلومات التي تضمُّها هذه القاعدة ما تحويه كل مكتبات العالم مجتمعة، فهي شبكة تجمع الجزء الأكبر من مستودعات المعلومات المعروفة في كافة أنحاء العالم، في بحر ثوان تكون بيانات الفتاة على الشاشة أمامه:

ديدي الشواربي، مصرية.

تاريخ الميلاد: 21 / 11 / 1983 .

المهنة: ممثلة ناشئة.

معلومات أخرى: أخت النجمة السينمائية أحلام الشواربي التي راحت ضحية جريمة قتل عام 1999، ورغم الاهتمام الإعلامي الواسع لم تتمكن السلطات من الاستدلال على الجاني.

«لا... ليست هي العقل المدبِّر». يقول مارتين بصوت مسموع، ثم يستحضر صورة الرجل ذي القبعة.

رغم أن هناك أكثر من كادر يضم وجه الرجل بشكل مباشر يفاجأ مارتين بأن ملامحه لا تظهر في الصورة من تحت قبعته التركية، مكان وجهه عبارة عن هواء أو فراغ، أكيد أن خطأ فنيا حدث أثناء التصوير، أم أن الرجل يوظِّف أساليب تكنولوجية متطورة تحول دون التقاط صورته بأحدث الكاميرات؟ لكن مَن في العالم يمتلك تكنولوجيا أكثر تطورا مما يمتلكون هم؟

يكرر المحاولة... النتيجة نفسها.

الحيرة تتملكه، يعجز تماما عن تفسير هذه الظاهرة.

الشيء الأكيد أن الشعور بعدم الأمان الذي تواجهه الإمبراطورية الأمريكية لم يتضاءل مع النصر الكبير الذي حققته في الحرب الباردة، بل إن الإحساس بالخطر يتضاعف كلما ازدادت مواردهم المالية وإمكاناتهم الفنية، يشبِّه وكالاتهم الأمنية في عقله بالشخص المهووس بالنظافة الذي يكون دوما أول من يمرض، كأن هناك قانونا مطاطا من قوانين الطبيعة يحمي الطرف الأضعف من الانسحاق التام، كأن الكرة الأرضية مثبَّتة فوق جيروسكوب غير مرئي بالغ الدقة والتعقيد يحافظ دائما على توازن الأشياء، أو كأن الحظ يلاعب البشر بسخرية شريرة... وبجد لا يمكن أحدا مهما علا شأنه بأن ينعم بالراحة.

يبتسم مارتين وبشكل تلقائي يبدأ دورا جديدا للـ «فري سيل».

***

الجيزة
مساء الاثنين 15 يناير 2007

«ربنا اداني واحد بلا عقل والتاني بعقلين». صرخت أمه عندما طفح بها الكيل من العيال وسنينهم.

صدمها المشهد عندما دخلت عليهما المطبخ، كان عقيل – أخوه الذي يصغره بعامين – أخرج دجاجة نيئة من الثلاجة وبدأ يقضم وركها الدامي، بينما المخِّيخ – وكان وقتئذ ابن الثانية عشرة – وقف في الركن يبتسم في خسَّة، تنتزع الدجاجة من عقيل ذي الملامح المنغولية ثم تلتفت للمخيخ وتنهره، ملوِّحة بالدجاجة كدليل إثبات للتهمة، فإذا بالطفل العبقري يردُّ بأن العلم الحديث قد أثبت أن الطهو يفقد الأكل جزءا من فوائده، ينطلق عقيل – الذي ولد بداء «داونز» المؤثر على نمو القدرات العقلية – في قهقهة بريئة ممتدَّة... وكانت وقاحة المخِّيخ هذه هي التي دفعت الأم لأن تصرخ عبارتها التي ظلَّت أصداؤها تحيط به للسنوات الأربعين التالية.

يبتسم المخِّيخ وهو يهتزُّ فوق كرسيه الملخلخ أمام شاشة اللابتوب وقد فقد كل اتصال بالواقع المحيط به، لم ينجح أبدا في تعريف تلك الشحنة الكهربية التي تحملها أبسط الكلمات والتي تستطيع أن تزلزل أعتى الرجال، تلك

العبارة التي كررتها الأم مرارا فأصبحت قانونا من قوانين الطبيعة، احتلت موقعا في لاهوت الرياضيات، جنبا إلى جنب مع «الدوديكاهيدرون» رابع الأشكال الهندسية الأفلاطونية، والرقم الذهبي ø، ومعضلة باسكال: $\frac{-1}{1}$ هل يساوي $\frac{1}{-1}$ ؟

لكن الأم لم تردد عبارتها أبدا خارج نطاق الأسرة، بالضبط، فقد استوعب المخِّيخ منذ طفولته المبكِّرة أن عقيل أكثر أسرارهم حساسية، بيد أن مقولة الأم فتحت نافذة خطيرة داخل عقل المخِّيخ المتوهِّج دوما، تسرَّبت الهواجس من خلالها إلى نفسه اليانعة، فلم يعرف إن كانت تعبِّر عن الرضا لأن الله عوَّض نقص ذكاء الابن الأصغر برجاحة عقل الأكبر، أم الشكوى من أن الحظ ابتلاها بطفلين معيبين مع اختلاف علَّة كل منهما.

فلتقصد الأم ما تشاء، المهم أنه كان هو - على الأقل - الابن الرسمي الذي لا يتحرَّج الأبوان من إظهاره أمام الناس، تلك الوضعية التي تتعدى في قيمتها كل حنان الدنيا، فهو موجود مسجَّل معترف به، ليس شبحا من أشباح الحياة الذين تمتلئ بهم البيوت، نادرا ما يسيرون في الشوارع وحينئذ حتى لا يلتفت إليهم أحد، يعيشون ويموتون ولا حسَّ لهم ولا خبر، وبالضبط ما جدوى العطف الذي أغدقه الأبوان على عقيل المسكين إن كانا يشعران بالحرج من مجرَّد وجوده على وجه الأرض؟

لا يتحمَّل المخِّيخ أن يضغط على زرِّ تشغيل الكمبيوتر، حياته مع فتاة الحلوى تُعدُّ بلا شك مصدر السعادة الحقيقية الوحيدة التي عرفها، لكن ما تطلبه منه قاس على النفس، ليس - ليكن أمينا مع نفسه - بسبب إصرارها على شكل جديد من العلاقات أكثر تحررا مما كان يمكن لأبويه - رحمهما الله - أن يستوعبا، لكن لاعتبارها بذلك أن العالم الموازي يختلف جوهريا

عن الواقع، فهو ليس وجودا مكتمل الأركان بل شكل من أشكال اللهو، فيديوجيم... الجديد فيه أنه يسمح بنمو العلاقات الاجتماعية والعاطفية بين اللاعبين، على نقيض العالم البديل الذي يبحث عنه المخِّيخ، البُعد الذي لا يقلُّ في واقعيته عن العالم الذي انتمى إليه صدِّام حسين وجورج بوش والفاتنة ديدي وعقيل الأهطل وأمُّه الأنيقة... والـ«موساد» والـ «سي آي إيه» وبيت الدعارة والشعوذة الذي اتخذه مخبأ له... والحي العشوائي الذي يحتمي به هو والملايين غيره.

يخرج زهرتيه لا شعوريا من جيبه ويلقيهما على الطاولة، يتوقَّع...لا... يتمنى...لا... بالضبط يراهن – فلنسمِّ الأشياء بمسمياتها – على دبش أي خمستين...

يووووه... «دو يَك»... أتعس الأرقام.

يسترجع تعبير الاشمئزاز الذي ارتسم على وجه أبيه كلما أتى الزهر له بـ «دو يَك» في القهوة، لم يدرك المخِّيخ قبل هذه اللحظة – وهو معلَّق في هذا المكان السريالي بين واقع لا يطاق وعالم افتراضي يرفض أن يتجسَّد... متأرجحا بين الحياة والموت – كم أحب هذا الرجل رغم الهوة العاطفية التي فصلت بينهما حتى آخر أيامه... الحاجز الذي طالما أرجعه المخِّيخ إلى تلك المرارة التي ملأت نفس الأب حتى فاضت، ففرَّقت الرجل عن باقي أبناء الجنس البشري بما فيهم ابنه الأكبر – ربما باستثناء عقيل الذي أكسبه الهطل عطفا لم يمنحه الرجل لسواه.

يقدح المخِّيخ ذهنه ليتذكَّر إن كان أبوه أفصح يوما عن الظلم الذي وقع عليه أو حدد من هو الظالم، فلا يعثر في خزينة ذكرياته على واقعة واحدة بهذا المعنى، كان الرجل دائم الشكوى لكن مصدر التنغيص لم يتعدَّ أبدا التفاهات، بالضبط، كان موظفا في مصلحة المساحة، موظفًا كسائر الموظفين،

تشغله إهانات ثانوية مثل تأشير وكيل الوزارة على مذكرته بالحبر الأحمر بدلا من الأزرق، أو بقاء أحد مرءوسيه جالسا عند دخوله عليه المكتب، أو تأخُّر الساعي في إحضار شاي الصباح، لكن قضايا حياته الرئيسية بدت – للمخيخ الشاب على الأقل – إيجابية بصفة عامة، فالرجل الذي بدأ حياته مسَّاحا في المنوفية ترقَّى وانتقل للقاهرة حتى وصل به الأمر أن اعتبر نفسه أفضل من ألف مهندس، ولكن بدلا من أن يحمد ربه على حاله الذي تبدَّل – من الغوص اليومي في الطين لرسم حدود الأملاك الزراعية، إلى الجلوس وراء المكتب لاعتماد المستندات – ظلَّ يردد يوما بعد يوم: «صحيح بلد شهادات، لا تحترم لا العقول ولا الكفاءات».

لم يفهم المخِّيخ أبدا ما سرُّ سخط أبيه على العالم بالضبط... لكن كيف لا يكنُّ للرجل كل إعجاب وإجلال؟

فبذكائه وإصراره كسر الحلقة المفرَّغة التي شكلتها أجيال متتالية من الفلاحين الأجراء الذين لم يعرفوا لآلاف السنين غير الطين والبلهارسيا والجلابيب الزرقاء بلون النيلة، وانتقل بأولاده إلى طبقة الأفندية والعلماء، صحيح أن الرجل قضى عمره يتحدَّى العالم بشتى الطرق بما في ذلك الظهور أمام الناس «بالفنيلة والكلوت»، لكنه وقت اللزوم تفهَّم هواجس امرأته ولم يتردد في إعفائها من مهمة ثقلت على قلبها.

يرتجُّ العالم بعنف من حول المخِّيخ، يفيق من تأملاته على مراحل، بعد وهلة يتيقن أن الصوت مصدره طرقات عنيفة على الباب، أتكون الشرطة أتت للقبض عليه بعد أن انضمَّ إلى طابور الدجَّالين الذي ملأ البلد، أم أن عملاء الأعداء توصلوا إلى مخبئه؟ ثم يأتي إلى أسماعه الصوت النسائي الذي بدأ يألفه رغم كل مآخذه على صاحبته.

«يا سيدنا الشيخ... يا حضرة الشاعر... افتح بقى يا جِنتِل... ده نفَسي انقطع». صوت كوندوليزا به اضطراب غير مألوف.

ما أن يفتح الباب حتى تندفع إلى داخل الغرفة، تستلقي في إرهاق واضح على الفراش، يتجمَّد المخِّيخ في مكانه، دخولها الغرفة يدلُّ على أن مصيبة وقعت، لا يجرؤ أن يغلق الباب عليها، لكنه يخشى أن يكون شخصا ما يتعقبها، فماذا لو كانت سلامتها تتطلب الاحتماء وراء الباب؟

تجهش بالبكاء فجأة، ملَّة السرير المترهِّلة تصدر صليلا متقطعا مع رعشاتها، تشير له بيدها أن يغلق الباب.

بعد إحكام الباب بالمزلاج يأخذ خطوة تلقائية نحوها، يريد أن يحتضنها حتى يخفف من روعها، لكن يتردد، يخشى أن تسيء فهمه، فقبولها أن يُغلق الباب عليها هو بمثابة تنازل كبير عن مبادئها ما كانت تقدم عليه لولا الشديد القوي، بالضبط، ثم إن مشهدها على هذه الحال قد وتَّره لحد لم يعد قادرا معه على طمأنة أحد، الأفكار السوداوية تتلاحق في ذهنه بلا رقيب، أتكون نهايته على يد القوادين والمحتالين في موقع من المدينة لا تعترف الدولة بوجوده أصلا؟ ثم ماذا عن ديدي... ماذا سيكون مصيرها بعد أن أصبح هو أملها الوحيد للنجاة؟

والأهم من هذا وذاك فتاة الحلوى... لا يطيق مجرَّد التفكير في احتمال ألا يراها مرَّة أخرى.

يعترف المخِّيخ في نفسه أن تبدد الهدوء الذي توصَّل إليه بعد سنوات من المعاناة أشدُّ إزعاجا بالنسبة له عن أي تهديد مباشر على حياته، الفوضى تنتصر في النهاية، الإنتروبي سيغرق الكون حتما... بالضبط... قد نجحت الضوضاء في اختراق وحدته، وفجأة أصبح كل شيء على كفِّ عفريت.

بصعوبة يتمالك نفسه، يتَّجه إلى برَّاد الشاي، فقد أصبح كوب الشاي حلقة الوصل الرئيسية بينه وبين كوندوليزا، لكن رغم الصلة التي تتوطد

بينهما يوما بعد يوم هو لا يزال محروما من استشفاف حالتها النفسية من تعبيرات وجهها، للمرَّة الألف يلعن النقاب وسنينه.

يناولها الكوب الساخن، تتوقف عن النهنهة، تأثير الشاي أكيد، تضع الكوب على البلاط، مذاق الشاي أبلغ من عبارات الطمأنة، لسعته على لسانه تهدئ من روعه هو الآخر، يلاحظ المخِّيخ بقعًا حمراء لامعة فوق البلاط على طول خط سيرها... بقع دم... كوندوليزا تنزف، الأحرى أنها لا تزال تنزف وهي جالسة أمامه، يمتزج لمعان الدم برائحة الهورمونات التي تفوح منها كالمعتاد، لكنها اليوم بلون جديد، عبق الخوف والغضب يطفو فوق أمواج عطرها الحسي الرخيص.

«عمل فيكي إيه ابن المفترية؟» يهمس.

يرتجف، قد زوَّجها هو منذ قليل لزبون مدكوك في منتصف العمر – تاجر حديد من بولاق – زوَّجهما على طريقته الخاصة التي ابتكرها... في البداية أمسك كف كوندوليزا في يده اليسرى ويد الزبون في اليمنى، وجد كف الرجل غليظا في خشونة أسياخ التسليح التي يتعامل معها كل يوم، ثم سأل الزبون بلغة فصحى عن المدَّة التي يطلب الزواج خلالها، اختار الرجل ساعة كاملة على عكس غالبية الزبائن الذين يكتفون بنصف الساعة، ثم التفت المخِّيخ لشريكته العاهرة وسألها عن المهر ومؤخر الصداق الذي ترتضيه لهذه المدة، فطلبت مائة لحلوح بالتمام والكمان، وعندما أومأ الزبون بالقبول – وقد بدا على وجهه هياج الثيران واندفاعها – طلب المخِّيخ أن ينظر في ساعته ويحدد الوقت بالدقيقة والثانية، ثم أعلن أنه قد زوجهما بالضبط حتى الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة وأربعين ثانية من مساء الاثنين 15 يناير 2007، شعر المخِّيخ بحد أدنى من الارتياح لأنه تجنَّب استخدام الآيات القرآنية خلال الطقس كله... فلم يصل بعد في رحلة هبوطه إلى القاع...

«الحمد لله إن وشي مستخبي وما حدش شايف الكدمات... قال لي هو احنا مش متجوزين...؟ الرجالة بقى بتعمل كده في مراتاتها... » تتكلم بهدوء ثم ترتشف الشاي بطريقتها المضحكة من تحت النقاب.

«المجرم». يردُّ همسا.

«هو ده صحيح يا حضرة الشاعر؟» تمسك كوب الشاي بين كفيها كأنها تبحث عن الدفء في هذا الكون الذي يبثُّ البرودة من كل ركن.

ألا تعلمين يا حاجة كوندوليزا أن درجة حرارة الكون تقترب في المتوسط من الصفر المطلق؟

«عمري ما اتجوزت..». يردُّ في شرود، يقاوم أن يتخيَّل المشهد البشع الذي تصفه هكذا بكل هدوء، المشكلة أنه أصبح شريكا في الجريمة، لم يعد يستطيع أن يلقي اللوم في كل اتجاه، أن يحتمي بإدانة الآخرين... ولا أن يدَّعي أن الموضوع برمَّته لا يخصُّه.

«ده والله توماتش يا ناس». تدعك فخذيها بكفيها كما تفعل الفلاحات.

تمرُّ ابتسامة خاطفة على شفتيه، استخدامها العفوي للإنجليزية به لمحة كوميديا، أكيد الخواجة شيكسبير يتدور الآن في تربته، ثم تعود كآبة الموقف لتفرض نفسها عليه.

«مش تشوفيلك شغلانة في الحلال بدل البهدلة دي». يقول بزهق.

«كل اللي بنعمله ده وبرضك مش حلال؟» في صوتها نبرة لوم... أم استجداء؟

لم يعد يفهم إن كانت كوندوليزا في منتهى السذاجة أم قمة الدهاء، صحيح أنهما أصبحا يطلقان على نشاطها «زواج المتعة» لكن الجميع يعلم أنه دعارة تحت مسمى آخر.

«انتي عارفة كويس إن ده زنا وستين زنا». ينهرها كأنه بريء مما تفعله، كأنه لا يتحمَّل أدنى مسئولية.

«نُص مصر بتتجوز بالطريقة دي يا شاعر». تصرخ في وجهه.

«ده ما يخليش الغلط صح». يردُّ بحزم.

«نُص العمى ولا العمى كله». تتجنب النظر في عينيه.

«يا بنت الحلال تشوفيلك شغلانة شريفة... وانتي بالذات شاطرة في قص الشعر... ولا حد يهينك... ولا حد يعمل فيكي العمايل دي... وبعدين يعني... بدل اللبس اللي مخليكي عاملة زي امنا الغولة..». أخيرا يخرج المخِّيخ الكلام الذي احتبس في نفسه منذ سنوات.

«اوعى تكون يا جِنتِل من الجماعة بتوع التيار العلماني المتطرف اللي الشيخ بيدعي عليهم كل يوم جمعة».

ينطلق المخِّيخ ضاحكا، يريد أن يقول لها «أنا علماني متصوِّف مش متطرِّف»، لكن صمتها التام يعيده لبشاعة الموقف، يسكت، تستطرد هي:

«يعني حضرتك عاوزني ابقى زي البنات اللي ماشيين لي في الشارع كاشفين شعرهم ولابسين المحزق؟ انت عارف إن بيتحسب عليهم سيئة عن كل نظرة من كل راجل ماشي في الشارع...؟ ده يطلع كام سيئة في الدقيقة يا جنتل... والا في الساعة... والا في اليوم... والا في الشهر... والا في السنة... والا في العمر كله؟»

لا يدري المخِّيخ كيف يردُّ على هذا المنطق، يبهره استعانتها بالحساب للتقليل من حجم خطيئتها مقارنة بالنساء العاديات، بهذه الحسبة تكون هي أقل إثما من أشرف النساء ما دمن سافرات، بالضبط، إذن كوندوليزا أيضا تستهويها لغة الأرقام، يدرك أنه مهما قال وأعاد لن ينجح في زحزحة

قناعتها الراسخة ولو ملليمتر، فسحر الأرقام يفتن دوما العقل البشري، يصدمه مدى تغلغل علم الرياضيات في النفس البشرية حتى عندما يتعلَّق الأمر بفهم العامة للدين، فها هي قد اختزلت الدين في نظام محاسبي توظِّفه لتعظيم المكاسب والحد من الخسارة.

بعد فترة تكسر كوندوليزا حاجز الصمت:

«النقاب اللي انت عاوزني اتخلى عنه بيوفر لي حبة أمان انا محتاجاهم أكتر من أي شيء..»، ثم تستطرد:

«انت مش فاهم... اللي حصل انهارده عادي جدا... واحدة زيي من سن اتناشر سنة الرجالة بتنتهكها... مش بس الذل والإهانة وإحساس ان حتى جسم الواحدة مش ملكها... لكن الأخطر ان ما فيش حد يحميك... ما فيش أمان... نفسي يا حضرة الشاعر أشعر بالأمان ولو لخمس دقايق في العمر كله».

المخِّيخ لا يعلِّق، هو في الواقع لا يعرف شيئا عن الجنس والفظاعات التي تدفع الرغبة الناس إليها، قد أعفاه تكوينه الفسيولوجي من هذه النعمة اللعينة، اختلال هرموني طبقا للأطباء، يتذكَّر سهرات الشلّة أيام الشباب في شقة مفروشة أطلقوا عليها «المنطاد»، بينما جلجلت الضحكات وغيَّمت على الجالسين سحابة عطرة من الدخان الأزرق، كان يتأمل في ذهول تلك الطاقة الجنسية الهائلة التي سيَّرت رفاقه، سيطرت على أحاديثهم وتصرفاتهم، تملَّكتهم أحيانا وأعمتهم تماما، حتى التيار الديني المتطرف الذي أخذ يتبلور خلال تلك الفترة كان محرِّكه أيضا رغبة حيوانية ... قوة الكبت الجنسي، أما هو فقد أعفي من كل هذا العبث، تحرر منه، فأصبح قادرا على الرؤية الموضوعية للأمور، أتكون هذه عبقرية أم لعنة ستلصق به مدى الحياة...؟ لا يدري.

«محتاجة دكتور؟»

لامها بدلا من أن يهبَّ لمساعدتها، الخجل يأكل وجهه.

تتجاهل سؤاله، نظرها مركَّز على نقطة ما في الحائط، حفرة سطحية تقشَّر الجير عنها وبان من تحتها البياض الأساسي قبيحا أسمنتي اللون، لا يعرف إن كانت سمعته أصلا، بعد فترة تتكلم:

«ابن عمي اغتصبني لما كان عندي اتناشر سنة... ما قدرتش أفتح بُقي... أقول إيه لأهلي وللناس؟ أفضح نفسي بنفسي يعني...؟ على أي حال كان أبويا حيطلّع الغلط علياّ برضك... أنا اللي كان حيبقى مصيري أترمي في بير الساقية... عشت مرعوبة... مدمّرة يعني... لما تمِّيت أربعتاشر سنة... هربت».

تميل كوندوليزا للأمام وترفع كوب الشاي لتأخذ رشفتها الأخيرة منه قبل سُمك التِّفل الذي غطى القاع، كأنها تروي قصة طريفة حدثت لها ذات يوم أو خبرا قرأته في الصحف يخص شخصا مجهولا، يشعر المخِّيخ بتنميل في قدمه اليسرى تحت الحذاء الذي لا يخلعه إلا قبل أن يدخل الفراش، الكلمات لا تسعفه، كيف يجرؤ أن يصدر الأحكام الأخلاقية على كوندوليزا وغيرها بينما هو لا ينتمي لعالمهم أصلا؟

شجار حاد يتفجر بين رجلين في إحدى البنايات المجاورة، حوائط هذه المباني المكتظة بالبشر مثل ورق البفتة، لا أسرار هنا ولا خصوصية، بالضبط، صوت حريمي يصرخ «عيب يا مرسي دا ابوك»، السباب يتطاير كرذاذ رشاش يروي النجيل في حديقة عامة، عويل الأطفال يأتي إليه من أكثر من اتجاه، كوكتيل الأصوات المنبعثة من ألف تلفزيون تحاصر المخِّيخ، تتخلل الجميع كأشعة المايكروويف الكونية، تشكك في ثبات الحقائق، وتعطي

الناس ذريعة لإنكار ما سمعه الجيران عن فضائحهم... ألم يختلط الأمر على السامع...؟ أليس ما سمعه مشهد ساخن في أحد المسلسلات؟

«أنا ما بقيتش فاهم حاجة خالص... الإنسان المصري بيتصرف بالشكل ده ليه؟» المخِّيخ يهز رأسه.

«انت عمرك ما حتفهم الإنسان المصري بيعمل اللي بيعمله ليه غير لما تعرف ان احنا شعب بنجلد الضحية ونمجِّد المجرم..». هي طفلة في الواقع، لكن تتحدث بحكمة ألف كهل، أين وجدت هذه الرؤية الثاقبة التي يفتقدها غالبية المثقفين...؟ إعجابه بهذه الشابة المسكينة يتعاظم فجأة.

«تحبي تريحي شوية هنا؟» يسألها دون تفكير، ثم يستطرد قبل أن تسيء فهمه:

«أنا مش حيجيلي نوم الليلة دي».

لا تردُّ، تنهض فجأة، تفتح الباب، أتكون أخذت على خاطرها؟ لكن بدلا من أن تتجه يمينا نحو السلّم، تذهب إلى الدلو الذي يستخدمه كمرحاض ويتركه معظم الوقت في الهواء الطلق، يشعر بحرج لأنه ليس على درجة النظافة التي يرتضيها، جدران غرفته كالحة دهانها الأزرق السماوي مزركش بالبقع والخدوش والحفر، اللمبة الحزينة المدلاة بسلك من السقف بالكاد تخدش الظلام تاركة الغرفة مرتعا للأشباح والظلال، سرسوب هواء بارد متسرِّب من النافذة غير المحكمة يلسع المخِّيخ في قفاه، الفضاء الذي يفصل ما بين الجدران والسقف والأرضية المبلطة الجرباء يتقلص من حوله، الدنيا كلها تطبق عليه، غرفته تحوَّلت بقدرة قادر من ملاذ آمن إلى سجن منيع لا خروج منه إلا لمسيرة القبر الأخيرة.

بعد وهلة تظهر في حلق الباب.

«انت مش كان وراك شغل على الكمبيوتر؟»

يذهله سؤالها.

«علشان أنا كمان آخد راحتي». توضِّح.

يجلس المخِّيخ على كرسيه معطيا ظهره إياها، صليل الملَّة الصدئة يؤكد أنها ستقضي الليلة هنا، يلعن سذاجته التي دفعته ليعرض عليها البقاء، قصَّتُها... وجودها في حد ذاته يمثِّل لغزا، عبئا نفسيا لم يعد يحتمله.

الاختناق... حتى الهواء يكاد ينفد، صوت أجش يأتي إليه من بعيد، نبرات خلَّدها تسجيل صوتي حفظه الصندوق الأسود لآخر لحظات العبَّارة المنكوبة، السلام 98، كلمات تأتي إليه من أعماق البحر الأحمر «المركب بتغرق يا قبطان» يضغط المخِّيخ أزرار الكيبورد وتتفتح الدنيا أمامه على الشاشة الزرقاء الصافية، يرمي زهرتيه العاج على الطاولة ثلاث مرَّات في انتظار ظهور هيئتها الشهية، ثم يأخذ نفسا عميقا مع بداية انتظام نبضات قلبه.

وفجأة تتبدد الهموم والمخاوف... الإخفاقات وأوجاع الضمير... الإذلالات الشخصية وانهزامات الأوطان... تنقشع كلها مع أول نظرة إلكترونية من عيني فتاة الحلوى.

***

الفصل الثامن

الجيزة
فجر الثلاثاء 16 يناير 2007

فتاة الحلوى قالت: هاي مفتول... وحشتني... لا تتصور كم افتقدتك خلال الأسبوع الماضي... هل تدرك أن هذه أول مرَة نفترق فيها لأكثر من بضع ساعات منذ التقينا قبل عامين؟

هي مستلقية على الشيزلونج في وضعها المألوف، شعرها البرتقالي منسدل على ثدييها ليضاعفهما إثارة، هيئتها الإلكترونية مثالية في مقاييسها، لكن الأهم أنها أبدية، بالضبط، لا تشيخ ولا تمرض، في هذا المكان لا يعرف البشر الخوف أو التوتر أو الجوع أو التخمة أو التلبُّك المعوي، هنا الاستقرار وثبات الأمور... حتى لو كانت الحياة من أساسها وهما.

أنت قلت: كنت أتوق إليك في كل لحظة... فقبح العالم الخارجي يتضاعف يوما بعد يوم... المهم ألا نسمح لمثل هذه التفاهات أن تفرّق بيننا ثانية.

يندهش المخِّيخ من عبارته الأخيرة التي دقَّها على الكيبورد في شرود، لم يقل لها عفوت عنك رغم خيانتك الوقحة، ولم يتظاهر أنه ربما أساء الفهم حيث إن الخيانة لم تحدث أصلا، إنما أقرَّ بأن الخيانة في حدِّ ذاتها لا تعدو

كونها مجرَّد «تفاهات»، تحوُّله جاء جذريا ومفاجئا... حتى بالنسبة له، قد كوَته قسوة الحياة، فأصبح أكثر تفتُّحا من المنفتحين، تماما مثلما حدث لجيرانه وأقرانه من سكان العشوائيات.

فتاة الحلوى قالت: كنت متأكدة أنك ستتفهم... تريد أن ترقص؟

أنت قلت: الرقص فكرة لذيذة... لكن أريد أن نتوقف عند المزلق المائي في طريقنا إلى الملهى.

ينهض الـ «أفاتاران» ويتجهان إلى الخارج، يسيران جنبا إلى جنب في الساحة العامة، أزواج آخرون يتنزهون حول الفسقية التي تتوسط الساحة، تظهر الشاشة مقتطفات من أحاديثهم قبل أن يختفوا خارج نطاقها، عامل نظافة يكنس بهمة رغم أن الرخام الرمادي لا تشوبه ذرَّة تراب، فوق رأسه تحوم بأحرف صغيرة عدد الوحدات النقدية التي كسبها حتى الآن، لا يحدِّث أحدا ولا أحد يحدِّثه.

أنت قلت: الواحد وحده يقترب من الصفر بينما الاثنان معا يقتربان من ما لا نهاية.

فتاة الحلوى قالت: أحبك عندما تقحم لغة الرياضيات في شئون الحياة العادية... أنت تعلم كم أحترم الرجل الذكي.

أنت قلت: أكيد نحن متوافقان عقليا... بجانب توافقنا الجسدي بطبيعة الحال.

فتاة الحلوى قالت: كم استمتعت بأحاديثك السابقة عن أسرار الأهرامات، لو لم أعرف أنك بطل للملاكمة لتصورت أنك مدرّس للحساب... أو ربما عالِم في الفيزياء.

يضغط المخِّيخ على علامة الضحك الصاخب، فتقهقه هيئة «مفتول العضال» الإلكترونية وتهتزُّ بشدَّة.

أنت قلت: عالِم في الفيزياء... هذه فكاهة طريفة... أتعلمين أنني تشاجرت مع ثلاثة شبان مساء أمس...؟ الأول كسرت له ثلاثة أضلع والثاني طيَّرت أسنانه الأمامية أما الثالث... المسكين أصبته بارتجاج في المخ ونقل للمستشفى في غيبوبة.

فتاة الحلوى قالت: أوه... كلامك كم هو مثير... سوف أختصك بسرٍّ يا «مفتول العضال»... الشيء الوحيد الذي يثير شهواتي أكثر من أحاديثك العلمية... قصص مشاجراتك مع الأشقياء... لكن ما هي ملابسات مشاجرة الأمس؟

أنت قلت: كنت عائدا للمنزل بعد سهرة صاخبة في الملهى الليلي المفضل لدي – كباريه القط الأسود – كانت الساعة الرابعة صباحا تقريبا... وحتى أختصر المسافة إلى مكان توقف سيارتي الـ «لامبورجيني» مررت من خلال زقاق مظلم... ففوجئت بثلاثة من الأشقياء يتعرضون لفتاة كانت تسير وحدها أمامي... لا أدري ما هو المصير الذي كان ينتظر الفتاة لو لم يتصادف ظهوري في تلك اللحظة... المهم أنني لقنت الأشقياء الثلاثة درسا لن ينسوه مدى الحياة.

يضغط المخِّيخ على علامة الضحك المعتدل تأكيدا للثقة في النفس.

فتاة الحلوى قالت: أوه... أنت دائما بطلي... أتريد أن نفتح شباكا خاصًا بنا لـ «تشات»؟

أنت قلت: فكرة جيدة... لكن كما اتفقنا نكتفي بالرسائل المكتوبة.

أكثر ما يرعب المخِّيخ أن تطلب منه تبادل الصور الفوتوغرافية أو الحوار معه بالصوت والصورة، لكنها حتى الآن لم تطلب شيئا من هذا القبيل.

ينفتح شباك الحوار وتتجمَّد هيئتاهما الإلكترونيتان، لا يستريح المخِّيخ لهذه الوسيلة رغم الخصوصية التي تتيحها لأنها تخرجه جزئيا من العالم الافتراضي الذي يفضِّله، يعقد العزم على إنهاء هذا الحوار بأسرع ما يمكن.

فتاة الحلوى قالت: هل تعلم أنني كنت أجرِّب الملابس التي سأستخدمها في عرض الغد...؟ لذلك فأنا أرتدي الآن قميص النوم الـ «بيبي دول» على اللحم مباشرة.

تأخذه عبارتها على غرَّة، فهي لم تعد تتحدث بوصفها دمية إلكترونية، بل هي تشير إلى جسدها المادي في موقعها المحدد – أينما كان – على سطح الكرة الأرضية، هذه مرحلة جديدة في علاقتهما لم يتطرقا إليها من قبل، يغلق عينيه للحظة خاطفة ليتخيَّل هيئتها.

أنت قلت: أكاد أراكِ أمامي.

فتاة الحلوى قالت: أريدك أن تتحسس جلدي... تمر على فخذي بأناملك وهو في ملمس الزبد الساخن...

أنت قلت: أعرف جيدا أنك عارضة أزياء وأن تخصصك عرض الـ «لانجري»... لكن جمالك الذي أراه بعين خيالي يفوق كل وصف.

فتاة الحلوى قالت: دعني أتحسس عضلاتك... يوه... ذراعك كالصلب.

ترن ضحكات فتاة الحلوى في أذني المخِّيخ، لا يدري إلى أين سيأخذه هذا الموقف، هو الذي لم يعرف الرغبة الجنسية في حياته أصلا، لكنه يشعر بنشوة غير مألوفة تتخلله، بالضبط، يمرُّ بمغامرة لذيذة وإن كانت غير مضمونة العواقب، يسمح للتيار أن يجرفه.

أنت قلت: كما تعلمين أنا أقضي على الأقل ثلاث ساعات يوميا في الـ «جيم».

الضحكات النسائية شلال حسّي ممتد يتصاعد من حوله، أتنجح الفتاة الافتراضية في إيقاظ شهواته رغم غياب الهرمونات عن جسده؟

«انت بتعمل إيه يا حضرة الشاعر؟»

صداع حاد يفاجئ المخِّيخ، يشعر أن رأسه سينشطر في أي لحظة.

«انت بتعمل إيه يا جِنتِل؟»

كقبضة فولاذية لا تعرف الرحمة يجذبه صوت العاهرة إلى واقع قبيح كم حاول الإفلات منه.

***

الجيزة
صباح الثلاثاء 16 يناير 2007

«ما عندكش راديو...؟ بموت في أغاني عبد الحليم وشادية وفايزة أحمد عالريق». النعاس لا يزال عالقا في عيني كوندوليزا.

تجلس متربِّعة على السرير في جلبابها الأسود الفضفاض سافرة الوجه والشعر، تقاطيع وجهها مسمسمة بها براءة طفولية رغم ورم وازرقاق يكاد يلتهم خدَّها أسفل العين اليسرى، شعرها منتصب كخيوط الإسباجتي اليابسة بفعل كريم فرد الشعر، تدعك عينها بيد لا تزال مغلَّفة بقفازها الصوف الأسود.

يبتسم المخِّيخ تلقائيا ويعتذر بهزِّ رأسه.

«أحسن برضك... الشيخ الورور بيقول إن الغنا قرآن الشيطان».

يلاحظ أن نعاسها قد تبدد، جبينها الشاب أخذ يتموَّج في تجاعيد لحظية، وحاجباها (المنتوفان) انقضبا في تركيز شديد، يقرر أنها لم تكن تمزح بل هي جادة فيما تنقله عن شيخها الشاب فيؤثر الصمت.

فاجأته كوندوليزا منذ قليل وهو جالس أمام اللابتوب يثني ذراعه النحيلة لإبراز عضلات غير موجودة أصلا، تساءل – في ارتباكه الأوَّل – إن

كان سفورها في حضوره حدث سهوا، فربما لا تكون أفاقت تماما من النوم، وسوف تنفجر كالثور الهائج عندما تدرك ما حدث، فكاد ينبهها، لكنه شعر بنشوة مفقودة لمراقبة تعبيرات وجهها واستنباط تحوُّلات مزاجها المفاجئة كأنها تتأثر بعوامل جوية لم يفك العلم بعد طلاسمها، شعر بحنين للحديث معها كما يتحدَّث الناس إلى بعضهم، ففضَّل المخاطرة بردِّ فعلها الغاضب على عودة الساتر المعنوي بينهما.

لكن مع اكتمال استيقاظها يتيقن أنها مدركة تماما لما تفعل، يحاول تفسير هذا التبذُّل المفاجئ في مسلكها، أولا بدخول غرفته، فقضاء الليلة على سريره، ثم الآن بالكشف عن وجهها وشعرها، فيرتاب في نواياها... أتكون مقدمات لمحاولة استغواء جنسية جديدة؟

«تشربي شاي؟» يطرح السؤال الذي يلجأ إليه عندما لا تسعفه الكلمات معها.

عموما لا خطر عليه من الإغواء، نسب التستوستيرون المتضائلة في شرايينه حصَّنته ضد كل رغبة جسدية، بالضبط، أو ربما تكون قصة التستوستيرون هذه خدعة كبرى، قشرة من المصطلحات الطبية لا تصف الحالة إلا في ظاهرها، عرَض لمرض نفسي أعمق وأعتى في قبضته من نقص هذا الهرمون أو ذاك، لعل ذكورة أبيه المبالغ فيها لحد العدوانية هي أسُّ المشكلة، لعل اشمئزازه من خروج الرجل إلى البلكونة بملابسه الداخلية تعدَّى في أسبابه الخجل من كلام الناس، لعل عقله الصغير ارتاب من الأصوات المقلقة التي كانت تتسرَّب عبر باب غرفة والديه المغلق، واستشعر فيما كان يحدث في الخفاء شيئا مخيفا منفِّرا، فآثر الاختباء في جحر العذرية مدى الحياة، مَن يعلم ماذا يدور في دفائن النفوس... وعلى الأخص في مراحل التكوين الأولى؟ بالضبط، من يستطيع أن يحدد ما هي التفصيلة الصغيرة التي سوف تُطبع في اللاوعي وتشكِّل شخصية الطفل مدى الحياة؟

يخطر بباله وهو يضع البرَّاد فوق النار أن مصائر الناس بل ومسارات التاريخ لا تعدو كونها تطبيقات مباشرة لقانون الاحتمالات، رميات للزهر الذي يحمله في جيبه، فلو كان أبوه أكثر حياء لربما نشأ كباقي الشبان يقضي تسعا وتسعين في المئة من وقته يفكِّر في المسائل الجنسية، ولو كان الخلل الهرموني أصابه بشكل مختلف – من خلال اضطراب في أداء الغدة الدرقية على سبيل المثال – لأصبح عملاقا، يبتسم ويحمد الله على علَّته المخففة، فلو طفح التستوستيرون على عقله لأغرق أي بوادر للعبقرية، ولو نشأ هو عملاقا لاستحال الاختباء من مطارديه اليوم في هذا الخُن.

بعد أن يناولها الكوب الساخن يجد أنه لا يستطيع مقاومة الرغبة في رمي الزهر، لكن ما أن يطلق الزهرتين فوق الطاولة الإيديال حتى يسحبهما بحركة عصبية، يعيدهما إلى جيبه دون أن يتحقق من النتيجة التي اختارها الحظ له.

«عمرك رحت هلفتيا؟» تفاجئه كوندوليزا بسؤالها، يفهم أنها تقصد سويسرا، لكن لماذا تستخدم هذا الاسم العتيق؟

«ما كانش ليّا حظ».

«أمال زرت إيه من بلاد برَّه؟»

«إنجلترا». يتساءل عما ترمي إليه بسؤالها.

«هايل..». تتفتَّح أساريرها في حماس طفولي: «تبقى قابلت الملكة بسبس؟»

«الملكة بسبس؟» ينطلق ضاحكا.

«الست الجميلة اللي صورتها على كل الطوابع الإنجليزي بالتاج بتاعها».

«وانتي بيجيلك جوابات كتيرة من إنجلترا؟»

«لا طبعا... إش جاب لجاب». يبدو عليها الحرج، تستطرد:

«أولاد الحلال بيجيبولي الطوابع... زي ما تقول كده... بحب الطوابع قوي... يعني كأني بسافر لكل الدنيا وأنا محبوسة في الشق ده».

كوندوليزا إذن تهوى جمع الطوابع... شيء لا يمكن تصوُّره.

يتساءل عن رأي الشيخ الورور في هواية جمع الطوابع... أيعتبرها بدعة وكل بدعة من الشيطان؟

لكن لا يقول لها شيئا...

لا بد أنها هي أيضا في أشد الحاجة إلى علاقة إنسانية مع شخص ما، بعيدة عن الجنس الرخيص مع زبائنها – أو أزواجها طبقا لما تحاول أن تقنع نفسها به – أو علاقة الاستغلال المتبادل مع الست الطيّبة، لماذا إذن لا تبحث عن شخص تفضفض إليه أو ببساطة تثرثر معه كما يفعل الناس؟

«شعورك إيه لما بتكلميني من ورا الخمار؟»

انصبَّ اهتمامه في الماضي على موقفه هو من ارتدائها النقاب، لكن ماذا عن منظورها هي؟ ما شعور الإنسان عندما يتعامل مع الآخرين من خلف حاجز منيع كهذا؟

من يدري... لعلها كانت تشعر بالضيق نفسه الذي شعر به هو.

«من ناحيتي عادي... لكن المشكلة فيك انت... بتبقى بعيد خالص... كنت بحس انك مش طايق تبص في وشي».

يشعر المخِّيخ كأن دُشا من الماء البارد انفتح فوق رأسه، لا يدري ماذا يقول بعد أن تبيَّن له حجم التضحية التي أقدمت عليها اليوم من أجل صداقته،

تضحية لا يستحقها ولا يستطيع تعويضها عنها، رغم أنه لم يطلبها أصلا.

ما فعلته كوندوليزا أنها تعرَّت أمامه معنويا، بالضبط، لم تتخلَّ عن معتقداتها لكن تحمَّلت وزر استثنائه من تطبيق القاعدة، عرفها قبل أن ترتدي النقاب فليس جديدا عليه أن يراها سافرة، بل كشفت له في الماضي الكثير من مفاتنها وعرضت عليه ما هو أكثر، لكن كل هذا اقتصر على الجانب الجسدي، أما اليوم فقد تعرَّت أمامه معنويا، لم يعرف المخِّيخ عن الجنس أبدا ما يزيد على العموميات، غير أنه في هذه اللحظة بدأ يدرك أن العلاقة الجنسية عملية مكاشفة في جوهرها، كشف متبادل للمستور، إذن العاهرة عمدت بالفعل إلى إغوائه...

«صحيح ان ربنا حرم صنف النسا من كتير من الحقوق... لكن كله حيتعوض في الآخرة». تقول كوندوليزا بعد صمت ممتد، ثم تأخذ رشفة حذرة من شايها الملتهب.

لا يفهم ماذا تقصد بالضبط، ثم ما علاقة هذا الكلام بسفورها اليوم؟ كأنها تحاول استشفاف ما يدور في ذهنه ثم الرد عليه، لعل مهنتها أهَّلتها لأن تكشف ما يخفيه الرجال، لكن ألم تكتشف أنه ليس كباقي الرجال؟

لا شك في أنه في الماضي جرَّدها في ذهنه من إنسانيتها، لم يسعَ لأن يتفهَّم وجهة نظرها، أو أن يتعاطف مع كفاحها الذي لا يكلُّ ضد مجتمع اعتاد النهش في جسدها، بالضبط، حتى لم يصغِ إلى كلامها باهتمام، يتابعها اليوم وهي متربِّعة فوق سريره، ترتشف الشاي بشكل طبيعي دون الحاجة لأن تحشر الكوب تحت النقاب، ويدرك حجم بطولتها في كل خطوة أخذتها على درب الحياة، حتى ارتداء النقاب تطلَّب جرأة منها... والشيء نفسه الآن عند سفورها أمامه... فهي في الحالتين منتقَدة، مهما فعلت ستظل في موضع الاتهام.

لكن إدراكه لكل هذا لا يزيده دفئا تجاهها، فقط يضاعف من توتره وشعوره بالحرج، هو عاجز الآن عن مد الجسور، يحتاج إلى نظرة داخلية، عليه أن يستوعب ما حدث له اليوم... فقد مرَّ لأول مرَّة في حياته بتجربتين إيروتيقيتين... منذ قليل مع فتاة الحلوى والآن مع كوندوليزا.

«لو كانت للستات حقوق ربنا لا يمكن يحرمهم منها... علشان كده لا مجال للتعويض في الآخرة، الستات زيهم زي الرجالة... حيتحاسبوا يوم القيامة طبقا لأعمالهم». يردُّ بحزم... تحرُّجه سرعان ما تحوَّل إلى عدوانية.

حدَّة ردِّه تضاعف بدورها من شعوره بتأنيب الضمير، لا تردُّ، عيناها شاردتان، الحائط خلفها دهانه تقشَّر بفعل الرطوبة وبدأ العطن يلوِّن ركنه العلوي بخضار مقزز، صمتها خنجر يهتك أحشاءه.

نقرات على الباب، لأول مرَّة يرحِّب باقتحام خصوصيته.

هذا السحر الإيروتيقي قد أنهكه.

كوندوليزا تنهض بهمَّة مفاجئة، تهندم زيها بأصابع متمرِّسة، وفي ثوان تعود كتلة سوداء عصية على الفهم، تبادر بفتح الباب كأنها صاحبة المكان، تتجمَّد للحظة أمام هيئة طاهر الممشوقة المحنية بعض الشيء، تتشابك نظراتهما، يخيَّل للمخيخ أن رعشة سريعة تنتابها.

«السلام عليكم». تهمس كوندوليزا قبل أن تختفي.

***

«آسف... ما كانش قصدي أسبب أي إزعاج». ابتسامة الشاب صفراء مضطربة.

«ما فيش إزعاج ولا حاجة... كنا بندردش مش أكتر». يتفحَّص المخِّيخ تعبير وجه طالب الرياضة البحتة ليستشف إن كان يصدِّقه.

يلقي الفتى نظرة خاطفة على السرير المنكوش، هو السرير ذاته الذي يحرص المخِّيخ على تسويته فور أن يستيقظ، ويحتفظ به طوال النهار مفروشا بدقَّة هندسية رغم بهتان البطانية السوداء.

«طبعا... طبعا». يردُّ طاهر بتهكُّم، يقف في مكانه متحرِّجا من الجلوس على السرير في حالته الراهنة.

يكفُّ المخِّيخ عن محاولة توضيح الموقف، من العبث التوقُّف كثيرا أمام هذه الأمور في بيت للدعارة، يعرض عليه كرسيه وينتقل هو إلى السرير.

«المهمّ... سبع والا ضبع؟» يقول المخِّيخ دون تفكير، سؤال تردد مرارا خلال الأيام الأخيرة.

ظلَّ موضوع ديدي قابعا في خلفية إدراكه، يزنُّ في لا وعيه كثقَّاب كهربي ينخر به عضو ميليشيا عراقية في جمجمته، محنة الفتاة مفجعة وهو ليس سوبرمان ولا حتى الرجل الوطواط، لم يعد في جعبته سوى عملات ذهبية تركها له عجوز لا يعرف إن كان من صنف الإنس أم الجان، وما الذي جعله مسئولا عن هذه الفتاة وحماقاتها أصلا؟ هذا الشعور الغامر بالمسئولية من أين أتاه... هو الذي لا يملك حتى أن يسير في الشوارع دون أن يتوارى بين الظلال؟ المسألة متعددة الأبعاد، بالضبط، اتخذت شكل «بوليهيدرا» أرخميدس متعددة الأضلع، لعل طالب الرياضة البحتة جاء بالحلِّ.

«أنا مش معترض على إنكم بتعبّوا الشمس في أزايز... اللي مجنني... الناس ازاي بيشتروا؟» يقول الفتى متجاهلا سؤاله.

يستمتع المخِّيخ رغم كل شيء بمجادلة طاهر، شخص بهذا الذكاء والعلم عملة نادرة في هذا الحي المتهرئ، على أي حال سوف يجاريه في الحديث لبضع دقائق حتى يصبح مستعدا للكشف عما توصل إليه بالنسبة لتسعير العملات

الذهبية، لكن مَن تحديدا هو المتَّهم بتعبئة أشعة الشمس في الزجاجات؟

«الوهم سلعة رائجة». يضحك المخِّيخ، أيحتاج أن يذكِّر من ترعرع في منزل حرفته الأولى الدجل والشعوذة بتلك الحقيقة؟ يستطرد:

«الكون مكان بارد وموحش والإنسان فيه ضعيف ووحيد، في معظم الوقت الناس ما قدامهاش بديل غير اللجوء للخرافات والأوهام».

ألم يعلِّموه في الكلِّية أن متوسِّط درجة حرارة الكون 3 درجات فوق الصفر المطلق... أي 270 درجة تحت الصفر؟

«والعلم؟» طاهر في مرحلة عمرية يبدو له فيها أن بوسع العلم أن يوفِّر حلولا لكل المشاكل، يذكِّر المخِّيخ بنفسه في أيام مضت.

«العلم جميل... لكن ما لهش تمن». يتذكَّر المخِّيخ فجأة أنه عالِم عبقري، لو كان ولد في بلد آخر لكان اليوم مرشحا لجائزة نوبل... تخيَّل... كاد ينسى كل هذا في دوامة الهروب من مطارديه العتاة!

«طيب... والحقيقة؟» الفتى إما أنه عبيط أو يستعبط.

«دكّان الحقيقة أرففه فاضية، فاترينته بتبرق لكن ما فيهاش بضاعة... في رأيك ممكن صاحبه يعمل فلوس...؟ لكن دكّان الوهم مليان حاجات لذيذة... أشكال وألوان... جاهز وتفصيل... ما فيش حد ما يلاقيش مقاسه... بضاعته رايجة لأنها تلبِّي احتياجات كل إنسان».

«ومسئولية المتعلِّمين؟» طاهر يتعمَّد إحراج المخِّيخ... أم أنه يعبِّر عن شواغل حقيقية تؤرقه... فملاحظة المخِّيخ لا يمكن أن تكون جديدة عليه؟

«خلينا في موضوع بيع العملات أحسن... سبع والا ضبع يعني؟» يجزُّ المخِّيخ على أسنانه.

«سبع وستين سبع طبعا... بس قل لي الأول... هو صحيح حضرتك عامل مأذون اليومين دول؟» الشاب يسأل بهدوء لكن نبرة صوته بها خطورة.

يدرك المخِّيخ فجأة أن حديث طاهر السابق لم يكن يرمي إلى قضايا فلسفية، انفعاله حقيقي غير مفتعل، منذ أن دخل الغرفة هو في الواقع يوجِّه اتهاما محددا إليه، لكن لماذا؟ أيكون غضبه مرتبطا باكتشاف كوندوليزا داخل غرفته؟ إذن ما نوعية العلاقة التي تربط طاهر بالفتاة السمراء التي أصبحت الآن العاهرة الوحيدة المتبقِّية في هذا البيت المتهالك؟ كيف يتفاعل أصلا مع العاهرات التي نشأ ليجدهن يمارسن البغي في بيت أمه؟ هل شبَّ يطالب بحقه في الـ «بلانش» على رأي كوندوليزا؟ أم أنه اعتبر نشاطهن مسألة مهنية بحتة لا شأن له بها... وفصَل مثل هذه المسائل الشائكة – فصلها ذهنيا على الأقل – عن علاقاته الإنسانية الطبيعية معهن؟

«والناس اللي عاملة نفسها شريفة... لكن وقت الجد يتضح انهم انتهازيين... وكمان ينهشوا في لحم البنات المساكين؟» يستكمل الفتى بمرارة.

لا يعرف بمَ يردُّ، قد سئم العلاقات الإنسانية بتعقيداتها، ما أجمل الحياة الموازية ببساطتها ووضوحها، كل مخلوق على طبيعته فعليك أن تقبله أو تتركه لحاله، كل اللعب على المكشوف – حتى الخيانة – ولا أحد يبذل جهدا ذهنيا للتبرير.

«على فكرة أنا اتنقلت لأودة سامية بعد ما ربنا تاب عليها ومشيت من هنا». الفتى يقصد الغرفة المواجهة لكوندوليزا مباشرة، إذن فالإنكار لن يجدي معه لأنه يستطيع مراقبة كل شيء على الأقل بالسمع، ومتى كان الإنكار مجديا أصلا؟

«زي ما انت قلت... سامية ربنا تاب عليها ومشيت... لكن احنا لسه هنا... ولازم نعيش». يردُّ المخِّيخ بعد طول تفكُّر.

قد استوعب فجأة بعد السنين التي قضاها هنا أن المنطقة العشوائية تختلف جوهريا عن قرية يوسف إدريس أو حارة نجيب محفوظ، بل هي نقيضهما، الناس هنا تبحث عن أي مكان آخر يلجأون إليه، حياتهم مؤقتة، علاقاتهم عابرة، جذورهم غير ممتدة في الأرض، القضية تتعدى الفقر والعوز، فهنا لا ولاء على الإطلاق، لا ولاء ولا انتماء، الملايين المقيمون في العشوائيات معلَّقون في الهواء، يعيشون بلا مستقبل، مجرَّد الاستمرار في هذه الأماكن معناه الفشل التام لأن أصل النجاح هو الفرار، والبقاء هو الموت البطيء، هو إذن الساكن النموذجي للعشوائيات، وجوده الحقيقي يعيشه في عالم خاص متخيَّل، لا مستقبل له ولا علاقات حقيقية تربطه بمن حوله... وها هو يفقد مبادئه بالتدريج بل إنسانيته من الأصل.

«أرجوك ما تتصورش ان الموضوع فيه غيرة أو حاجة زي كده..». يقول الفتى مؤكدا مخاوف المخِّيخ.

أخطأ حين قدَّر أن طاهر لا يمكن أن ينجذب إلى إحدى عاهرات أمه، فمهنتهن تثير في نفس أمثال المخيخ من البرجوازيين كرها غير مبرر... تحتلُّ على مسطرة الأخلاق موقعا أدنى من أي مسئول منحرف أو حتى موظَّف مهمل ممن يحطمون مستقبل الناس بجرَّة قلم... يدرك الآن كم كان مخطئا، خاصة في حالة كوندوليزا والتي تفوق مصداقيتها غالبية من عرفهم في عمره الطويل... إضافة طبعا إلى جاذبيتها الأنثوية الطاغية.

«الغيرة تبقى في غير محلّها... لإن ما فيش حاجة حصلت بيني وبين كوندوليزا». يسند المخِّيخ الوسادة على الحائط ويستريح في جلسته.

«أنا عمري ما لُمتها على اللي بتعمله... هي في النهاية ضحية... على الأقل نفسها تعرف ربنا... لكن حضرتك يا شاعر يا عظيم... ليه تبقى شريك في حاجة زي كده...؟ هو ده اللي مجنني». الفتى يهتزُّ فوق الكرسي، التزييق يشكك المخِّيخ في مدى صمود الخيزران المسوِّس تحت الفتى رغم نحوله، يستطرد:

«انت عارف ان كوندوليزا موهوبة جدا في قص الشعر...؟ يعني قدامها فرصة تتوب وتعيش حياة طبيعية..».

كلام الفتى يصيبه في مقتل، الآن هو متهم بتشجيع الفتاة السمراء على الاستمرار في حياة البغاء... فجأة أصبح مسئولا عما حدث لديدي وكوندوليزا في آن، مع أنه لا يملك فعل أي شيء من أجلهما... مع أنه ليس أفضل حالا منهما...

«يعني المتعلمين ما ينفعش يبقوا ضحايا؟» يقول المخِّيخ ثم تهفُّ عليه رائحة كوندوليزا الحسية التي سوف تظلُّ لأيام عالقة في فراشه، العطر الزاعق نفسه الذي يغلِّف رائحة عرق خفيفة ممتزجة بعبق هورمونات نسائية أصبح لا يخطئها بعد سنوات قضاها في هذا المكان.

«إنت مش فاهمني... أنا قصة حياتي كفاح مرير علشان في يوم من الأيام اكون زيَّك... أنا صحيح مش عارف قصّتك... لكن أفهم كويس انك عالِم على المستوى العالمي... ومش شاعر زي ما بتقول... كان نفسي في يوم من الأيام ابقى زيّك... وفيه زيّي ملايين... بنعتبر ان التعليم هو سكتنا للخلاص... تقوم حضرتك تخذلنا بالطريقة دي... هو إيه النظام يعني...؟ ده تحطيم الأحلام أسوأ من تكسير العظام يا عبقري».

جسد المخِّيخ يتصبب عرقا باردا، يسحب البخاخة من جيبه لكن لا يستخدمها.

«ما اقدرش أوصف لك قد إيه أنا شعرت بالأمل لما قابلتك يا طاهر... ما كنتش مصدّق إن ممكن بيئة زي دي تطلّع حد زيّك... علشان كده مش عاوزك تفقد الأمل أبدا... أنا لو غلطت يبقى كنت مضطر... الأيام حتكشف كل شيء... المهم دلوقت زي ما أنا وثقت فيك في موضوع العملات انت كمان لازم تثق فيّ وتقول لي وصلت لإيه... لأن المسألة حياة أو موت... مش ليّا إنما لشابة جميلة وبريئة وكلها طموح وأمل... زيّك بالظبط». صوت المخِّيخ يشوبه حشرجة سنوات يأسه الممتدة، أثقله العبء الجديد الذي ألقي على كاهله دون مقدِّمات... مسئولية ديدي التي أصبحت لا تطاق.

الفتى يحدِّقه بارتياب، ثم يتحدَّث ببطء:

«السنيور عاوز يعرف انت عملت في العملة إيه علشان تلمع بالشكل ده؟»

«والله لقيتها وهي بتلمع كده».

«السنيور متأكد انها أصلية... فحصها تحت الميكروسكوب... هو عندك كام واحدة منها؟» طاهر لا يزال يراقب ملامح وجه المخِّيخ كأنها قد تفشي سرَّه رغما عنه.

ينهض المخِّيخ دون تردد، يدبُّ يده في جيب سترته ويخرج العملات المتبقية، يرصها في ثلاثة صفوف متوازية على الطاولة بجوار يد طاهر.

«باللي معاك يبقوا عشرة... أنا محتاج مبلغ معين واللي يزيد حلال عليك». قد أخذ المخاطرة ووضع كل أمله في هذا الفتى.

«المبلغ للبنت الجميلة اللي بتقول عليها؟»

«كان عليها دين، فخطفوها لغاية ما الفلوس تتسدد... عصابة من بتوع الاتجار في البشر، ما لهاش غيري... ودلوقت بقت حياتها متوقفة عليك انت كمان».

يهزُّ طاهر رأسه في تفهُّم، لا يجد في القصة ما هو خارج عن المألوف، يشعر المخِّيخ بالاطمئنان، يدرك أن الفتى هو أيضا قد قرر أن يثق به.

«أنا مش عاوز فلوس لنفسي... لكن أنا كمان أملي الكبير اني أنقذ بنت... رغم انها مش دريانة بيّا... بس بعتبرها بريئة... رغم كل اللي عملته». تشتعل عينا الشاب في انفعال لا يمكن إخفاؤه.

لا يستطيع المخِّيخ أن يجزم إن كان يقصد كوندوليزا بالتحديد أم أن له محبوبة أخرى مهددة أيضا بالانجراف في نهر تعددت روافده ويزداد تدفُّقه شراهة يوما بعد يوم، لا يهمّ، المهمُّ أن الحب يبقى صامدا، ينبض في قلب كل كائن حي مهما غدرت به الأيام، مهما بلغ به اليأس، الحب وحده يتحدَّى القهر، يسمو بطاهر فوق أكوام الزبالة والأزقَّة المطيَّنة والمباني المتهالكة، بالضبط، نعم هو الحب... ملاذنا الأخير في مواجهة الطوفان.

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الثلاثاء 16 يناير 2007

الساعة 9:00 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

مشهد الفوضى الذي يستقبل مارتين هذا الصباح يتعدَّى ما اعتاد عليه، الرجل البدين يتأرجح في كرسيه بعصبية، الفشار مبذور أمامه على مسطَّح الطاولة المخصص للعمل، بعض حبات الفشار التصقت بالسطح الخشبي بفعل بحيرة صغيرة من الكوكاكولا المسكوبة جفَّ معظمها، بقايا شرائح البيتزا متناثرة بين العلب الكرتون والبلاستيك الفارغة، العميل «ألفا» يحييه بهزَّة لذيل حصانه ونظرة عابرة من عينين داميتين، بقع من المسطردة تزركش قميصه الأبيض، الرجل يفقد قسطا من صوابه يوما بعد يوم.

«عملية «ميكي ماوس» بلغت مستوى الكود الأحمر». يخبره بهدوء.

«ماذا حدث؟» يغوص مارتين في كرسيه وعيناه على الشاشات أمامه.

«يبدو أن القيادة شعرت بالقلق من مستوى تنظيم المجموعة التي مكَّنت الهدف من الفرار». يشير العميل «ألفا» إلى مسقط المزرعة الملتقط بواسطة القمر الصناعي، قد اتسعت الصورة الآن لتشمل الكوخ الذي يخفي المدخل السري للسرداب المؤدي إليها.

«بصراحة أنا لم أفهم أبدا ما أهمية «ميكي ماوس» هذا... هو ليس عالما في الذرَّة بل مجرَّد مهندس إنشائي». يقول مارتين وهو يدقُّ الكيبورد، عليه تحصيل كافة الرسائل التي وردت خلال الوردية الأخيرة حتى يكون مستعدًا للخطوة المقبلة، والتي على ما يبدو لن تكون سهلة.

«هذا الرجل أهم خبير على مستوى العالم في المنشآت المقوّاة، باستطاعته تصميم تحصينات تحت الأرض أو في باطن الجبال تتحمَّل القصف بأحدث الصواريخ المضادة للدُشم، يعني لو نجحت دولة معيَّنة في الاستفادة من خبرته سوف تنقلب موازين القوى في الشرق الأوسط... خاصة في منطقة الخليج... يعني نحن مهددون بأن نفقد الأوزة التي تبيض ذهبا، هذا هو السيناريو الكابوس الذي بدأت القيادة تتحسب له... خاصة بعد ظهور هذه المجموعة شديدة الاحتراف والتي لا نعرف ما هي الجهة التي تعمل لحسابها». يتحدَّث الرجل بجدية تامة وهو يلتقط حبَّات الفشار من على الطاولة ويضعها في فمه.

يتوقَّف مارتين عن التدقيق في شاشة اللابتوب لوهلة، يهزُّ رأسه مستوعبا بالتدريج كلام البدين، الوضع خطير بجد، لكن شعورا لذيذا بدأ يتخلل خلاياه، مركز الأشباح قد عاد أخيرا إلى دائرة الضوء، اتضح أن هناك قيادة ما في مكان ما تتابع نشاطهم بل وتعتمد عليهم لتحقيق أهدافها، لا مجال اليوم للشكوى من مواعيد العمل، ولا وقت للتفاهات، فالتحرُّك سيكون سريعا وحاسما.

«إذن لماذا لا نلجأ للأجهزة المحليّة...؟ هم الأقدر على العثور على (ميكي ماوس)».

يتحدَّث مارتين وهو يتفقَّد على اللابتوب مجموعة رسائل درجة سريتها «جاما» بمعنى أنها التقطت عنوة من أحد أجهزة المخابرات الأجنبية وتم اختراق شفرتها، لا يجد بها ما يشير إلى وجود تحرُّك منظَّم لتهريب أحد العلماء من مصر.

«الهدف هو تصفية «ميكي ماوس» ... وليس تنبيه المصريين إلى الكنوز التي يمتلكونها». الرجل البدين يتحدَّث بفم ملآن، قد بدأ يلتهم بقايا شريحة البيتزا.

«لكن الأجهزة المصرية تستطيع على الأقل التأكد من عدم مغادرته البلاد..».

ينتقل مارتين إلى المجموعة المتبقية من الرسائل ودرجة سريتها «زارف» – أي أنها التقطت بواسطة أقمار التجسس على الاتصالات، أيضا لا يجد بها ما يفيد عمليتهم.

«لا تنسَ أبدا أن حليفنا الحقيقي في الشرق الأوسط هو إسرائيل... وتنامي قوة أي دولة عربية يكون في المحصِّلة على حساب الهيمنة الإسرائيلية». يمسح العميل «ألفا» فمه بكمِّ قميصه.

«إذن ما هي الخطوة القادمة؟» يطرح مارتين سؤاله الذي يلحُّ عليه منذ أن واجهه «ألفا» بأن العملية وصلت إلى مستوى الكود الأحمر، في الحقيقة يتحسَّب للردِّ، يعلم أنهم قد يصلون إلى اتخاذ إجراءات مخيفة.

ينهض الرجل البدين ويتَّجه إلى دورة المياه، يعود بعد فترة ممتدة مصطحبا خرير امتلاء خزَّان المرحاض، يقف في مواجهة الشاشة الوسطى ويديه في جيبه، يميل بجذعه للخلف لموازنة ثقل كرشه الضخم، ثم يهمس ببساطة:

«بداية الخيط هي المزرعة..».

***

الفصل التاسع

الجيزة
مساء الأربعاء 17 يناير 2007

«أظن أني من القرآنيين». يهزُّ طاهر رأسه على سبيل التأكيد.

«يعني إيه قرآنيين؟» يسأل المخِّيخ في شرود، فاجأه الفتى بعبارته الغريبة دون مقدِّمات.

«مش متأكِّد... لكن ما دام الحكومة بتحبسهم يبقى أكيد عندهم حق». ابتسامة الشاب متوتِّرة، جسده مسترخٍ فوق سرير المخِّيخ المفروش اليوم بعناية، لكن لا يبدو على وجهه الارتياح.

التقاه المخِّيخ على السلّم منذ عشر دقائق عند خروجه من غرفة كوندوليزا، وجد طاهر متجمِّدا على البسطة فسحبه تلقائيا إلى مأواه فوق السطوح، ربما كان الشاب يتنصَّت على ما يحدث داخل غرفة العاهرة السمراء، من يدري قد يكون الطقس السخيف الذي يتكرر كلما أتى زبون جديد أثار فضوله... تستدعي كوندوليزا المخِّيخ بالنقر على سقف غرفتها بيد مقشة متهالكة، فيهرول لأداء وظيفته التي أصبح يتعيَّش منها... المخِّيخ بدأ يعتاد هذا الهزل، لكن طاهر ربما لا يفهم، أو لا يتفهَّم.

«أقصد يفرقوا إيه القرآنيين دول عن باقي المسلمين؟» يسأل المخِّيخ بجدية.

«باين عليهم عندهم فهم حديث للإسلام... أحسن من الفتاوى المتحجِّرة اللي بنسمعها اليومين دول». يتكلَّم طاهر دون تركيز، حديثه أقرب للثرثرة، كأنه يتحدَّث عن طلاق فنانة أو انتقال لاعب كرة قدم من فريق لآخر.

«نفسي الشباب ما ياخدوش الأمور دي بدون تدقيق... وإلا حنبقى زي أمريكا كل يوم واحد يخترع فيها ديانة جديدة... بالضبط... وتتقلب العملية تجارة في تجارة».

يشعر المخِّيخ بغيظ متعاظم، قد سكت على محاولات الست كوندوليزا تغليف الرذيلة بالدين، فهي في النهاية امرأة جاهلة مقهورة تبحث عن طوق للنجاة، لكن عندما يتخبَّط طاهر في أمور لا يجوز خلط الأوراق فيها... فإن الأمر يتطلَّب وقفة... وقفة موضوعية مع الصديق على رأي السادات، هذا الشاب الذي ظلَّ طوال عمره يقاوم الفساد، المتعلِّم العبقري الذي ارتبط المخِّيخ به تدريجيا حتى أصبح يعلِّق آمالا عريضة عليه... المخِّيخ لا يعارض القرآنيين أو غيرهم، من حق طاهر أن يؤمن بما يشاء، لكن يجب أن يكون ذلك بناء على دراسة، بناء على فهم... كيف يأخذ الشباب الأمور بهذه البساطة؟

من أين جاءنا هذا الخواء الفكري؟ وكيف أصاب الأجيال الجديدة في غفلة منَّا؟ ومتى حدثت هذه التحوُّلات الجذرية في مجتمعنا أصلا؟ لم يعد المخِّيخ يدري من يلوم على كل هذا.

يرمي الزهر بعصبية على الطاولة الإيديال الصدئة، مَن يعرف ماذا تحمله الأقدار لهذا البلد؟

ثم يخطر بباله أن الفتى ربما يسخر منه، أو يحاول حتى استفزازه... ترنُّ في أذنه عبارته الأخيرة التي نطقها دون تفكير فتضاعف من شعوره بالحرج، بأي منطق يشكو من التجارة بالدين وقد أصبحت التجارة الرائجة في هذا الزمن، بل وهو شخصيا أكبر ممارس لها؟

كيف يُقنع طاهر أنه في عمله مع كوندوليزا حريص كل الحرص أن يتجنَّب أي إشارة تتعلَّق بالدين... وأنه يرفض إضفاء أي شرعية دينية على أنشطتها...؟ ألم يسمع الفتى بأذنه من خلف الباب؟ ألم يتيقَّن أنه يتقمَّص – وعن قصد – لهجة موظَّف الشهر العقاري أو كاتب المحامي... لا لغو المأذون الشرعي، حتى العباءة التي أهدتها كوندوليزا إياه لم تغطِّ جسده النحيل ولو مرَّة واحدة... أليس كل هذا كافيا؟

نعم هو نصَّاب – وقواد حتى – لكنه لم يتَّجر يوما بالدين، ألم يدرك الشاب أنه يعارض أصلا إقحام الدين في كل ما يتعدَّى العلاقة الروحية بين الإنسان وربه؟ أنسى أم تناسى أنه يتعامل مع «علماني متصوِّف» كما عرَّف المخِّيخ نفسه في أحاديثه السابقة معه؟

هو مجرَّد موظَّف يوضِّح شروط التعاقد للزبون، يتلو على كل منهم اتفاقا شفهيا... مدة الزواج – عادة ما تكون نصف ساعة – وقيمة المهر ومؤخر الصداق – تتراوح من زبون لآخر طبقا لتقدير كوندوليزا لحالته المادية ومدى استلطافها له... وربما أمور أخرى يحاول عدم التوقُّف أمامها كثيرا – لكن المخِّيخ لم يدَّعِ أبدا أن هذا زواج شرعي... مجرَّد موظف يوضح شروط التعاقد... ألم يسمع طاهر كل هذا بأذنه وهو يتنصَّت خلف الأبواب؟

يهتزُّ في كرسيه الخيزران الذي يكاد ينهار من كثرة الارتجاج، يدرك أنه قد سقط في نظر الفتى إلى الأبد، هذا الشاب الذي نجح في أن يحتفظ بحد أدنى من كرامته رغم البكابورت الذي نشأ فيه، أما هو... العالِم الجليل...

العبقري الفذّ... فقد سقط في أول مطبّ... رسب في أول امتحان.

«ما تزعَّلش نفسك... أنا كنت بهزر». يحاول الفتى تلطيف الجو، يغير الموضوع:

«تعرف يا شاعر رقم «جوجول»؟»

رقم «جوجول»...

رنَّة الكلمة تهدِّئ أعصابه، تنعشه، تحيله إلى عالم آخر من الأفكار المجرَّدة، أيمكن أن يكون لعلم الرياضيات وجود مستقل عن العقل البشري الذي ابتدعه؟ ولمَ لا...؟ أليست المعادلات الرياضية أبلغ تعبير عن الطبيعية الجوهرية للكون؟ يخطر بباله تساؤل العالم الفيزيائي السير جيمس جينز: «أيكون الربُّ عالم رياضيات؟».

ماذا كان أبوه – رحمه الله – ليقول لو سُئل عن رقم «جوجول»؟ الأغلب أنه كان سيحيل الموضوع برمَّته إلى ابنه العبقري الذي اعتبره إنجازه الأول في الحياة، وهو ما يفسِّر أن الرجل الذي صارع أمراضا أنهكته منذ الشباب – ضغط الدم والسكر... الثنائي الشرس الذي ينهش البدن بلا هوادة – ظل متشبِّثا بالحياة في أيامه الأخيرة حتى رأى ابنه مهندسا ومعيدا في الكلية، قاوم تليُّف الكبد واضمحلال الكلية الوحيدة التي ظلَّت تعمل وعذاب دوالي المرِّيء حتى يرى مشروع عمره يتحقق أمام عينيه، ثم رحل للقاء ربه راضيا مرضيا، يحلو للمخيخ أن يقنع نفسه بأن الرجل – لو كتب له العمر بعد تخرُّجه بقليل – كان سيبتسم للدنيا أخيرا، بل ربما حتى توقَّف عن تحدي العالم بإصراره على الخروج للشرفات «بالفنيلة والكلوت».

لكن ما هو ردُّ الفعل الذي كان يمكن أن يصدر عن الرجل ذي الإرادة الحديدية لو رأى ابنه على هذه الحال المزرية التي أوصلته إليها لعبة الأرقام؟

فهزيمته تتعدَّى مستوى الإخفاق الشخصي بل هي إهدار لكفاح أجيال متتالية من المصريين، هذه مأساته... بالضبط... بل ومأساة جيله.

«واحد وبعده مية صفر». يردُّ المخِّيخ على سؤال طاهر وهو ما زال يتأمل الزهر، مضيفا:

«لما حاول العلماء استيعاب مغزى الرقم حسبوا عدد قطرات المطر اللي بتنزل على مدينة نيويورك في 24 ساعة... ثم في شهر... ثم في سنة... فوجدوها أقل بكتير من جوجول واحد».

«طيب مين اللي اخترعه». يبتسم الشاب في استمتاع واضح للمرَّة الأولى هذا اليوم، إذن هو أيضا قد وجد في الأرقام عالما بديلا عن دنياه الكئيبة.

«طفل في الحضانة في أمريكا طلعت في دماغه يكتبه على السبّورة». يقول المخِّيخ ضاحكا.

أكان يمكن لطفل في الحضانة في مصر أن يكتشف رقما جديدا؟ والأهم من ذلك... لو حدث ووُجد هذا الطفل العبقري... أتوجد المُدرِّسة التي ستلتفت إليه؟ ثم كيف يصل هذا الاكتشاف للعلماء الذين يقدِّرون قيمته ويصيغونه في شكل علمي سليم؟

نبرة ضوضاء الخلفية – التي هي مكوِّن أساسي من حياة القاهريين ولا سيما العشوائيين منهم – تضاعفت في اللحظات الأخيرة، رجل يزمجر في غضب، صراخ طفل هيستيري، لعل المشكلة مصدرها سرقة أسرية تكشَّفت أو خيانة زوجية استفحل أمرها، لا يستوقفه الأمر كثيرا، يستكمل:

«طيب ما نترقى شوية من الحضانة ونخش الجامعة... قل لي يا عبقرينو إيه أكبر رقم وصل إليه العلم؟» سؤال المخِّيخ سهل في ظاهره لكن الإجابة عنه قد تكون أعلى من مستوى هذا الطالب الذي في النهاية لم ينهِ دراسته

الجامعية بعد، على العموم ستكون فرصة طيبة ليلقِّنه درسا جديدا قد يكون مفيدا له في المستقبل.

يتبلور صوت كوندوليزا فجأة في أسماعه، هي فتاة حمول نادرا ما تتشاجر مع الزبائن أو الجيران، لكنه بلا شك صوتها، صوتها غاضب مسرسع.

«جيجابلكس»... يعني واحد ووراه مليار صفر». يردُّ الشاب دون تردد.

الإجابة تنمُّ عن علم وفير لكنها كما توقَّع ليست الإجابة الصحيحة، لا يزال جزء من عقله يريد أن يعطي الشاب الإجابة الصحيحة، لكن عقله الواعي يلحُّ عليه بأن كوندوليزا ربما تكون في خطر.

«هي دي كوندوليزا اللي بتصرخ؟» يقول المخِّيخ بينما يحاول أن يركِّز ليلتقط معنى كلامها الذي يأتي في موجات متقطِّعة، هذه مشاجرة من نوع ما، لا بد أن شخصا آخر يردُّ عليها لكن بصوت خفيض.

ينصت طاهر لجزء من الثانية ثم ينطلق نحو الباب دون أن ينطق بكلمة.

يتبعه المخِّيخ في تثاقل، يريد أن يصرخ خلفه بأن «رقم جراهام» هو أكبر رقم عرفه البشر لدرجة أن الأرقام لا تسعفنا لكتابته، يجد صعوبة في أن ينتشل نفسه من عالَم الرياضيات النموذجي ليعود إلى قبح الواقع الذي ما بعده قبح، لكن شعورا بالذنب يساوره، إن كانت كوندوليزا تواجه مأزقا عليه أن يهبَّ لنجدتها، بالضبط، لكن طاهر سبقه في الشهامة وحسن التصرُّف.

يجدها مع زبونها الأخير في حلق باب غرفتها المفتوح على آخره، تجادله بشدَّة، الزبون شاب أبيضاني يتكلم في همس رغم رجفات جسمه المتوترة، ملامحه طفولية لولا لحيته الهشة المائلة للحمرة، بالضبط، لو رأيته يسير في

الشارع لقلت فتى ورعا دمث الخلق، هذا هو «الشيخ الورور» صاحب فكرة زواج المتعة الجهنمية.

«المهلة انتهت... يعني الاستمرار يكون زنا». صوت كوندوليزا حاد، قد احتمت بعباءتها وتحاول أن تثبّت النقاب وهي تتكلم.

«بس انا لسه ما خلصتش... حرام عليكي». يهمس في خجل بينما يحاول أيضا أن يهندم جلبابه الذي على ما يبدو لبسه في عجالة.

«المهر اللي انت دافعه... يا دوبك بتاع نص ساعة جواز». تختفي لحظة ثم تعود بطقيته وشبشبه.

المخِّيخ لا ينجح في أن يتمالك نفسه فينطلق ضاحكا، وقعت في شر أعمالك يا ورور الكلب، يلتفت لطاهر المتجمِّد على البسطة في الموقع نفسه الذي وجده فيه منذ نصف الساعة، توقَّع أن يكون ردُّ فعل الشاب مماثلا تجاه هذا الموقف الكوميدي الذي يصل إلى مرتبة مسرح العبث، لكن يجد وجهه كالحا كالذي شاهد عفريتا.

كوندوليزا تغلق باب غرفتها تاركة المخِّيخ والشابين على البسطة الضيِّقة.

واحد بتاع زواج متعة والتاني بتاع قرآنيين، يريد المخِّيخ أن يصرخ: «هو حصل إيه للشباب يا ناس؟» لكنه يؤثر الصمت فهو ليس أفضل منهما حالا.

الورور يعدل طقيته فوق رأسه ويختفي مع دوران السلّم.

«معادلة رمزي». يقول المخِّيخ لطاهر بعد صمت ممتدٍّ.

كلام المخِّيخ يخرج الفتى من نفق مشاعره المظلم.

«إيه النظام؟» يسأل في شرود.

«رقم جراهام» هو أكبر رقم عرفه البشر لدرجة أن الأرقام لا تسعفنا لكتابته... الطريقة الوحيدة لتحديده من خلال معادلة رياضية هي «معادلة رمزي». «يوضِّح المخِّيخ بجدية تامة».

طاهر لا يردُّ ، الغضب يتكثَّف في عينيه كأن المخِّيخ أهانه إهانة بالغة، يستدير للعودة إلى غرفته، يغلق الباب خلفه دون أن ينطق بكلمة.

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الأربعاء 17 يناير 2007

الساعة 11:00 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

يجب أن ننتصر بأي ثمن فإن البقاء للأصلح، أنسيت؟

يردد مارتين لنفسه مرارا، يجب ألا يسمح لعقله بالشرود في هذه اللحظات الحاسمة، لقَّنوه عند التحاقه بالـ «إن إس إي» أن القضايا الأخلاقية والقانونية الشائكة أكثر ما يشتت التفكير، قالوا: عليك أن تحدد من البداية: هل أنت من فصيلة هاملت أم الإسكندر الأكبر...؟ ثم عليك أن تدرك أن لا مكان هنا لهاملت وأمثاله من المترددين، تاريخ البشرية صراع على البقاء، لو تردد الأمريكيون الأُوَل لفتك بهم الهنود الحمر واحدا تلو الآخر وسلخوا رءوسهم وعلَّقوا فراءها من شعورهم فوق مداخل خيام زعمائهم ابتهالا بالنصر، لو سمح أجداده للأخلاقيات أن تغلل أيديهم ما وُجد هو في هذا المكان وما تأسست أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ أصلا، هكذا تشكَّل وعيه... وعليه أن يستعين بكل ما تعلَّمه في مثل هذه المواقف الحرجة.

«ألفا» لم يغادر مع نهاية ورديته، العملية دخلت مرحلة دقيقة باتخاذ قرار اقتحام المزرعة، فالتأخُّر في اكتشاف النفق أدى إلى التشكيك في فعالية عملية المراقبة برمَّتها، واحتمال ضياع الخيط المؤدي إلى «ميكي ماوس» إلى الأبد،

خاصة بعد أن نظَّف الهدف حسابه البنكي فأصبح على وشك الخروج من دائرة الضوء التي يتيحها لهم كشَّاف المراقبة الإلكترونية، والاختفاء في المنطقة الضبابية التي توفِّرها عشوائية العالم الثالث...

صحيح أن التطور التكنولوجي قد حوَّل العمليات الأمنية من الشكوى من نقص المعلومات – الظاهرة التي أطلقوا عليها قديما «ضباب الحرب»– إلى الشكوى من صعوبة الوصول إلى استنتاجات سريعة في ظل فيضان المعلومات – والتي أطلق عليها المحدثون «سحابة كثيفة من الإلكترونات»... فإن كان كل مخلوق على وجه الأرض يبثُّ إشارة يمكن التقاطها إلكترونيا فإن تداخل مليارات الإشارات كل ثانية يجعل تتبع هدفا بعينه مستحيلا إن لم يترك خلفه أثرا خاصا به يميّزه عن الآخرين، لذلك فنجاح الأجهزة في إبقاء الهدف في النطاق الذي يسهل مراقبته ضروري، وإلا ذاب في محيط التخلُّف الذي لا يزال يغطي غالبية الكرة الأرضية، وخرج عن نطاق التاريخ الذي حسمته الإمبراطورية لصالحها على رأي «فوكوياما»... الأمل الوحيد الآن أن يجد العملاء طرفا للخيط داخل المزرعة، سواء فيما تحمله الأدلة المادية أو ما يحتفظ به الأفراد في ذاكراتهم... وفي الحالتين فإن عملاءهم على الأرض مدرَّبون على استخراج المعلومات المطلوبة.

يشعر بالأدرينالين يجري في شرايينه، الترقُّب يغمر قلبه مصحوبا بخدر لذيذ، لا يفسد لحظته سوى تواجد رئيسه البدين بعد انقضاء ورديته، يستنتج أن «ألفا» الكريه لن يخاطر بأن يتركه وحده اليوم، سوف يستمتع بإدارة العملية بنفسه إمعانا في تحميله مسئولية الإخفاق السابق.

الاقتحام سيتم بواسطة الوحدتين «2» و «3»، أما الوحدة «1» فقد بدأت بالفعل عملية التمويه من جهة الطريق، توقَّفت السيّارة البيجو البيضاء المؤجرة أمام البوابة مباشرة لتعوِّق الدخول والخروج، ورفع العميل غطاء

المحرِّك للتدليل على وجود عطل ما، أما زميلته التي ترتدي باروكة شقراء فسارعت لتدق جرس بوابة المزرعة.

العميل «ألفا» يسحب دلوا من البلاستك به فشار من على الطاولة ويضعه في حجره دون أن يمسَّ محتواه.

مارتين يتابع الشاشات باهتمام، الشاشة الوسطى تظهر المسقط الأفقي للمزرعة بعد أن ركَّب الكمبيوتر عليها بعض المعلومات الأساسية المستقاة من كاميرات المراقبة الأرضية وعدسات القمر الصناعي وأجهزة الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء، المزرعة بها ثلاث نقاط حمر فقط بينما يحاصرها ستة أضواء خضر من ثلاث جهات، الحرَّاس الثلاثة موزعون على الجانب المطلِّ على الطريق، من الواضح أنهم يراقبون الفتاة الشقراء من خلف النوافذ.

يشعر مارتين بالارتياح، عملية التمويه قد نجحت، ضع امرأة شقراء أمام الرجل الشرق أوسطي وسوف ينسى الدنيا وما فيها، لكن الأهم أنه من الواضح أن الحرَّاس ليسوا على درجة عالية من الاحتراف، فلو كانوا لارتابوا وتوزَّعوا لمراقبة الجانبين والخلف.

يشفط «ألفا» الكوكاكولا كفيل يتجرع بزلُّومته من بحيرة إفريقية، وعاء البوبكورن يهتزُّ في حِجره، كعادته لا يتكلم.

ثمة تحرُّك يدور على الشاشة اليسرى التي تظهر باب المبنى، الباب مفتوح ورجل بدين يقف في الحلق، يطوف الحديقة بعينيه قبل أن يتَّجه نحو البوابة الخارجية، يترك الباب مفتوحا خلفه، الصورة لا تظهر سلاحا يحمله وإن كان مارتين لا يغفل احتمال أن يكون بحوزته مسدَّس يخفيه تحت معطفه، قلب مارتين يرتجُّ بعنف، يترقَّب إشارة «ألفا» للعملاء، الفريقان «2» و «3» متأهبان في زيِّهم الأسود بجوار السورين الجانبيين للمزرعة.

يقترب الحارس البدين من البوابة الخارجية في تباطؤ.

«كوبرا «2» وكوبرا «3» للتحرُّك». يصيح «ألفا» في الميكروفون فجأة ثم يدبُّ يده في البرميل المستكين على حِجره كأنه أطلق صفَّارة البداية في مسابقة تلفزيونية لسرعة التهام الفشار.

العملاء الأربعة – كعناكب سوداء ملثَّمة – يتسلقون السورين بيسر مخيف ثم ينطلقون نحو المبنى الداخلي.

في اللحظة ذاتها يكون الحارس البدين وصل إلى البوابة الخارجية، يفتح شرَّاع البوابة ويتفحَّص العميلة بفضول.

داخل المبنى النقطتان الحمراوان لا تزالان ثابتتان في مكانيهما، جيد جدا، لم يتنبه أحد من الحراس إلى ما يحدث.

ينطلق العملاء إلى داخل المبنى من خلال الباب المفتوح، إهمال الحارس البدين قد سهَّل مهمَّتهم، لثوان عابرة يخرج العملاء عن حدود الشاشة اليسرى لكن مارتين يستمرُّ في متابعتهم كنقاط خضر متحرِّكة على الشاشة الوسطى، كل نقطتين خضراوين تتجهان في اتجاه نقطة من النقاط الحمر، «ألفا» يقرقش الفشار كخلاط للخرسانة لا يكل ولا يمل، الحسم سوف يتحقق في لمح البصر، يراجع مارتين صور الكاميرات المثبَّتة في نظَّارات الفريق المهاجم على شاشة اللابتوب لكنَّها مشوَّشة بشكل لا يتيح له تمييز ما يحدث، فالحركة سريعة والفعل عنيف، بيد أنه لا يشكُّ للحظة في النتيجة المحتَّمة.

قبل أن يفتح الحارس البدين بوابة المزرعة يأتي صوت أحد العملاء لاهثا عبر المكبِّر:

«الموقف تحت السيطرة... مقاومة خفيفة... أحد الهدفين سقط... الثاني على قيد الحياة... حالته جيدة التزاما بالتعليمات... على جانبنا لا إصابات... نبدأ مرحلة تمشيط المبنى».

لحظتها يزيح الحارس البدين مزلاج بوابة المزرعة ويطلُّ برأسه على العميلة ذات الباروكة الشقراء.

«كوبرا «1»... لإسقاط الهدف المتبقِّي... لكن لا داعي للمخاطرة». يقول «ألفا» بفم محشو بالبوبكورن.

يتساءل مارتين إن كان العملاء الذين يخاطرون بحياتهم في عمليات تتم في أخطر بقاع العالم يدركون أن إدارتهم تتعامل معهم كفيلم مسلٍّ على شاشة السينما، الأغلب أنهم يتصوَّرون أن أجهزة التشفير هي المتسببة في القرقعات غير المفهومة التي تأتي إليهم من خلال السمَّاعات.

لا يستطيع مارتين أن يرى وجه العميلة على شاشاته لكنه – من خلال العدسة المثبَّتة في نظَّارتها – يتفحَّص ملامح الحارس البدين بفضول يقترب من التلذذ... كيف تبدو عينا رجل على حافة الموت حتى وإن كان لا يعلم ذلك؟ أيخيِّم على ملامحه غيم خاص... إعلان ميتافيزيقي بالنهاية... أو البداية؟

لكنه لا يلحظ في وجه الرجل غير غباء الأبقار– مزيج من الرغبة الحيوانية أوقدتها الأنثى، وتبلُّد ذهني من النوع الذي عادة ما يصيب الحرَّاس بفعل تراكم الملل عبر الساعات والأيام والسنين.

العميلة تنجح في إقناع الحارس بأن يسمح لها بالدخول، فور أن يغلق البوابة خلفها – قبل أن يستفسر عن سبيل معاونتها أو يعرض عليها طقوس الضيافة التي يشتهرون بها في هذه البلاد، أو حتى يفكِّر في مغازلتها أو

التحرُّش بها – تستدير إليه وتقبض على رأسه بذراعيها من الخلف، قبل أن يستوعب الرجل ماذا يحدث يكون الموضوع انتهى... يكون النور انطفأ – كما كان يردد مدرِّب فنون القتال في الأكاديمية، بليّ سريع للعنق ينطفئ النور على عالم إنسان بكل ما فيه من حب وكره... بتجاربه الفريدة وطموحاته التافهة، بليّ سريع للعنق تختفي من وجوده بسمة طفلة أحبها ولمسة امرأة اشتهاها ومذاق أكلة كانت أمُّه تعدها له في الطفولة.

«الهدف أصبح خارج اللعبة». تقول العميلة بهدوء، صوتها كان يمكن في ظرف غير هذا أن يوصَف بأنه مثير للشهوات.

الهدف أصبح خارج اللعبة... كلمات ترددها العميلة تلقائيا بفضل التدريب الذي تلقته لسنوات ممتدَّة، لكن كل كلمة مبنية على دراسات متعمِّقة، المطلوب هو نزع إنسانية الضحية وتزيين القتل، لكن هذا لا يقلق مارتين كثيرا، فتاريخ البشرية سلسلة متَّصلة من الحروب، مسيرة لا تتوقف من القتل المنظَّم، فنزع الإنسانية عن الآخر هو مكوِّن أساسي لكل الثقافات، يتعيَّن التفرقة بين القتل خارج الجماعة الذي يمجَّد بوصفه أروع آيات البطولة، وارتكاب الفعل نفسه داخلها، الذي يعتبر أدنس أعمال الإجرام، الإضافة الوحيدة التي أدخلتها الدولة الحديثة هي توظيف التقدُّم العلمي لمعالجة بعض التعقيدات الشكلية، فالتواجد الإعلامي المكثَّف أصبح ينقل أعمالها الوحشية إلى غرفة معيشة كل أسرة؛ مما تطلَّب استحداث بعض التلفيقات القانونية والمصطلحات الخادعة... أبرزها في العصر الحديث «الحرب على الإرهاب»...

يذكر مارتين أن «بيتا» قال له بشكل عابر – قبل أن يختفي مباشرة – أن مفهوم «الحرب على الإرهاب» غير محدد المكان، فساحة القتال قد امتدت لتبتلع الكون كله، وقوانين الحرب – كما تعلَّما – تبيح القتل تماما ... لكن

فقط في ساحة القتال، وقد فكّر مارتين وقتها أن كلام زميله – لو صحَّ – يعني أن القتل أصبح الآن متوقّفا على أهواء أمثالهم ممن لا اسم لهم ولا عنوان... بعيدا عن المحاكم والقانون... بعيدا عن الحساب...

لحسن الحظ امتنع يومها عن النطق.

أما اليوم فالصورة قد تبلورت أمام عينيه، البشر هم البشر لم يتغيروا في أعماقهم منذ خطا هابيل وقابيل على سطح الأرض، كلنا يعلم هذا... لكن أكذوبة التمديُن يجب ألا تهتزَّ... وألا تنكشف ازدواجية القيم الإنسانية... أكذوبة التمديُن يجب ألا تهتزَّ... حتى تتمكن الدولة الديمقراطية من القيام بأعمال القتل الجماعي على نطاق غير مسبوق وهي هادئة البال مستريحة الضمير.

كل هذا بجد لا يقلقه، لكن الأمر الذي ما زال يؤرِّقه رغم التلفيقات والمصطلحات هو مدى قانونية العمل الذي يقوم به هو، خاصة بعد أن ترك الـ «إن إس إي» وانتقل إلى منظَّمة الأشباح التي لا تحميها أي مظلَّة سياسية أو قانونية، السريّة التامة غطاؤها الوحيد، فهي لا تختلف أمام القانون كثيرا عن عصابات الجريمة المنظَّمة.

«الهدف أصبح خارج اللعبة». يردد مارتين بصوت مسموع في محاولة لاستعادة تركيزه الذي أخذ يتشتت مع كل قرقشة من فشار العميل «ألفا».

«المبنى تحت السيطرة بالكامل». يردُّ قائد مجموعة الاقتحام على العميلة بثقة.

«كوبرا «1»... للمراقبة الخارجية من داخل السيارة... مع الابتعاد قليلا عن البوابة لعدم لفت الأنظار». يأمر «ألفا» ثم يأخذ شفطة ممتدة من الكوكاكولا.

لكن لماذا يتصوَّر البدين الكريه أن هذه التعليمات العادية جدا التي يهتف بها في الميكروفون تحمل عبقرية ما تبرر بقاءه في غير ورديته؟ أم أنه استمرَّ لمجرَّد الإمعان في استفزازه؟ يشعر برغبة ملحَّة في أن يصفعه بقوة وهو يتجرع الكوكاكولا، يتخيَّل تعبير الاندهاش على ملامحه الخبيثة بينما البوبكورن يتطاير في كل اتجاه.

مارتين يتمالك نفسه ثم ينقل صورة الحارس الوحيد المتبقِّي على قيد الحياة – أو «في اللعبة» على رأي العميلة ذات الباروكة الشقراء – إلى الشاشة اليمنى، فقد أصبح المسكين الآن في مركز الأحداث.

قد جرَّده العملاء بالفعل من ملابسه فوقف يرتجف من برودة الطقس ووجع المهانة محاولا ستر عورته بيديه، بعد أن كمموه بكُرة تنِس حشوها بين أسنانه يثبِّت الآن أحد العملاء سمَّاعة هِدفون فوق رأسه، تغطي أذنيه بإحكام لتحجب الصوت عنه تماما، ثم يكمل عميل آخر المهمَّة بتغطية رأسه بغطاء مصمت تماما لا يسمح بدخول ولو شعاع من الضوء، لقد أصبح الآن منعزلا عن الوجود سابحا في فضائه الداخلي لا يؤنسه سوى الرعب والمهانة والكبرياء المنكسر.

وهذه ليست سوى البداية... فنظرية الكبت الحسي التي ابتدعها العالم الكندي «هبز» عام 1951 أصبحت بمثابة الكتاب المقدَّس لعملهم، فقد أجابت علميا عن سؤال أرَّق المحققين لآلاف السنين: كيف تعذِّب هدفك دون أن تمسَّه؟

يراجع مارتين نفسه بسرعة...

«لا تنطق كلمة التعذيب أبدا بلسانك... ولا حتى تسمح لها أن تمرَّ في مخيلتك..». يردد في سرِّه مكررا قولا مأثورا لأحد أساتذته في الأكاديمية.

لقد درس مارتين بالتفصيل نتائج البرنامج البحثي الشامل الذي أجرته الـ«سي آي إيه» خلال الخمسينيات وأوائل الستينيات... برنامج « بلوبيرد» -الطائر الأزرق- الذي كلَّف دافع الضرائب الأمريكي بلايين الدولارات... ثم تعلَّم كيف طوَّرت الأجهزة الأمريكية هذه الاستخلاصات ميدانيا بالتعاون مع الجيش البرازيلي في السبعينيات، حيث تحوَّل إلى منهج متكامل لتطويع الهدف قبل الاستجواب... نعم «تطويع»... فكلمة «التعذيب» لا تصدر عن اللسان أو حتى تخطر على البال.

الخطوة القادمة ستكون إجبار الهدف على أن يقف في وضع مرهق لفترة ممتدَّة، مع طول المدة سوف تتضاعف الأوجاع... حتى تتعدى في قسوتها أبشع أنواع التعذيب، فقد اكتشف العلماء أن أكثر ما يزلزل نفسية الإنسان الشعور بأنه هو نفسه المتسبب في الآلام الشديدة التي تصيبه... فبدلا من أن يعذِّبه المحقق يُجبَر الهدف أن يعذِّب نفسه بنفسه.

عملية تطويع الهدف يتولاها عضوا الوحدة «2»، أما العميلان التابعان للوحدة «3» فقد بدآ بالفعل عملية البحث عن أي أدلة مادية يمكن أن تساعدهم على تعقُّب «ميكي ماوس»، فتَّش أحدهما ملابس جثَّة الحارس الذي قتل في البداية فلم يجد بها شيئا مفيدا، لا تحقيق شخصية ولا مفكِّرة ولا حتى تليفون محمول، الآخر تأكَّد من عدم وجود أي أجهزة كمبيوتر في المبنى، هذا أمر مؤسف لأن الكمبيوتر يحوي عادة كنزا من المعلومات، هذه بجد من مساوئ العمل في العالم الثالث، يفتِّش الآن في الأوراق وإن كان مارتين يستبعد أن يجد شيئا ذا قيمة، فهؤلاء الناس ينتمون لثقافة لا تزال في معظمها تعتمد على الاتصال الشفوي - كما تعلَّم في الأكاديمية - لذلك حقق التلفزيون والموبايل انتشارا كبيرا بينهم بينما ظلَّ دور الكتاب هامشيا... أما لو وجدوا موبايل فسيكون ذلك بلا شك أمرا جيدا.

العميلان التابعان للوحدة «2» أوقفا الحارس العاري فوق كرسي ضيق، وجعلاه يفرد ذراعيه على الجانبين في وضع أصبح كل سكّان الأرض يعرفونه من صور «أبو غريب» التي ادَّعت الحكومة الأمريكية – بطبيعة الحال – أنها من صنع قلَّة من الجنود الفاسدين، بينما مارتين أول من يعلم أنها في الحقيقة صفحة نموذجية من كتاب الاستجواب الذي يدرسه كل ضباط المخابرات في العالم – أمريكيون وغير أمريكيين على حد سواء.

أحد العميلين بدأ يجهِّز الأسلاك التي يوصلها بفيشة الكهرباء العمومية من خلال محوِّل صغير لتخفيض الفولت – حتى لا تقتل الصعقات الكهربائية الهدف، هذا العميل تحديدا مدرَّب طبيا، فلا يجوز للأجهزة الأمريكية استخدام أساليب الاستجواب «المطوَّرة» إلا في حضور ممرِّض... الدول كالبشر تحتاج أحيانا إلى ورقة توت لتستر عوراتها.

الفكرة ببساطة أن يُجبر الهدف على البقاء وذراعاه مفرودتان في وضع أفقي تماما ولفترة ممتدة، فلو سمح لهما أن تسترخيا ولو قليلا يتحرَّك مؤشر ميزان صغير يمسكه في كل كف فيصعقه التيار الكهربي حتى يعيد ذراعيه للوضع المطلوب، علَّموهم كل هذا في الأكاديمية بدعوى تدريبهم على مقاومة التعذيب، وكان هذا مبرَّرا حينذاك خاصة بعد ما تعرَّض له الأسرى الأمريكيون في الحربين الكورية والفيتنامية، حيث كانوا يُجبرون على الاعتراف أمام الكاميرات بأي شيء يُطلب منهم، لكن أحدا لم يبلغ مارتين أنه هو الذي سوف يطبِّق هذه النظريات على أهدافه... للتطويع وليس التعذيب طبعا... يبتسم.

لا يدرك الإنسان مرحلة النضوج إلا لحظة تحطُّم المبادئ على صخور الواقع، يقرص مارتين نفسه في فخذه ليستعيد التركيز، لا يدري ما الذي أصابه اليوم، هذا القدر من التشتت الذهني ليس مألوفا بالنسبة له، يحدجه

«ألفا» بنظرة خاطفة، أيكون لاحظ شيئا أفشى بما يدور في سرِّه من أفكار خطيرة؟

بعد تثبيت الهدف في الوضع المطلوب يسترخي العميلان على كرسيين مريحين، كطاهيين في مطعم خمس نجوم، في انتظار أن يسوَّى الهدف على نار هادئة، بينما تظهر الشاشات عضوي الوحدة «3» يفتِّشان المكان بسرعة وعدم اكتراث بممتلكات أصحاب المزرعة، أحدهما يخرج إلى الحديقة حتى يدرك جثة الحارس الملقاة بجوار البوابة الرئيسية ويفتِّشها باحتراف، لا يجد بها ما يلفت اهتمامه سوى هاتف محمول فيضعه في جيبه ثم يعود للمبنى بهدوء.

ينهض «ألفا»، يسير نحو حامل المعاطف بخطوات منتظمة يحرِّك من خلالها كل أجزاء جسده الضخم، يرتدي سترته البنية الجرباء دون أن ينطق بكلمة، لا يصدِّق مارتين أن الرجل سيغادر المركز دون أن يقول له شيئا ولو على سبيل التحية، كأنه غير موجود أصلا، لا يختلف كثيرا عن الكرسي والطاولة وشاشات الكمبيوتر، هو بجد ليس في حاجة إلى توجيهات منه، لكن أسلوب البدين يقلِّل من شأنه، الغضب يتنامى داخله، يريد أن يطبق على رقبة هذا الحقير الذي يتعمَّد إهانته.

«لكن أليس الرجل بريئا... أقصد «ميكي ماوس»... هل ثبت في حقه ارتكاب جريمة ضد أحد؟»

صوت مارتين مبحوح قليلا، لا يدري لماذا نطق بهذا الكلام الخطير، لكنه لم يعد يكترث... المهم أنه سوف يجبر البدين على الردِّ عليه.

يستدير الرجل ببطء بعد أن كان على وشك الخروج، يتفحَّص مارتين وعلى وجهه تعبير غير مألوف بالتركيز الشديد، يتكلَّم بهدوء محفوف بالتهديد:

«عندما تخطر ببالك مثل هذه الأفكار المسمومة، أغلق عينيك وتخيَّل ابنتك الصغيرة – لا تذكر لي اسمها – لكن تخيَّلها في سرِّك، ثم تصوَّر قنبلة ذرية تنفجر فوق مدرستها، تخيل الجلد يتبخر من على وجهها وأنسجة جسدها تسيح كالزبد عندما يمسُّ النار، استمع إلى صيحة ابنتك الصغيرة التي لا تكتمل... بعد ذلك ستدرك أن علينا أن نقضي على هؤلاء الأوغاد قبل أن يقضوا علينا».

يدرك مارتين أنه وضع يده على أكثر ما يتسفزُّ البدين الكريه، أو أكثر ما يخيفه، لكن قبل أن يفكِّر في الردِّ المناسب يكون البدين اختفى في سرداب الخروج.

***

الفصل العاشر

الجيزة
ليلة الأربعاء 17 يناير 2007 – في وقت متأخر

إيقاع الموسيقى يحي الميت، ويدفع الحَي للرقص، يحرر الروح من قيودها، ويطهِّر النفس من العقد، الرقص اللاتيني سلسلة متصلة، حلقات متشابكة من المتعة، الميرنجي يدعوك إلى الصلصا، والرومبا تقودك للتانجو، والسامبا تجتذبك نحو اللامبادا، الحسيّة تحيط بك من كل اتجاه، أشعة الليزر المنبعثة من أعلى بنفسجية وفستقية وزرقاء تدغدغ حواسك بومضاتها اللعوب، الكشَّافات تبعث مخاريط عمودية من الضوء الوردي تتقاطع مع باركيه الأرضية في دوائر متحرِّكة تنزلق بتمهل فوقها، «مفتول العضال» وفتاة الحلوى متوحِّدان في عناق الرقص البريء المذنب، يطفوان في دوائر خاصة بهما تتزحزح ببطء أيضا فوق الأرضية اللامعة.

يجد المخِّيخ نفسه معانقا أجمل فتيات الدنيا داخل مخروط مسحور من الضوء الأخضر الزرعي، هو الذي لم يمسّ يد فتاة من قبل ولو حتى في الأحلام، لا يدري إن كان انقلابا فيسيولوجيا يختمر بين لحظة وأخرى في سراديب الجسد، بين صمت الخلايا وغموض الغدد، يتساءل إن كانت خصيتاه قررتا بعد عزوف طويل إفراز الهرمونات الذكورية، إغراق شراينه بالتستوستيرون المجنون؛ ليستبدل رجاحة العقل باندفاع حيواني أعمى،

أم أن عقمه يتوارى في عالم الحياة الإلكترونية البديلة... حيث لا غدد ولا تستوستيرون ولا حمل ولا إيدز، هنا حيث لا يعرفون الوفاء الأبدي أو حتى الخيانة العاطفية، بالضبط، هذا الوجود الذي قد تحرر من استعباد التاريخ والجغرافيا – القيدين اللذين عرَّف بهما إيمانويل كانط الوجود البشري – أتكون الفحولة قد فقدت معناها في عالم الأمان المطلق والسحر اللانهائي؟

الفتيات الراقصات تتلوين على شاشات عملاقة معلَّقة على حوائط القاعة من ثلاث جهات، شهوانيتهن معدية، يخطر للمخيخ أن هؤلاء فتيات حقيقيات ولسن دمى إلكترونية كباقي الراقصين، لكن وجودهن مرتبط بتسجيلات معدَّة سلفا، لا إرادة لهن ولا قدرة على الفعل التلقائي على عكس أشكال الـ «أفاتار» من أمثال مفتول العضال وفتاة الحلوى، إذن وجودهن مشكوك في أمره، بالضبط، حقيقتهن أقل إقناعا من هذه الدمى الإلكترونية، أهناك من لم يستوعب بعد أن الكائنات الرقمية دون غيرها تنبض بالحياة في العالم الموازي؟

عدد الراقصين قليل اليوم، لا تُظهر الشاشة الآن سواه ومحبوبته، حدود الشاشة هي حدود الخصوصية، بالضبط، هذه قواعد العالم الجديد، فلا حاجة للعشاق بأن يختبئوا في درى الأشجار أو يختلوا وراء الأبواب الموصدة.

«معك أعيش أجمل لحظات عمري».

يقول مفتول العضال بكلمات يطبعها على الشاشة.

لم يتصوَّر المخِّيخ أبدا أن مثل هذا الكلام سيصدر عنه لامرأة.

«يعجبني كلامك... لا تتوقف».

تشجعه الفتاة أم تستدرجه...؟ لا يهمُّ الآن.

«عندما أكون معك تتبخَّر من نفسي كل هموم الدنيا». يقول في صدق تام، ثم يستطرد:

«في وجودك أتبدّل بالضبط كقطعة الفحم التي تتحوَّل إلى فصٍّ من الماس الخالص... التحوّل يمتد إلى كل خليّة في جسدي... إلى كل جزيء... بل إلى كل إلكترون... فمعك أعيش حالة انسجام مع الوجود... لأول مرَّة أشعر أنني امتداد للمجرَّات، متوحِّد الوجود مع الشهب والنيازك».

تتوقَّف فتاة الحلوى عن الرقص، تنطلق في ضحكة لذيذة، تقول:

«أكثر ما يجذبني للرجل ذكاؤه... وأنت بلا شك أذكى مَن التقيت... وأكثرهم علما».

وبعد صمت قصير – لحظة تردد يكاد المخِّيخ أن يتيقَّن منها – تستطرد فتاة الحلوى:

«ذكاؤك يثير غرائزي الأنثوية».

تحتضنهما الموسيقى... والحب... نعم الحب!

أخيرا قد وجد امرأة تقدِّر عبقريته... بل وتعتبرها مصدرا للإثارة الجنسية.

الأغنية ذات الإيقاع الراقص انتهت وحلَّت محلَّها أغنية رومانسية، وكان يتصوَّر أن الرومانسية انقرضت من الوجود، بل لم يكن متأكدا أنها وجدت أصلا خارج نطاق الخيال، لكنه اليوم يعيشها، النشوة تحلِّق بالمخِّيخ إلى أعلى، فوق غرفته الضيّقة بطاولتها الصدئة وكرسيها الملخلخ، فوق بناية الست الطيبة ذات الحال المائل في الظاهر والباطن، فوق القاهرة العشوائية

بعشوائياتها البائسة وأحيائها البرجوازية التي تنفي عن نفسها زورا صفة العشوائية، وأخيرا يجد نفسه سابحا في سماء الحب اللانهائية.

بحركة تلقائية يسحب مفتول العضال فتاة الحلوى من يدها، يعبران ستائر رقراقة من الضوء الملوَّن، ويركضان إلى الخارج، الأرض خارج المبنى مغطَّاة بجليد أملس، طبقة من الثلج الهش تغلِّف أفرع أشجار الأرز، تدور فتاة الحلوى حول تمثال من الثلج لرجل بدين، وهو عبارة عن ثلاث كرات كبيرة من الثلج، على رأسه قبَّعة سوداء قديمة، أسفلها أنفه عبارة عن جزرة، مفتول العضال يلحق بفتاته، ينحني أمامها بشكل مسرحي، السلسلة الذهبية تلمع حول رقبته، تنطلق ضاحكة، تثني جسدها للخلف من حدَّة الضحك، نُتف الثلج تتساقط برقة حولهما، هنا الاستمتاع برومانسية الثلج جائز دون معاناة برودته، بالضبط، بلا خوف من إنفلوانزا أوالتهاب رئوي أو تجمُّد الأطراف، يلفُّ زاوية الرؤية 360 درجة، لا يوجد مخلوق غيرهما في مرمى البصر، الاستمتاع بهذه الجنة قاصر عليهما الآن، يلمح مدفأة من الحجارة المتشابكة بها نار موقدة، ما أجمل هذا العالم الذي توقد فيه المدافئ خارج البيوت، معقول جدا، فعندما لا يعاني الناس البرودة يكون غرض المدفأة قاصرا على إضفاء المناخ الرومانسي، وهو بعينه المطلوب في هذه اللحظات، يقول:

«لنذهب لنستلقي بجوار المدفأة».

تهزُّ رأسها بالإيجاب دون أن تتكلَّم، عندما يصلان إلى المدفأة تستلقي على الثلج دون تردد.

«أرغب في ممارسة الحب معك». تقول ببساطة.

عبارتها أخذته على غرَّة، فهو بالكاد يتحسس الرومانسية وها هي دون تردد تجتذبه نحو مستوى آخر، تسحبه من يده إلى منطقة الخطر التي ظنَّ أنه محصَّن ضد إغوائها، يخجل أن يعترف لها أنه لا يدري كيف يمكن أن يتم هذا في العالم الافتراضي، فضلا عن جهله أصلا بهذه المسائل في العالم المادي، يضغط على علامة ضمن قائمة الحركة فيفرد ذراعي قرينه الإلكتروني ويثنيهما مبرزا عضلاته، لا يدري تحديدا ما الفكرة التي يريد أن يعبِّر عنها بهذه الحركة.

«فلنفتح إذن نافذة الحوار المنفرد».

يستقرئ في كلماتها التدلل، ربما استشعرت ارتباكه.

«شعري الطويل... أطرافه الآن تلامس صدري الممتلئ».

تأتي إليه كلماتها من خلال مستطيل الـ «تشات» الضامن للخصوصية.

«أرتدي روب من الحرير البمبي... ملمسه كالورد... و... أكيد أنت فهمت... نعم على اللحم مباشرة... لا أرتدي شيئا تحته على الإطلاق... حتى ملابسي الداخلية ملقاة على السجَّادة».

أنفاس المخِّيخ تتوالى بأعنف مما عهدها من قبل، ريقه قد جفَّ كأنه تائه في الصحراء، هو بالفعل تائه... وفي صحاري بلا نهاية ولا بداية.

«كل قطعة من جسدي «منتوفة» ملساء كالزبد... حتى..».

كلماتها تتوالى على الشاشة بلا هوادة.

«أترغب في أن يلتقي جسدانا...؟ أيروق لك ملمسي...؟» .

فتاة الحلوى لا تنتظر ردًّا منه، تستمرُّ:

«أشعر بيدك تتحسس شعري... ثم ها هي تمر على صدري... بتمهُّل... دون أدنى استعجال».

«آآآه..».

تظهر الحروف على الشاشة... كأن آهات شبقها ترنُّ في أذنه.

جسده يرتجُّ فوق الكرسي المتهالك، اليوم بالتأكيد سوف يتفسخ من تحته ويسقطه على البلاط، لكنه لا يكترث، يشعر بجسده فتيًا متينا كالفولاذ، بالضبط، كأنه فعلا «مفتول العضال»، أو كأن الكائنين امتزجا لحد أنه أصبح من المستحيل التمييز بينهما، فقد لبس المخِّيخ مفتولا كما تلبس الروح الجسد، لم يعد ممكنا له تحديد أين تبدأ الأولى وأين ينتهي الثاني، فهما تجليان للكائن نفسه ، وجهان لذلك الفتى صغير القامة كبير الرأس الذي سمَّاه أبوه مصطفى ليحمل اسم جده الأكبر الفلاح القُح، لكن كل هذا لا يهمُّ اليوم، لا يهمُّ سوى الكلمات الشبقية التي تأتي إليه عبر الأثير فتزلزل كيانه، لا يهمُّ إلا الدمية الإلكترونية مكتملة الأنوثة المستلقية إلى جوار المدفأة فوق الثلج.

كل ما مضى لا يهمّ لأن هذه لحظة ميلاده الحقيقي...

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية

الأربعاء 17 يناير 2007

الساعة 19:21 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

أبشع مشاهد العنف تمرُّ أمام عينيه، بجد عنف به سادية، هو نفسه ممارسها... والعميل «ألفا» الضحية، ليس غريبا عليه أن يلوذ بالخيال لملء ساعات وحدته الممتدة في مركز الأشباح، بل هو النسق الطبيعي في أوقات الملل لأمثاله ممن وُهبوا خيالًا خصبًا، ارتحالات ينطلق إليها بين أدوار لعبة الـ «فري سيل» التي أصبح يحرِّك أوراقها بشكل آلي، لكن رحلات أحلام اليقظة عادة ما تكون على طريقة أفلام المغامرات، يقوم هو بدور البطولة، جيمس بوند أمريكي يقفز من الطائرات والسيارات المسرعة، يوظِّف التكنولوجيا المتطوِّرة ليحقق نصرا تلو الآخر على الأشرار، وفي نهاية المطاف يفوز بالجميلات بطبيعة الحال، وأحيانا تتخذ أحلام يقظته طابعا رومانسيا أو حتى شبقيا، بل إن بعضها يتضمَّن مشاجرات مع «ألفا» ، يدحض فيها حججه الواهية ويحرجه إنسانيا ثم يستلذُّ بنظرة الانكسار والخجل في عيني البدين الكريه، كل هذا طبيعي ومعتاد، فالخيال عادة ما يعوِّض إخفاقات الواقع، لكن ما يقلقه اليوم هو هذا العنف الدموي... فلم يفطن مارتين من قبل إلى أن نفسه تخفي مثل هذه الشرور في طياتها المظلمة... ذلك الغيظ الدفين الذي أخذ يتعاظم حتى لم يعد من الممكن تجاهله.

يدرك أن الغضب لا يعدو كونه مرحلة متقدمة من مراحل الرعب، أداة يوظِّفها الجسد لحشد الأدرينالين استعدادا لدرء العدوان المتوقَّع، فيكون الجسد معدا للقتال أو الفرار، أيهما لا يهمّ، المهمُّ هو الرغبة في البقاء التي تعدُّ أم الغرائز، تعلَّم دروسه جيدا في أكاديمية الـ «إن إس إي» ، لكنه تعلَّم أيضا أن الأدرينالين لم يعد كافيا لمواجهة تحديات الحياة العصرية، بل إنه معوِّق في معظم الحالات، فالرجل الغاضب رجل ضعيف يسهل تطويعه لخدمة أغراض أجهزة المخابرات، غضبه أعماه فجعله فريسة سهلة، والشعوب الغاضبة كذلك، الثورات تنتهي في المعتاد بقمع مضاعف، والرجال الغاضبون يدمِّرون في النهاية أعزَّ الناس إليهم، إذن لماذا سمح هو لغضبه بأن يتملَّكه لهذا الحد؟

وما سر الخوف الدفين الذي ولَّد كل هذا الغضب أصلا؟

يلتفت سريعا إلى الشاشات أمامه، لعبة الـ «فري سيل» ليست منصوبة اليوم، هناك لعبة أخرى تأخذ مجراها، لعبة الواقع التي هي بجد أغرب من أي خيال، بل هي لعبة مجنونة كالكابوس، هكذا التكنولوجيا الحديثة... جعلت الكوابيس مشهدا مألوفا على الشاشات، لم يعد هناك ما يُدهش، عملية الاستجواب قد حُسمت منذ أكثر من ساعة لكن الآن ختامها أصبح وشيكا، الخطوات تتوالى كورق اللعب المرصوص في تتابع حتمي، لعبة كونية لا تعرف رحمة أو شفقة، عملية تطويع الهدف لم تسفر عن شيء يذكر، التعذيب قد نجح لكن بنجاحه أكد ورطة مارتين الشخصية...

التعذيب...

يكرر مارتين الكلمة في سرِّه، لكن ترديدها بدلا من « التطويع» حتى في كتمان دهاليزه الداخلية لا يخلو من المخاطرة، ناشطو حقوق الإنسان

والليبراليون الذين يدَّعون أن التعذيب غير مجدٍ لا يفقهون شيئا... الكارثة أن التعذيب مجدٍ – على الأقل في المدى القصير...

اللعبة أعقد مما يتصورون بكثير.

الحارس قد كشف كل ما في جعبته بالفعل، اعترف أنه ينتمي إلى عصابة إجرامية، لكن – للأسف – لا تربطها أي صلة بـ «ميكي ماوس»، هدفها اقتصر على اختطاف فتاة تدعى «ديدي» ثم تخلصوا منها بالبيع لشبكة من شبكات العبيد الأبيض، إذن فقدوا الصلة حتى بهذه الـ «ديدي»، أما «المخِّيخ» فلم يسمع به الحارس أصلا، يبدو كأن ظهوره بالصورة كان بمحض الصدفة... شخص وُجد في مكان غير مناسب في توقيت غير مناسب.

أصبح الآن على مارتين أن يعترف أن كافة الخيوط المؤدية لـ «ميكي ماوس» قد تقطَّعت، الآن عليه أن يعود بالعملية بأسرها لنقطة البداية، من حسن الحظ أن «ألفا» انصرف مع بدء عملية التليين، فمارتين يحتاج لوقت للتفكير، الموقف بأسره أصبح مقلقا... بل مخيفا.

لكن المشهد الذي يتابعه على الشاشة لا يمكِّنه من التفكير المنظَّم، يقحم نفسه عليه، ممرض الفريق المهاجم خرج من الغرفة، دوره قد انتهى، يستطيع مارتين تمييز أن الحارس ذا الجسد العاري – والرأس المعزول بإحكام – يبكي في صمت، ارتعاشات عضو رجولته أبلغ من الصراخ، ربما أدرك المسكين أن مصيره أصبح محتوما، ربما أصبح يتمنَّى ذلك المصير بدلا من الإذلال الذي يتعرَّض له منذ ساعات، الموقف يذكِّر مارتين بفيلم تسجيلي محظور عُرض عليهم في الأكاديمية، الفيلم عبارة عن حديث مطوَّل لأحد ضحايا التعذيب، جندي أمريكي ممن أسروا في الحرب الكورية، كان في منتصف العمر وقت التسجيل والذي تم بعد أكثر من عشر سنوات على انتهاء الحرب

وعودته لأهله، لكن جسده كان أيضا يصاب بالرعشات نفسها... هو الآخر راح يبكي في صمت كلما تراكمت عليه الذكريات المؤلمة.

«التعذيب أسوأ من القتل لأنه جريمة جارية تتكرر كل يوم وكل لحظة..». همس الجندي الأمريكي إلى كاميرا مصوِّر الـ «إن إس إي» ثم جزَّ على أسنانه مؤكدًا:

«أشعر أنني قُتلت بالفعل... لكنهم تركوني حيا نتيجة لخطأ فني ما... فأصبحت متيقِّنا في كل يوم وكل لحظة أنني ميِّت... حبيس في نفس جديدة لا أملك الفرار منها».

أدرك مارتين وقتئذ أن نتيجة التعذيب الحتمية إما تحطيم الإرادة أو تقويتها، وفي الحالتين تتبدَّل نفس الإنسان وتُدفن النفس البريئة الأصلية، فيظهر مخلوق جديد إلى النور.

التعذيب مجدٍ لكن المشكلة في حجم الدمار الذي يولِّده.

«كأنك تعيش في فيلم من أفلام الخيال العلمي... عندما يتقمَّص مخلوق دخيل من الفضاء الخارجي جسد إنسان إلى الأبد». قال الجندي الأمريكي – الذي لم يُذكر اسمه – قبل نهاية الفيلم التسجيلي مباشرة.

يصوِّب العميل المتبقِّي في الغرفة مسدَّسه الكاتم للصوت نحو رأس الحارس المغطَّى، يريد مارتين أن يضع يده فوق عينيه لكن بشاعة المشهد لا تُقاوم، لأول مرَّة يشعر برحمة اللثام الذي يستخدمونه مع مساجينهم، يريد أن يهتف للحارس أنت بجد محظوظ لأن النهاية ستكون سريعة، على الأقل لن يُترك لك عمر تعيشه كأنك في فيلم من أفلام الخيال العلمي... لن يستعمر جسدك مخلوق من الفضاء الخارجي.

يجد مارتين جسده يرتعد بقوة، الخراب الذي يولِّده الظلم لا يقتصر على الضحية بل يمتد للظالم أيضا، عدوى المعاناة الإنسانية لا تعترف بالحدود الدولية، ولا تفرِّق بين الأسياد والعبيد، لا يوجد حاجز يستطيع أن يصدَّها، ولا حتى حوائط الخرسانة المانعة للاختراق، الحاجبة للموجات الإلكترومغناطيسية...

الإعياء يتملَّكه مع سقوط الحارس العاري جثَّة هامدة أمامه على الشاشة، لكن ما هذا الاشمئزاز غير المسبوق الذي يزلزل كيانه... ولماذا؟ أليس هذا «الجانب المظلم» الذي وجَّه نائب الرئيس «تشيني» الأجهزة الأمريكية بأن تطرقه في أعقاب 11 سبتمبر؟

لا يدري إن كان تأثُّره البالغ مرجعه تأنيب الضمير أم الخوف من العقاب، في الحالتين لا يستطيع أن يلوم إلا نفسه، فكان مفهوما منذ البداية أن منظَّمته تعمل خارج نطاق القانون، نبهوه إلى مفهوم «الإنكار ذي المصداقية»، أي ضرورة إتاحة الفرصة للسياسيين أن ينكروا أي علم بوجود تنظيم الـ«كوبرا»، وبدوره أفهم العملاء على الأرض أنه في حالة القبض عليهم لا يمكن الاعتماد على الحكومة لنجدتهم، اسميا هذه المنظَّمة مقاول خاص – شركة أمنية بتسمية هذه الأيام.

كان يعلم كل هذا منذ البداية، القانون يمنح الحصانة للرئيس الأمريكي وكبار المسئولين من احتمالات المساءلة الجنائية مستقبلا، فكل قراراتهم في إطار الحرب على الإرهاب محصَّنة، لكنه لم يعفِ الجنود والضباط الصغار... هم وحدهم الذين سيذهبون للمقصلة... أما أمثاله ممن يعملون في الخفاء فلا حماية على الإطلاق.

لا حماية ولا احترام.

يخطر له أن اضطرابه لا علاقة له بمصير مصري مسكين لقي حتفه بشكل مهين على الشاشة منذ ثوان، فالرجل قاتل أجير، مجرم وعضو في عصابة إجرامية، ثم هو عربي مسلم أي بصراحة عدو – لنسمِّ الأشياء بمسمياتها– لا مجال هنا للتعاطف، أو ربما تتعاطف معه إن أردت كما تتعاطف مع صرصور قبل أن تسحقه بحذائك، لكن الأزمة أزمة مارتين ذاته، لم يعد يثق في أخلاقية ما يفعلونه، بل في جدواه، لقد تخطَّوا الحدود فبدأ يشكُّ في أنهم ربما لا يكونون أسمى أخلاقيا من الإرهابيين الذين يحاربونهم... حتى ثقته في نفسه بدأت تتآكل.

الآن تراوده الشكوك نفسها والمخاوف التي عبَّر عنها العميل «بيتا» قبل اختفائه... الكلام نفسه... لكن في سرِّه.

صحيح... فمَن تكون منظَّمته أصلا؟ من الذي يديرها ومن صاحب القرار؟ لا شك أن إمكانياتها هائلة، لكنه لا يعلم أكثر من هذا عنها شيئا، مركز الكوبرا يتلقَّى تعليماته من خلال رسائل إلكترونية بتوقيع «جون سميث» – اسم وهمي طبعا، يدرك الآن أن أحدا لا يرى الصورة كاملة، بل لا أحد يعلم مَن صاحب القرار أصلا.

قتلوا وعذَّبوا ودمَّروا... لكن العملية في النهاية باءت بفشل ذريع، ولا يعرف كيف يتصرَّف الآن، أو ماذا يقول للعميل «ألفا» عندما يحضر بعد قليل، يحتاج أن يفكِّر قليلا... لكن شرود عقله يضاعف من شعوره بالعجز، العملية قد عادت لنقطة الصفر، لا... إلى ما تحت الصفر، وهو لا يستطيع التكهُّن بالثمن الذي سوف يتكبَّده الأمن القومي الأمريكي نتيجة لذلك... أو الثمن الذي سوف يتكبَّده هو شخصيا.

لا يشعر مارتين بالأمان، فما الحدود التي سيتوقَّف عندها تنظيم خارج عن القانون أصلا... أنشئ ليفعل أي شيء وكل شيء دون ضابط أو رادع؟

يخطر بباله أنه بدأ يخشى من منظمَّته أكثر من خشيته من الإرهاب، لم يعد حتى يأمن على حياة سوزان وإيمي... لكن هذه أفكار مسمومة، مجرَّد مرورها في باله أمر خطير، يجب أن يطردها من عقله بأي ثمن... هو مصاب بالإحباط لا أكثر، عليه أن يستعيد الثقة، الإمبراطورية الأمريكية سوف تنتصر في النهاية، هذه حتمية تاريخية عليه أن يتيقَّن منها، هو وطني أمين يعمل جنبا إلى جنب مع آلاف الوطنيين الأمناء... وحتما سوف ينتصرون... يتذكَّر نصيحة «ألفا» بأن يتخيَّل إيمي عندما تكون الضحية الأولى لانفجار نووي، لكن الفكرة أبشع من أن تطاق، التفكير على هذا النحو سوف يفقده النصف السليم من عقله، ماذا يفعل وإلى من يلجأ...؟

بلمسات سريعة على الكيبورد يفتح أمامه على الشاشة الكبيرة دورا جديدا من لعبة الـ «فري سيل».

***

الجيزة
الجمعة 19 يناير 2007 – بعد منتصف الليل بقليل

يحرِّك مفتول العضال ذراعيه على شكل موجة فيما يعرف برقصة الـ«هولا»، ثم يرسل قبلة في الهواء إلى فتاة الحلوى، هي جالسة فوق أريكة من القطيفة الهافان داخل فيلَّتها الأنيقة، بشفَّاط مقلّم أبيض في أحمر تأخذ رشفات متمهِّلة من ميلكشيك بالفراولة، هو واقف في منتصف الغرفة يرى الدنيا من خلال أعين جديدة، لا يكاد يصدِّق الذي حدث ليلة أمس.

«**ما رأيك في ثوبي الجديد؟**» تنهض وتدور حول نفسها لتتيح له رؤية هيئتها الملفوفة من كافة الزوايا، ثم تستطرد:

«**كانت هناك تخفيضات معتبرة في المتاجر اليوم**».

الكلمات لا تسعفه فيطلق صفَّارة إعجاب مبرمجة، ثوبها أخضر زمردي، جميل صحيح لكن يعترف لنفسه بأن اهتمامه الأول ينصب على هيئتها الملفوفة التي تصرخ شبقا... هذه النظرة الغريزية جديدة عليه تماما.

«**أتعرف...؟**»

تبدأ لكن لا تستكمل السؤال إمعانا في التشويق.

يضغط علامة الإصغاء فيضع كفَّه خلف أذنه.

«الذي حدث بيننا بالأمس كان أجمل تجربة في حياتي». تقول ثم تعود لجلستها الأولى على الأريكة.

بمَ يردُّ؟ فهو لا يعرف حتى كيف يصف ما حدث، التجربة غير قابلة للمقارنة أصلا، فأي من أحداث السنوات الاثنين والخمسين التي يقاس بها عمره لا يصلح كمعيار لتوصيف ليلة أمس، لأول مرَّة يتوارى العقل وتحتلُّ الغرائز موقع القيادة، لأول مرَّة يدرك أن للجسد إرادة تُفرض وكلمة تُسمع، والآن يقف في منتصف الصالة الافتراضية ولا يعرف كيف يحتوي الانفعالات التي غمرت روحه قبل جسده، من حسن الحظ أن فتاة الحلوى قد اعتادت فترات صمته، بل تقبَّلتها ضمن منظومة عقلية حسيّة صنعاها معا... وكم أثارتهما.

«الذكاء يتجلَّى في كل كلمة تنطق بها... بل أستشعره حتى في لحظات صمتك». ثم تضيف:

«وكم يثيرني هذا».

«الذكاء...؟ هذا شرف لا أدَّعيه وتهمة لم أعد أستطيع أن أنكرها... فقد تعايشت معه رفيقا منذ أن تفتَّحت عيناي على الدنيا... حتى إن زملائي أيام الجامعة كانوا يطلقون عليّ لقب «المخِّيخ»... وإن كنت حتى هذه اللحظة لست متأكدا إن يكن ذلك على سبيل الإعجاب أم السخرية».

يردُّ بحماس، الزهو وقد تملَّكه، ذلك الشعور الذي لم يعهده من قبل، من المضحك أن الغرور لم يطرق بابه بفضل ابتكاراته العلمية وإنجازاته الميدانية بل بسبب كلمات على الشاشة جاءت على لسان دمية إلكترونية، بالضبط، لكن ما تلبث أن تظهر كلمة «المخِّيخ» على الشاشة حتى ينتابه إدراك بأنه تخطَّى خطا أحمر ذا قدسية ما، كسر تابو من تابوهات الكون الأكيدة وإن لم يشغل أحد نفسه بتعريفها بدقَّة، فقد ترك العنان لغرور قبيح...

يدرك الآن فجأة أن شهوة التكبُّر ظلّت تنمو في أحشائه على مرِّ السنين كجنين شيطاني يتحيَّن الفرصة للخروج إلى النور، بالضبط، ليهزَّ الاستقرار ويبثَّ الفوضى... نزعة زُرعت في نفسه قبل أن يولد، كمنت في بذرته الأصلية، غرسها أب قضى عمره وشعور ينخر في أحشائه بأن الدنيا أغفلته ولم تولِه ما يستحق من التقدير، أخيرا تتفتَّح عينا المخِّيخ على الحقائق، يفهم الآن أن سماحة أمِّه هي وحدها التي روَّضت وحش غروره الجامح، ولكن في الظاهر فقط، فمحرِّكه الأول كان دائما الطموح، وإلا لَما قبل أن يقوم بدور محوري في برنامج نووي دبَّر له حاكم مقامر... لا لحماية شعبه وإنما ليحصِّن به طغيانه الذي فاق كل وصف، بالضبط، ألم تتملَّك الدكتور مصطفى محمود قرني الشهير بالمخِّيخ الرغبة في أن يصرخ في وجه العالم كلِّه: انظروا يا ناس... انظروا ماذا أستطيع أن أفعل... انظروا ماذا فعلت؟

يلوم المخِّيخ نفسه قبل كل شيء لأنه سمح للحواجز أن تتهاوى، ذلك السد المنيع الذي يفصل بين عالمين، بين بعدين من أبعاد الوجود، بالضبط، الحاجز الضروري للحفاظ على تجانس النطاقين الداخلي والخارجي، لحماية كل منهما من شرور الآخر، سمح للمادة بأن تجتمع مع المادة المضادة، فأصبح عليه كعالِم السينما المجنون أن يطلق سلسلة ضحكات هستيرية... في انتظار

الانفجار المروِّع الذي حتما سوف يلتهم الكون.

لكنه كونه الداخلي هذه المرَّة، الأكثر غموضا والأقل ثباتا.

«المخِّيخ..». تردد فتاة الحلوى وراءه...

«هذا هو بالفعل الاسم الأنسب لك... من الآن فصاعدا سوف أناديك به».

«وسيكون ذلك طبعا على سبيل الإعجاب». تستطرد، ثم تطلق ضحكة إلكترونية ممتدة.

أبعاد إدراكه المتشعِّب تسري في شرايينه كصدمة كهربية، بدلا من أن تسعده كلماتها المداعبة تضاعف من قلقه، يقول:

«لا... لا تكرري هذه الكلمة ثانية... أرجوكِ... فهي تزعجني كثيرا... أشرت إليها فقط من فرط ثقتي بك... في إطار مصارحتك بأدق أسراري».

يصيغ عبارته بتمهُّل فتظهر على الشاشة كل كلمة وحيدة مترددة حتى تلحق بها زميلتها.

«أوكي يا حبيبي... كما تشاء... ما رأيك في نزهة على شاطئ البحر؟»

كلامها يبلسم جرحه، لكن أيمكن سحب الرصاصة بعد انطلاقها من فوّهة المسدَّس؟ أتعود عقارب الساعة للوراء؟ هل يصل البشر يوما إلى السباحة في الزمن ذهابا وإيابا؟ ولمَ لا؟ أليس الزمن في النهاية بعدا من أبعاد الكون كالمسافات تماما؟ أم أننا سوف نكتشف أن الفعل بمجرَّد حدوثه يكتسب وجودا أبديا ثابتا يستحيل محوه حتى لو تغافلنا عنه، أيأتي اليوم الذي يتقاطع فيه العلم مع الروحانيات بتبيان أن للفعل فراغا محفورا في نسيج الكون حتى قبل وقوعه؟

«غدا يا حبيبتي... أشعر بالنعاس الآن».

يقول العبارة المتعارف عليها بينهما للإشارة إلى أن العالم الخارجي يستدعيه... رغم أنه كان بإمكانه الاستمرار معها.

للمرَّة الأولى يجد نفسه يفرُّ من العالم الافتراضي إلى الواقع، يحتاج إلى وقت للتفكير، عليه أن يستوعب نتائج زلَّة لسانه، أتكون وساوسه غير مبررة فعلا؟ مجرَّد بارانويا تلقائية مصاحبة لاستيقاظ جانبه الحيواني بعد سبات عميق؟ ينهض من أمام الكمبيوتر ويتجه إلى الخارج.

يجد نفسه أمام باب طاهر، لا يصدِّق أذنيه، موسيقى كلاسيكية تنبعث منه، فيفالدي... معقول؟ إن الفتى يستمع للفصول الأربعة لفيفالدي، بالضبط، الدموع ترغرغ في عينيه، هذه ظاهرة جديدة عليه تثير دهشته، لا يذكر أنه أظهر للعالم انفعاله من قبل، ينصت وهلة، ينتظر حتى يتمالك نفسه، لا يدري إن كان سيقرع الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل، على أي حال يستمتع بأنشودة الكمان، إنه كونشرتو الربيع، بالضبط، بدلا من أن يسيطر على مشاعره يجد الدموع تنهمر على خديه...

أن تجد نغمات فيفالدي طريقها إلى بناية الست الطيّبة المائلة المغروسة في أحشاء مدينة حالها مائل من أولها لآخرها... هي معجزة في حد ذاتها... لكن الحظ قد شاء فوق هذا أن يكون كونشرتو الربيع هو الذي يستقبله لحظة وصوله... فالحياة عنيدة ترفض أن تنهزم، تنبض في الأعماق تحت طبقات القاذورات المتراكمة، بالضبط، نغمات فيفالدي تقف في وجه دبَّابات بوش وأيديولوجية المحافظين الجدد ومجازر إسرائيل... تتحدَّى زنازين صدَّام وزملائه من الطغاة وسادية جلاديهم... تهزأ من تشنُّج الإرهابيين ودسائس الولي الفقيه وتمويل المسيحيين الصهاينة في أمريكا... بالضبط، رغم النهب المنظَّم الذي ينخر في البلد من فوق ومن تحت، رغم السرقة والبلطجة وزنا

المحارم وأنين أطفال الشوارع المغتصَبين... الورود تنمو وسط مستنقعات المجاري رغم أنف الجميع... وعطرها يتحدى العطن ليملأ الدنيا أملا.

الباب ينفتح وطاهر يقف أمامه في سرواله الجنز والبلوفر الكشمير البني الذي يبدو كأنه خرج توا من غلاف أنيق عليه علامة أرقى بيوت الأزياء في ميلانو، الفتى يتفحَّصه في صمت، المخِّيخ متأكد أن صوتا لم يصدر عنه بما ينبِّه الفتى لوجوده، إذن لماذا اختار أن يفتح الباب الآن؟

«قلقان على ديدي». يتحدَّث بصوت خفيض بعد أن أغلق الفتى الباب عليهما، يعبِّر المخِّيخ أخيرا عن الشعور الذي ظلَّ يتسلل إلى قلبه قليلا فقليلا منذ التقى الفتاة الجميلة في الدقِّي قبل عشرة أيام، ذلك الشعور الذي يكاد الآن أن يتملَّكه تماما، خاصة بعدما أرسل للـ «مالك الجديد» رسالة يؤكد فيها أنه بصدد تدبير المبلغ المطلوب، ويستجديه بألا يسيء معاملة البنت البريئة التي لم تعتد البهدلة... أرسل أكثر من رسالة لكنه لم يتلقَّ ولو كلمة واحدة على سبيل الرد...

«واشمعنى الست ديدي بتاعتك اللي تقلق عليها يا أستاذ... هي أحسن في إيه من النشَّالات والمدمنات...؟ هي تزيد إيد ولا رِجل عن كوندوليزا اللي حضرتك داخل معاها في بزنيس الدعارة...؟ ما تسيب ديدي كمان تغرق زي البلد كلها ما هي غرقانة». يردُّ طاهر بحدَّة.

«ديدي أنا مسئول عنها... والتانيين ما فيش حاجة في إيدي اعملها عشانهم».

يتجاهل المخِّيخ إشارة الفتى إلى شراكته مع كوندوليزا رغم توجُّعه من الكلام... وتأله بدرجة أكبر من نظرة عيني الفتى، عليه أن يتجنَّب الآن مكاشفات الآخرين ومواجهات النفس، بالضبط، وعلى أي حال ما

جدوى الندم أو التبرير بعد هذا العمر كله؟ ثم إن مهمَّة صعبة تلحُّ عليه يتعيَّن إنجازها قبل أي أمر آخر، لا يمكن أن يسمح لنفسه الآن بالغوص في قضايا جانبية، المهمُّ أن تنجو ديدي حتى لو كانت البلد كلها تغرق – على حد تعبير طاهر، وهو لن يستطيع عمل أي شيء من أجلها دون مساعدة الشاب النحيف.

يلاحظ المخِّيخ الكليم المكنوس بعناية تحت قدميه، ألوانه بها وقار لا تخرج عن درجات البني، متناغم مع أشياء طاهر الأخرى، أهم شيء أن يكون الإنسان متناغما مع نفسه... بالضبط... وأن يكون صادقا...

يدرك أخيرا أن قضية ديدي أصبحت أهم قضية في حياته.

«إن كنت انت مسئول عن ديدي... أبقى أنا مسئول عن مين؟» يهمس طاهر كأنه يحادث نفسه.

«ديدي مخطوفة وحبيسة..».

«ما كلهم مخطوفين ومحبوسين..». يقاطعه الفتى.

«لا... اللي عاوزه تبطَّل دعارة في مقدورها... كل واحد حر في قراره... ويتحمّل مسئولية أعماله». كلام المخِّيخ لا يبدو مقنعا حتى في أذنيه هو.

ينفجر طاهر في وجهه:

«يا شاعر... يا عبقري الرياضيات... انت مش ممكن تفهم... لإنك ما اتولدتش هنا، ما فتَّحتش عينيك في مكان زي ده... في زمن أغبر زي ده... المشكلة مش في الفقر أو الدعارة أو المخدرات أو البلطجة... كل ده بسيط... الخطورة ان كل واحد بتقابله بيكره كل شيء... بيكره العالم كله... بيكره نفسه... حتى بيكره ربنا اللي خلقه..».

«أستغفر الله العظيم..». يحاول المخيخ أن يتغلَّب على صدمته من بركان الغضب الذي تحمله كلمات الشاب بغضِّ النظر عن المعانى – التي يعلم أنه لا يقصدها.

«لكن رغم كل ده انت بتسمع فيفالدي... مش ده في حد ذاته معناه إن فيه أمل؟» يقول بعد صمت ممتد.

ينطلق طاهر ضاحكا، الغضب يتبدد من معالمه في لمح البصر – تماما كما حلَّ عليها، الطيبة هي سمته الغالبة، تلمع فجأة كالذهب من تحت التراب، يقول:

«موسيقى فيفالدي مناسبة جدا لحياة المصريين... هو كان بيألفها عشان يعزفوها في فينيسيا وقت الكرنڤال... الرجالة والستات لابسين أقنعة وماشيين يبصوا لبعضهم من تحت لتحت... ويقيموا علاقات مشبوهة... كل هذا على نغمات فيفالدي... أما احنا فحياتنا كلها أقنعة... وعلاقات مشبوهة... إحنا بقى حياتنا كارنڤال في كارنڤال..».

«بالضبط، يبقى مش ناقصنا غير موسيقى فيفالدي». يقاطعه المخِّيخ ضاحكا.

ثم يهبط السكون عليهما فجأة، يخيَّل للمخيخ أن صوتا أجش ينادي من بعيد، يدرك بعقله أن الكلام ليس موجها إليه، بكل تأكيد، فكيف يكون موجها إليه؟ لكن قلبه يقول عكس ذلك، في الكلمات رسالة ما... له ولغيره، الصوت يكرر عبارته العبثية اليائسة، لم يعد المخِّيخ يستطيع أن يتحمَّل بحَّة الصوت الفريدة، بالضبط، لم يعد يستطيع...

«المركب بتغرق يا قبطان». يردد الصوت مرَّة ثالثة دون اكتراث بما يسببه للمخيخ من غثيان.

«السنيور اتصل بيا.... البيعة حتّم بكرة بعد الضهر». يقول طاهر دون مقدِّمات، ربما قرأ اليأس على ملامح المخِّيخ فأشفق عليه.

«كنت ناوي أعرَّفك في الصبح... المبلغ حيغطي ويفيض». يضيف برفق.

«إذن لازم نحرر ديدي بكرة... محتاج ارتِّب عملية التسليم والتسلُّم... مش لازم نضيّع لحظة». يقول المخِّيخ على الفور، رغم أنه لا يعلم حتى إن كان سيتلقَّى ردا من الـ «مالك الجديد».

تهدأ موسيقى فيفالدي بقدوم الحركة البطيئة لمعزوفة آلة الـ « فيولا»، كأنها أدركت أن نقطة تحوُّل ما قد تم اجتيازها، كلب يعوي من مسافة، يردُّ عليه على الفور كورس صاخب من النباح، يبتسم طاهر قائلا:

«تعرف فيفالدي كان بيسمي الحركة دي إيه؟»

«نباح الكلب». يردُّ المخِّيخ وينطلق الرجلان في ضحكة تبدد هموم دنياهم ولو للحظة عابرة.

***

الفصل الحادي عشر

شارلوت - كارولاينا الشمالية
الخميس 18 يناير 2007
الساعة 19:48 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

«يطلقون عليّ المخِّيخ».

أصداء العبارة ترنُّ في أركان الكون الموازي، ترتجُّ بها إلكترونات الوجود المعلوماتي، تنبض بها ترددات إلكترومغناطيسية تدور حول الكرة الأرضية في لمح البصر... وبما تحمل من قيمة استخباراتية فريدة لا تغيب عن أنظار صقور المراقبة، لا يمكن أن تفلت، فطريق المعلومات السريع لا يخلو من التقاطعات، وهي المفاصل التي تهيمن عليها خوادم شركة «سيسكو» الأمريكية، التي تلتقط كلمة «المخِّيخ» من بين بلايين التدفقات المتداخلة كدجاجة تلتقط حبَّات الذرة من بين جزيئات الرمل اللانهائية، فتعيد الخادمات بثَّها عبر أميال من كابلات الألياف الضوئية، وأقمار صناعية تناول أقمارا صناعية، وموجات لاسلكية تبرق من الفضاء لتخترق طبقات الغلاف الجوي... حركة دءوب صامتة صارخة في آن توصِّل الكلمة الذهبية لكمبيوتر مركز الأشباح ذي القدرات التحليلية المضاعفة، والذي يبرزها على الفور في مستطيل أحمر يطفئ ويضيء يتوسَّط شاشاته كافة.

يخرج مارتين من المطبخ وفي يده مَج به قهوة، يتجمَّد أمام الشاشات بضع ثوان، ليس متأكدا إن كان ما يراه على الشاشة حقيقة من إنتاج الواقع أم أنه يمرُّ بحلم من أحلام اليقظة، يضع المَج على الطاولة ويضرب الكيبورد بأصابع متسرِّعة، عليه أن يتأكَّد، صحيح هو يعلم أن لقب «المخِّيخ» ليس شائعا على الإطلاق، لكن كل شيء وارد على النت، ثم إن في مهنته على الأخص الحرص واجب، لكن لو صحَّ وكان هذا فعلا هو «ميكي ماوس» فقد وقع في المصيدة، أتى إليهم بقدميه ليلعب على ملعبهم، يكون الوضع قد انقلب رأسا على عقب... أيمكن لمارتين أخيرا أن ينتشل النصر من بين فكَّي الهزيمة؟

لكن عليه أن يتحقق قبل أن تأخذه النشوة في سكرها...

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية
الخميس 18 يناير 2007
الساعة 21:00 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

من خلال الممر المسحور الذي ينفرج بانزلاق حوض الحمام يدلف «ألفا» إلى مركز الأشباح حاملا دلوا كبيرا من البلاستيك عليه علامة محلات «كنتاكي» لوجبات الدجاج السريعة.

«مساء الخير جاما». يخلع سترته الجلد المبرية ويعلِّقها على عمود المعاطف المعدني إلى جوار سترة مارتين التويد ثم يتقدَّم نحوه متأبِّطا دلوه المخصص لغذاء أسرة بكاملها.

لا يردُّ مارتين التحية رغم أن هذه أول مرَّة منذ زمن يحييه «ألفا» فيها عند الحضور، يكتم شعوره بالزهو بصعوبة، يريد أن يمطَّ لحظة الانتصار بقدر الإمكان، أن ينتظر حتى يبادره البدين باللوم أو على أقل تقدير بشيء من تنغيصه المعتاد، فيفحمه بردٍّ يؤكد حرَفية مارتين وتفوُّقه في فنون الاستخبارات، كلمات مقتضبة يردُّ بها على كل الإهانات التي تحمَّلها في حياته المهنية بدءًا من طرده الموجع من الـ «إن إس إي»... لكنه لا يستطيع أن يتمالك نفسه أكثر من هذا، بجد سينفجر لو بقي على صمته للحظة واحدة أخرى، يجد نفسه يقفز على إيقاع غير مسموع في منتصف الغرفة في رقصة أشبه برقصات النصر عند الهنود الحمر، يغني:

«يطلقون عليّ المخِّيخ... يطلقون عليّ المخِّيخ..».

***

الجيزة
الجمعة 19 يناير 2007 - بعد الصلاة مباشرة

«لو مرَّ أمامك طابور فيه كل سكان مصر فإن الصف لن ينتهي أبدا... تعرف السبب يا طاهر؟»

لا يدري المخِّيخ لماذا يشغل عقله بهذه الحسابات الرياضية التي لا جدوى منها على الإطلاق، كل فكرة تخطر في باله يحوِّلها إلى مسألة حساب تبحث عن حل، هذه عادة كان يعتبرها في شبابه شكلا من أشكال الهروب من الواقع، لكنه الآن بدأ يدرك أن الأرقام والحسابات هي بالنسبة له الواقع بعينه، كل ما عداها شوشرة، كضوضاء الموجات الكونية التي يتعين على علماء الفلك تحييدها أولا، حتى يستطيعوا تكوين صورة سمعية للفضاء الخارجي من خلال مراصدهم، الأرقام هي حقيقته الوحيدة، بالضبط، حقيقة كان يدركها في قلبه لكنه أخفاها عن نفسه، فالرياضيات مآله الأخير، وسوف يأتي الوقت حتما الذي يتخلَّص فيه من الشوشرة ويعيش بالأرقام حياة كاملة مكتملة، بها ومعها، بالضبط، المسألة في النهاية مسألة وقت، حبَّات الرمل كادت أن تنفد من نصف الساعة العلوي... ووقت الانقلاب أصبح وشيكا.

«المسألة تتلخَّص في العلاقة بين معدَّل تزايد السكان والسرعة اللي بيتحرك بيها الصفّ». يردُّ الشاب بعد تفكير، يعضُّ شفته السفلى.

صوت طاهر خافت أكثر من المعتاد، وجهه به شحوب، يتابع المخِّيخ ترقُّبه دون استغراب، فاليوم تتم الصفقة مع السنيور؛ لذلك كان ينتظر حضوره لغرفته ليستأذنه الشاب في باقي القطع الذهبية حتى ينجز المهمَّة.

«بالضبط... يعني الستات بتوعنا ما شاء الله «بيزربوا» العيال أسرع من سرعة تحرُّك الطابور».

لا يعلم المخِّيخ إن كان بحديثه هذا يخفِّف من حدَّة توتُّر الفتى، أم أنه يؤجل ساعة الحسم لتخوُّفه هو من نتائجها المحتملة، الموقف الذي يتأهب له ليس لقاء طاهر مع السنيور لإنهاء صفقة العملات، لكن لقاءه هو مع زعيم العصابة الإجرامية التي تحتجز ديدي – «المالك الجديد» كما يحلو للمجرم تسمية نفسه – والتي تحدد موعدها بعد ظهر الغد.

لم يتمكَّن من ترتيب عملية تسليم الفدية وتحرير ديدي اليوم، الرجل ذكَّره في الرسالة الإلكترونية التي تفضَّل عليه بها أخيرا أن الجمعة عطلة رسمية... يا سلام... قال يعني وكيل وزارة الاتجار بالبشر.

بالضبط... أكثر ما يؤرقه هو موضوع ديدي، ماذا فعلوا بها؟ وكيف سيكون حالها بعد تجربة الأسر المريرة؟ وماذا يحدث لو استولت العصابة على الفلوس وامتنعوا عن الإفراج عنها؟

«لكن الكلام ده بافتراض ان معدَّل الزيادة السكانية ثابت... بس هوحتما حينقص». يردُّ طاهر ربما لمجرَّد أن يسايره في ألعابه الذهنية، لا يشير الشاب إلى موضوع ديدي أو حتى إلى الهدف المباشر من زيارته اليوم.

«حينقص ازاي وفيه شيوخ عمَّالين يبثوا التخلُّف من الميكروفونات؟»
المخِّيخ يسحب كرسيه المتهالك ويجلس عليه.

«العقل في النهاية حينتصر... حتى على الشيوخ... الحقائق بتفرض نفسها». يردُّ طاهر بحماس.

يسترخي هو الآخر على سرير المخِّيخ المفروش بعناية، ثم يستطرد بحماس مضاعف:

«لما الكنيسة اضطرت جاليليو للتراجع عن نظريته بإن الشمس مركز المجموعة الشمسية بدلا من الأرض، نجا بحياته صحيح... لكن عارف عمل إيه؟»

تعبير «المالك الجديد» يزنُّ في عقل المخِّيخ بشكل مضاعف، قد تعامل مع اللقب الذي يطلقه زعيم العصابة على نفسه بوصفه تعبيرًا مأساويًّا في ظرف مأساوي من أوله لآخره، لكن جسامة التعبير تصدمه مجددا، الرجل يقصد أنه مالك ديدي الجديد، بالضبط، أي أن البشر عادوا سلعة بعد ما يزيد على قرن من إلغاء العبودية... يعني ديدي أصبحت هي الأخرى تخضع لقوانين السوق... بالضبط... تباع وتشترى... تقطَّع إربا وتسوَّق أعضاؤها... وربما حتى تؤجَّر بالساعة إن كان ذلك مربحا.

المخِّيخ في شروده لا يردُّ على طاهر، فيستكمل الشاب:

«عدد من المؤرخين بيقولوا إنه أسس جماعة سرية سمّوا نفسهم «إيلومينايتي» يعني المستنيرون... هدفها التنوير والعقل والحد من سيطرة رجال الدين، وبيعتقدوا إن الفضل فيما أنجزته الحضارة الغربية بعد كده من قيم ليبرالية ديمقراطية... يرجع إلى الجماعة دي».

«وإيه علاقة الحكاية دي بالشيوخ بتوعنا؟» لم يعد المخِّيخ في تشتته الراهن يستوعب الكثير مما يرمي إليه الشاب، ليته يقصر كلامه على المعادلات الرياضية.

«إن كان فكر أسامة بن لادن امتداد لجماعة الخوارج، فعلينا احنا يا مثقفين ننظَّم نفسنا في حركة تنويرية حديثة – حتى لو كانت سرية – وزي ما كانت المطبعة الأداة الرئيسية للإصلاح في المسيحية... فالنت ممكن تكون الأداة الرئيسية للإصلاح في الإسلام». يتحدَّث الشاب بصوت خفيض لكن به جدية.

«ما لي أنا وما للكلام ده؟» يقول المخِّيخ ناهضا من على كرسيه.

«أنا علماني متصوِّف». يردد في سرِّه.

يتفق مع طاهر في أن كوندوليزا والشيخ الورور وأمثالهم يصلُّون خوفا من العقاب وطمعا في الثواب، على العكس منه، فهو يتعبَّد – دون أن يلتزم بطقوس دينية محددة – حبا في الخالق، بلا رغبة في تحقيق أي مكسب آنٍ أو مؤجل، بالضبط، هو تديُّن حقيقي لأنه مطلق يعتبر الخالق خيرا مطلقا... لكن المخِّيخ لا يستطيع أن يتقبَّل الحل الذي يطرحه طاهر؛ لأنه لا يقبل أن يتحوَّل الدين إلى ساحة للصراع الأيديولوجي، وعلى أي حال فهو ليس بحاجة إلى نشر أفكاره أو إقناع الآخرين بها، فليبحث كل إنسان عن حقيقة الوجود بطريقته، لماذا لا يترك الناس الدين في نطاقه الشخصي؟

لم يعد يحتمل الاستمرار في مثل هذه المهاترات مع طاهر، تعبير «المالك الجديد» يزلزل كيانه... المالك الجديد... يا للقبح والوقاحة... مصر كلها أصبحت رهينة للملَّاك الجدد... ملاك السياسة... وملَّاك الفلوس... وملَّاك الدين...

«خلينا في الجد... حجيبلك باقي العملات». يتجه المخِّيخ إلى سترته ويسحب العملات الذهبية من الجيب.

«أفضَّل انك تكون معايا عند السنيور... وبعدين ما تخليش الكلام عن جاليليو وكنيسة روما يقلقك يا أستاذ». يصمت طاهر وهلة ثم يستطرد:

«المسئولية كبيرة... وعلى أي حال المشوار مش بعيد..».

يتحدَّث الفتى دون أن ينظر إليه مباشرة، ينهض من على السرير ثم يمرُّ بيده على الغطاء ليعيده إلى تنسيقه الأول.

لا يعلم المخِّيخ لماذا يخطر «الدكتور» صاحب نظَّارة المارينز في باله، أيمكن أن نطلق عليه إذن «المالك الأصلي»؟ يدرك أن طاهر على حق، يكفيه ما قام به بالفعل وما سوف يقوم به أيضا، فكيف يلقي عليه مثل هذه المسئولية الثقيلة؟ يعيد العملات إلى جيب السترة ويرتديها.

«وهو كذلك». للحظة عابرة يتقمَّص المخِّيخ أسلوب زعيم العصابة الذي تسبب في هذه المأساة من أصلها.

***

«يحصل إيه لو أخدوا الفلوس وما حرروش ديدي؟... بالأخص إنها ممكن تكشف العصابة ونشاطها لو سابوها». يقول طاهر بعد أن انسلخا من زحام الميكروباص فوق كوبري 15 مايو.

المخِّيخ لا يردُّ، يعرف أن الفتى على حق لكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ يتبع طاهر في صمت إلى السلّم المؤدي إلى شارع 26 يوليو، لم يشهد الزمالك منذ عقود، عشوائية القاهرة قد غزت الحي الذي كان فيما مضى يضرب به المثل في الأناقة، بالضبط، كثافة الزبالة لا تقلُّ كثيرا عن حارة الست الطيّبة، بقايا دماء متجلِّطة على الرصيف لم يتم تنظيفها منذ مذبحة الخراف في العيد، البنايات

متهالكة والمجددة منها غير متناسقة، حتى إن الأدوار التي تم تعليتها في بعض العمارات من طراز معماري معاكس للمبنى الأصلي، والحكاية نفسها على مستوى الشقق في البناية الواحدة، تشطيب واجهة كل منها مختلف عن الأخرى، الفوضى تلتهم كل ما في طريقها، القاهرة عاصمة الـ «إنتروبي» العالمية، أمامه الدليل العملي للنظرية العلمية التي تؤكد أن الفوضى سوف تعمُّ حتما الوجود كله، بالضبط، وما المشكلة في ذلك؟ صراع الحياة المستمر لإيجاد رقعة من النظام وسط فضاء الموت اللانهائي... هو صراع مؤقت على أفضل الأحوال، فالحياة حتما تستسلم للموت، المنتصر والمهزوم يتساويان في النهاية، والظالم والمظلوم في لمح البصر يتبادلان المواقع.

أليست الفوضى هي المحيط الذي يطفو عليه قارب النظام؟ وأليس مصير كل قارب الغرق؟

يسير خلف طاهر كطفل مقاد إلى المدرسة، كلام الشاب قد فتح في وجهه صندوق «باندورا» الذي ظلَّ يؤجل الاقتراب منه ربما لأكثر من اللازم، فتنطلق الأفكار المسمومة كوابل من مدفع رشاش موجَّه إلى قلبه... لكن ليست هذه هي المشكلة، المشكلة أنه غير متأكِّد أن السيل القاتم الذي يجتاح نفسه هو فعلا نتاج للمسار العقلاني للأفكار... بالضبط... أيكون بداية انزلاقه هو أيضا في النهر ذاته الذي جرف أمَّه من قبل... خطوته المنتظرة في طريقه المرسوم؟

«ما تقلقش يا شاعر... كل شيء حيبقى تمام». يقول طاهر متبتا على ذراعه، فيدرك المخِّيخ أن هواجسه قد فاضت حتى فضحتها تعبيرات وجهه.

دكّان السنيور في شارع جانبي ضيِّق مكتظٌّ بالسيارات المركونة، يدلف طاهر إلى الداخل دون تردد، لكن المخِّيخ يتلكأ وهلة بالخارج، الدكَّان عتيق كما توقَّع، واجهته ضيقة متربة بالكاد تُظهر مجموعات الطوابع التي تزدحم

بها، بعض العملات الصدئة مبعثرة فوق رفٍّ خشبي مثلَّث على مقاس الركن، لا يعرف لو كان طاهر اصطحب كوندوليزا إلى هذا المكان المسحور، يحاول أن يرى الثرينة من خلال عيني العاهرة الشابة، الألوان والأشكال المتداخلة للطوابع البريدية، أسماء غريبة لبلدان لم تسمع عن غالبيتها من قبل، شيء يزغلل العقل، بالضبط، من خلف الزجاج المترب آلاف النوافذ تتفتَّح أمامه على التاريخ والجغرافيا، ملايين القصص، ما لا نهاية من الاحتمالات... تطلُّ عليه رأس الملكة «بسبس» في شبابها بتاجها الإمبراطوري... أخيرا بدأ يتفهَّم كيف أعادت الطوابع لكوندوليزا حريتها، كيف أنها أصبحت بمثابة طوق النجاة بالنسبة لها.

قبل أن يلحق بطاهر في الداخل يلاحظ غياب لافتة باسم الدكان، كان يمكن له أن يمرَّ أمامه عشرات المرَّات ولا يلاحظ وجوده أصلا، كمصباح علاء الدين يحوي الدنيا لكنه اندفن في الرمال وغطَّاه الصدأ.

«سلام ورحمة الله». يردُّ الرجل الأبيضاني بلهجة مصرية يشوبها أثر للكنة أجنبية.

السنيور عتيق كدكّانه – بل ومهنته أصلا، يرتدي بدلة كاملة من صوف ثقيل لونها رمادي، وكرافتة مقلّمة رمادي في أسود، يغطِّي رأسه بـ «بيريه» من الصوف أيضا، يتفحَّص المخِّيخ دون مواربة من خلال نظَّارته ذات الإطار المعدني.

طاهر يشير للمخيخ بأن يخرج العملات، فيرصُّ التسع في ثلاثة صفوف داخل دُرج قليل السمك مبطَّن بالقطيفة الحمراء وضعه السنيور فوق السطح الزجاجي أمامه.

يلبس السنيور قفّازا طبيًّا، ثم يرفع إحدى العملات ويضعها في بؤرة جهاز يضيء العملة ويكبِّرها، يميل ثلاثتهم نحوه ويحدِّقون في العملة المكبَّرة، يشير السنيور إلى الكلام المنقوش بها بالخط الكوفي، يمرُّ بإصبعه المغطَّى بالقفّاز على السطور الدائرية الثلاثة بدءا من أولها بمحاذاة حافة العملة وحتى ثالثها قرب مركزها.

«زي ما يكون دينار المُعِز». يقول السنيور دون أن يرفع عينيه عنها.

«دينار من الدولة الفاطمية يعني؟» يسأل طاهر باهتمام.

«مش أي دينار من الدولة الفاطمية... دي عملة نادرة جدا أصدرها المُعِز لفترة وجيزة... وبعدين تراجع الفاطميين عنها».

«يعني إيه؟» يستفسر المخِّيخ وقد أثار كلام الرجل فضوله.

«بص». يشير طاهر إلى كلمات منقوشة على العملة.

بفضل المجهر يميِّز المخِّيخ بسهولة عبارة «علي بن أبي طالب ولي الله».

«زي ما انت عارف... الفاطميين كانوا من الشيعة الإسماعيلية... لكن الشعب المصري كان ولا يزال من أهل سنة..». يوضِّح السنيور بلكنته اللطيفة.

«يعني دي العملة الوحيدة اللي الفاطميين طلَّعوها وعليها: علي ولي الله؟» ضربات قلب المخِّيخ تتسارع.

يهزُّ السنيور رأسه بالإيجاب، ثم يعيد الدينار إلى الدرج القطيفة ويلتقط آخر.

«الشاري واثق ان العملات فعلا من العصر الفاطمي الأول... بيؤكد إن طريقة السك نفسها ما حدش يعرف يعملها انهارده». يهمس السنيور وهو يتفقَّد العملات واحدة تلو الأخرى من خلال عدسته المكبِّرة.

يلاحظ المخِّيخ أن الدكَّان يوحي بالاتساع رغم مساحته المحدودة، يُرجع ذلك إلى ارتفاع السقف، ولبريق كل الأسطح من فرط النظافة على عكس القترينة الخارجية التي كأنها تركت على حالتها هذه على سبيل التمويه.

«لغاية ما يوصل الشاري... عندي سؤال واحد محيَّرني... العملات دي كانت محفوظة فين كل السنين دي...؟ الطبيعي انها تكون معضعضة ومطوّسة..». يقول السنيور بهدوء وهو منهمك في فحص العملات.

« العملات كانت في جيبي..». يقاطعه صوت جميل لكن به حسم.

يستدير المخِّيخ فيندهش لرؤية الرجل العجوز ذي الطربوش خلفه بخطوتين، يشير الرجل إلى جيب سترته العلوي الذي يغطِّي قلبه، يستطرد مبتسما:

«وهنا لا يمكن الدهب يطوّس أو يجرى له حاجة».

«أهلا يا حاج كنا في انتظارك... العملات موجودة... حضرتك حتشتري؟» يسأل السنيور بأسلوبه المباشر.

«لا... ده دين بسترده». يحدج العجوز المخِّيخ بنظرة تثقب قورته.

«بس حضرتك... كنت قلت إن الفلوس دي دين عليك ليّا». يقول المخِّيخ.

لأول مرَّة في حياته يردد كلاما غير منطقي.

«هو انت كنت سلفتني حاجة يا مصطفى؟» يسأله العجوز ببساطة، وجهه به سماحة رغم صعوبة الموقف، ثم يتجه للدرج المبطَّن بالقطيفة.

يمرُّ على بعد ملليمترات من طاهر ثم المخِّيخ دون أن يمسَّ أيًّا منهما.

«لا... بس في نبت مطفوخة سمئوليتي أرححها..». يقول المخِّيخ بتردد، ثم يتضاعف ارتباكه عندما يستوعب أنه بدأ يقلب الكلام، تلك اللازمة التي جعلته مثارا للسخرية أيام الشباب، وتصوَّر بعد جهد كبير أنه تغلَّب عليها نهائيا.

«هو الدهب اللي حيخليك تتحمل مسئوليتك يا مصطفى؟» لهجة العجوز خالية من غضب أو تأنيب.

يتحدَّث ووجهه على بعد سنتيمترات لكن المخِّيخ لا يلمس نفسا يخرج منه، ثم يتَّجه العجوز للسنيور ويسحب العملات الذهبية من أمامه، وببساطة يضعها في مكانها في جيب سترته العلوي.

السنيور يتَّجه بنظره للمخيخ، فلما يجد صاحب الشأن قابلا لا يتدخَّل.

«لحظة يا حاج... من فضلك». طاهر يمدُّ يده نحو ذراع العجوز ليستوقفه قبل أن يخرج من باب الدكَّان، لكنه يسحبها كالمصعوق بالكهرباء دون أن يمسَّه.

«لسه فاضل واحدة». يقول الشاب وحاجباه مرفوعان في دهشة، ثم يخرج الدينار الذهبي الباقي من جيبه.

«البشر عاملين زي البغال المحمّلة بالدهب... عمرها ما تمتلكه... مجرَّد واحد يسلمه للتاني». يقول العجوز دون أن يأخذ العملة من يد طاهر الممدودة، ثم يختفي من الباب بخفة لا تتناسب مع سنه.

«وانت يا أستاذ نويت تبيع... والا هيتحسب علينا اليوم بخسارة؟» يوجِّه السنيور كلامه لطاهر بلغة معلِّم في حلقة السمك، لكن مع هذا لا يستطيع أن يتخلَّص كلية من لكنة خواجات زمان.

الشاب يقلِّب العملة الذهبية في كفه ولا يقول شيئا.

يراقب المخِّيخ الأحداث المتتالية كأنه غير معني بها، لا يشعر بـأدنى حرج في مواجهة نظرات الشاب الحائرة... أم اللائمة؟

الحرج... ذلك المارد الذي ظلَّ طوال العمر يصارعه، لكنه اليوم قد تبلَّد، فقد الإحساس بالمرَّة، وما جدوى المشاعر فالكارثة قادمة لا محالة، كان يعرف في أعماق قلبه أن المسألة مسألة وقت، بالضبط، كيف ينسى أن المرَّات القليلة التي شهد فيها أباه يبدو عليه الحرج كانت كلها مرتبطة بإشارة ما إلى عقيل؟ الرجل الذي كان لا يأبه إطلاقا بما يقوله الناس وهو يخرج إلى الشرفة «بالفنيلة والكلوت» يوما بعد يوم وسنة بعد سنة، ينكمش في نفسه كتلميذ تبوّل في ثيابه وسط الحصَّة لمجرَّد أن يسأل أي شخص من خارج المحيط المباشر للأسرة عن حال عقيل، كأن أخاه المتخلِّف جسَّد العار بكل معانيه، بالضبط، كأن فقدان العقل هو المصير الوحيد الذي يوصف بأنه أسوأ من الموت... وهي القاعدة التي جاءت أمُّه فأكدتها بعدها بسنوات عندما تخلَّت عن الصواب هي الأخرى.

أما عن فقدان الذهب... فالبشر كما قال العجوز... بغال.

«إيه قرارك يا شاعر... نبيع؟» يسأله طاهر في شرود.

«تعفر يا هاطر ملادعة $z = z^2 + c$؟»

لم أقصد أن أتخلّى عنك يا أمي... الكلمات تتخلل عقل المخِّيخ المتعب... أم يكون صوته مسموعا لطاهر والسنيور؟ أتكون عملته مكشوفة أمام العالم؟ أن أتركك في مصحَّة عقلية دون متابعة وأسافر للعراق، ولا أسأل عنك أو حتى أتابع كيف يعاملونك... أكتفي بسداد الفواتير من بعيد... عملة لا تغتفر، بالضبط، لكن خوفي الوحيد كان من الجنون، كنتِ تذكرة لما حتما سوف أؤول إليه، كان جبنا يا أمي والله... لا جفاء أو قسوة، بالضبط، بطش صدَّام المحتمل كان أرحم لي من النظر في المرآة.

«دي معادلة لورنز يا شاعر... بتاعة تأثير الفراشة... بس السنيور مستني قرارك». صوت طاهر يعيده لدكان صغير لكنَّه أكثر اتساعا مما تفرضه أبعاده المادية.

جميل... الرياضيات... دائما الرياضيات... ما أجمل المعادلات والأرقام والأفكار المجرَّدة...

كلام الشاب يؤكد أنه لم ينطق بالأفكار التي تدور في عقله، يشعر المخِّيخ بالارتياح، لم يصل بعد لمرحلة انهيار الفواصل، لا يزال السد متماسكا... فاصلا منيعا بين الداخل والخارج.

أمُّه ماتت قبل سنوات لكن لا يدري أين عقيل اليوم... أهو حي يرزق أم انضم إليها في بُعد آخر للوجود... أفضل كثيرا من دنيانا؟

لم يعد هذا مهمًّا الآن، لم يعد شيء مهمًّا... فمصير كل قارب الغرق.

ينظر إلى السنيور الذي يبادله التحديق، أي أمل في إنقاذ ديدي قد تبدد تماما، بالضبط، أما مصيره هو فقد أصبح في خبر كان، ثم يلتفت لطاهر قائلا:

«القرار قرارك يا عبقري... البغل ده سلّم حمولته خلاص».

يشعر بارتياح غريب لأنه لم يعد يهاب شيئا... والأهم من هذا أنه على الأقل لم يتلعثم في الكلام هذه المرَّة.

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية
الجمعة 19 يناير 2007
الساعة 10:52 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

أصابع مارتين ترقص الـ «تاب» على الكيبورد، بسمة خفيفة تزيِّن وجهه المشدود في انهماك عازف بيانو متمرِّس، منذ زمن لم يدخل مركز الأشباح بابتسامة عريضة كما فعل اليوم، ربما ضاعف منها تعبير الانكسار الذي استقبله به العميل «ألفا»، لم ينطق البدين بكلمة حتى انصرف، ترك مارتين ليمارس اللعبة التي كم برع فيها، الهدف قد أتى إلى ملعبه بقدميه، وسوف يحوِّله الآن إلى فأر في مصيدة.

يجول مارتين داخل فيلا «فتاة الحلوى» في العالم الموازي، أخيرا وصل إلى المكان الذي يتخلَّى فيه الهدف عن دفاعاته ويطلق العنان لمشاعره، ونقطة ضعف ابن آدم - كما لقَّنوه دوما - تكمن في مشاعره، من ينفذ من خلالها يستطيع أن يفرض سيطرته الكاملة، نحن ككائنات أقوى مما نتصور أحيانا... ولكننا أضعف في معظم الأحيان، بجد أضعف كثيرا...

أغنية أمريكية مألوفة ترنُّ في أركان غرفة المعيشة، الفيديوكليب الراقص يظهر على شاشة تحتلُّ الجزء الأكبر من الحائط، أثاث الغرفة عبارة عن أريكة واحدة صغيرة في مواجهة الشاشة، لا تسع أكثر من شخصين، طبعا فهذا عالم الأحلام، عالم الهروب بعيدا عن المسئوليات، لا مكان هنا للأطفال والعائلات، في الركن تمثال تجريدي فوق قاعدة بيضاء، التمثال منحوت من

رخام أسود، هو يرمز في الأغلب لقِط، عليه أن يعترف أن المكان يروق له، بسيط ونظيف، الأرضية مغطَّاة ببباركيه لامع والحوائط بها لوحات لكبار الفنانين العالميين.

«أكيد أن كلها أصلية». يحدِّث نفسه ويضحك بصوت مسموع.

رنَّة الضحك ليست مألوفة في مركز الأشباح.

يخرج إلى منطقة حوض السباحة، المساحة محاطة بسور صغير من الحديد المشغول لكن خارجه منظر طبيعي خلاب، يتأمل مارتين الهضبة الصخرية والشلال الصامت الذي يتخللها، المشهد يوقظ في نفسه حب المغامرة، كأنه خرج عن نطاق العالم المأهول وعاد إلى عالم لم يلوّثه الإنسان بعد، على الجانب الآخر للسور البحر ممتد إلى ما لا نهاية، يعود بالشاشة إلى حوض السباحة، بخار الماء المنبعث منه يشير إلى أنه مدفَّأ، يدعوك لأن تقفز فيه ليحتضنك الماء وينسيك هموم يومك، بينما أنت تستمتع بأصداء النغمات المنبعثة من غرفة الجلوس، أعلى درجات التحرر هي نفسها أقصى مستويات الوهم.

اثنان من الشيزلونج موضوعان أمام المسبح مباشرة، عليهما هيئتان في حالة استراحة تامة، يقرِّب مارتين الزوم عليهما، مهنته تحتِّم عليه أن يدرس شخصية كل منهما كطبيب نفساني، وأن يفحص جسديهما كجرَّاح يحضِّر لعملية، لا، عليه أن يدخل تحت جلديهما حتى يعرفهما كما يعرف نفسه، بل أكثر مما يمكن للإنسان أن يعرف نفسه.

الـ «أفاتار» الذي تقمَّصه «ميكي ماوس» في حالة بيات إلكتروني على الشيزلونج الأقرب لزاوية الرؤية، جسده ممشوق بشكل مبالغ فيه، عضلاته نافرة من تحت قميص أحمر مفتوح، قد أطلق «ميكي ماوس» على قرينه الإلكتروني اسم «مفتول العضال» لتأكيد المعنى، يتأمل مارتين صور الهدف الحقيقية التي تظهرها الشاشة اليسرى على الحائط، والتي قاموا بتحديثها بما التُقط مؤخرا... نحيل هزيل يرتدي ملابس فضفاضة أكثر من اللازم،

هيئته لا تزال هيئة طفل... رغم بلوغه منتصف العمر، ثم يستعرض كافة المعلومات التي بحوزتهم عنه.

«شيء متوقَّع تماما... محاولة بائسة لتعويض أوجه النقص البدنية التي يعانيها في حياته العادية». يقول مارتين بصوت مسموع، يهزُّ رأسه بثقة.

يعود للهيئة الإلكترونية الفتية التي اختارها الهدف ليعوِّض بها كل نواقص حياته، متأملا السلسلة الذهبية السميكة حول عنق «مفتول العضال» وشعره الأسود الطويل الذي يكاد يصل إلى الكتفين.

«اختيار غير معتاد لرجل شرق أوسطي... لكنه يعود فيبرز ذكورته من خلال شارب كثيف ولحية جزئية». تنقر أصابعه الطاولة.

يشتهي مَج من القهوة، لكنه لا يستطيع أن يترك هذا الكنز من المعلومات الذي يطلُّ عليه من شاشة اللابتوب، يقرر أن ينقل العالم الافتراضي إلى الشاشة الرئيسية على الحائط، لو كان ممكنا لتسلَّل بدنيًّا إلى داخل بيت «فتاة الحلوى».

يركِّز اهتمامه الآن على الفتاة صاحبة المنزل، ترتدي ثوبا أخضر يبرز قوامها الملفوف أكثر مما يغطيه، شعرها البرتقالي مفروش فوق نهديها كاملي الاستدارة وكتفيها العاريين، سندريلا من الرقَّة والحسيّة مستلقية على الشيزلونج في انتظار أمير الغرام الذي يحيي طاقاتها الجنسية الكامنة... فتاة الحلوى... اسمها طائف في الهواء فوق رأسها.

تعود أصابع مارتين إلى رقصتها السحرية على الكيبورد، في غضون ثوان تتوسط صورة امرأة خمسينية الشاشة اليسرى، تحتها في بضعة سطور بياناتها الشخصية الأساسية، لا تظهر الصورة جسمها لكن استدارة وجهها وتضخُّم لغدها يؤكِّدان أنها شديدة البدانة.

«موظَّفة في مكتبة في ولاية نبراسكا». يطلق ضحكة قصيرة لكن قرصات تأنيب الضمير تحدُّ من انطلاقها، فهو لا يستطيع أن ينكر أنه يقتحم خصوصية مواطنة أمريكية بريئة.

بنقرات سريعة على الكيبورد يحضر «فتاة الحلوى» إلى الحياة الافتراضية، تنهض من على الشيزلونج بسلاسة، يتأمَّل مقاييس جسدها التي لا يمكن أن تضاهيها أي امرأة على قيد الحياة، يخطر لمارتين أنه بهذه النقرات البسيطة قد سلب «باميلا» – واسم أمينة المكتبة البدينة الكامل هو «باميلا شوابسكي»– أجمل ما تملك في حياتها الكالحة، سرق منها «فتاة الحلوى» فأعادها امرأة تستخدم صبغة شعر رديئة، ليس لها رجل أو طفل، ولا يؤنس وحدتها غير زجاجة من الخمر الرخيص... بعد أن احتلَّ فيلتها الأنيقة لم يبقَ لها ملاذ في دنياها... باستثناء الشقَّة المتواضعة التي تعيش بها، والتي يفوح منها مزيج من رائحة الأحذية الكاوتش وهامبرجر ماكدونالدز بائِت من اليوم السابق.

لا يتخيَّل ماذا سيكون ردُّ فعلها عندما تفشل في استئناف حياتها الافتراضية، بجد لا يريد أن يتصوَّر تعبير الصدمة على وجهها عندما تفشل في الوصول إلى عالم شخصيتها الموازية، أتخلق لنفسها شخصية أخرى ثم تذهب بها لتبحث عن «فتاة الحلوى»؟ ثم ماذا تفعل عندما تجدها حية ترزق تمارس حياتها المرحة مع «مفتول العضال» كأن لا شيء حدث؟ يقرر إرسال فيروس فتَّاك للكمبيوتر الخاص بـ «باميلا شوابسكي»، هكذا سوف يعطِّلها بعض الوقت عن اكتشاف ما حدث لها.

لكن باسم مَن يفعل كل هذا؟... ولصالح مَن؟

كل هذا التخريب المتعمَّد...

المذهل أن التبرير الوحيد لجرائمه هو الدفاع عن الديمقراطية، كأن الدفاع عن «باميلا» لا يكون إلا بانتهاك خصوصيتها وبتخريب ممتلكاتها وتحطيم أحلامها.

يهمُّ للنهوض لتلبية نداء الطبيعة وإحضار مَج من القهوة من المطبخ، لكن قبل أن يتحرَّك من مكانه ينهض «مفتول العضال» فجأة من سباته العميق، يشعر مارتين أنه أخيرا يقف وجها لوجه أمام غريمه العبقري، هذه

مواجهة تشبه منازلة القتلة المحترفين في أفلام الكاوبوي، الأسرع في سحب المسدَّس والأدق في تصويبه هو الذي سينجو من الموت اليوم، لكن أداة القتل هذه المرَّة ليست الرصاص بل الذكاء المجرَّد، يطمئن مارتين نفسه بأنه مهما كانت قدرات «ميكي ماوس» العقلية... فإن تحصيناته قابلة للاختراق من خلال نقاط ضعفه البشرية.

«مفتول العضال» قال: حبيبتي كم افتقدتك.

أنت قلت: أحب كلامك المعسول... يا مخيخ.

ينتاب مارتين شعور غير مألوف وهو يتقمَّص شخصية امرأة... وليست مجرَّد امرأة عادية بل امرأة عاشقة.

«مفتول العضال» قال: أرجوك لا تعاودي استخدام هذا التدليل... سبق أن أوضحت لكِ أنه يضايقني.

إذن «ميكي ماوس» قد أدرك خطأه، بل يحاول أن يتلافاه، فات الأوان يا عبقري... ألم تدرك بعد؟ ومع هذا على مارتين أن يتوخَّى الحذر، فالهدف في حالة استنفار وتيقُّظ.

أنت قلت: حسنا يا حبيبي لن أكررها ثانية... أتعرف...؟ يراودني حلم... تصوَّر لو أخذنا علاقتنا إلى مرحلة جديدة؟

«مفتول العضال» قال: بعد تجربتنا الأخيرة لا أعرف ما هي المرحلة الجديدة التي يمكن أن نصل إليها.

لا يعرف مارتين شيئا عن هذه التجربة الأخيرة التي يتحدَّث عنها، لكن عليه أن يجاريه في الكلام.

أنت قلت: بالعكس... تجربتنا الأخيرة هي التي تدفعني لهذا.

«مفتول العضال» قال: إذن أنتِ تراجعتِ عن مبدأ الحرية المطلقة التي تتيحها الحياة الموازية؟

يتردد مارتين لحظة، لو أخطأ الآن... سينقلب النصر المتوقع إلى هزيمة نهائية، ينقر الكيبورد برفق:

أنت قلت: الحب هو المهم.

عبارة عامة لا تشي بعدم فهمه لما يتحدَّث عنه الهدف.

«مفتول العضال» قال: فعلا... الحب هو المهم.

يتنفَّس مارتين الصعداء، لقد بلع الهدف الطُّعم... المشاعر، هي دائما المشاعر، بجد نقطة ضعف البشر المؤكدة، يستجمع شجاعته:

أنت قلت: اخترت أول موعد لنا على أرض الواقع، لن يختلف كثيرا عن عالمنا الافتراضي... لأنك لن تكون معي إلا في الخيال... لكنني سوف أطلب مشروبا لك وأتخيَّل أنك جالس أمامي...

اليوفوريا التي تسيطر على مارتين منذ أن وردته عبارة «يطلقون عليّ المخِّيخ» تصل إلى ذروتها، ها هو يستدرج داهية نجح في الإفلات من أعتى أجهزة المخابرات على مدار سنوات، يخدع عبقريًّا، هكذا وبكل بساطة وسلاسة.

«مفتول العضال» قال: أرض الواقع...؟! لكن ما الذي ستضيفه لنا أرض الواقع... غير المتاعب ووجع القلب؟

أنت قلت: هكذا سيكون حبنا قد اكتمل... أتعلم...؟ لقد فصَّلت ثوبا في عالم الواقع هو نسخة طبق الأصل من ثوبي هذا.

تستدير «فتاة الحلوى» على الشاشة مستعرضة جمال ثوبها وشبقية جسدها، ثم يستطرد مارتين:

أنت قلت: تخيَّل... لو كنت موجودا في المقهى ستتعرف عليّ مباشرة.

«مفتول العضال» قال: لكنني لن أكون موجودا في المقهى... كيف يمكن أن أوجد به أصلا؟

قلب مارتين ينبض بعنف، لقد طرح أخطر عبارة في هذا الحوار فإن لم يكشف الهدف اللعبة الآن... فقد وقع في المصيدة لا محالة.

أنت قلت: لا يهم، المهم أن تعرف أننا قضينا يوما جميلا معا في عالم آخر من عوالم الخيال.

«مفتول العضال» قال: وأين سيكون هذا اللقاء... في فيينا الشاعرية أم فنيسيا الحالمة؟

أنت قلت: لا... سأترك فيينا للموسيقيين وفنيسيا للرومانسيين، أما أنا فأخيرا سأحقق حلمي بزيارة مصر... سوف أتخيلك أمام الهرم الأكبر تشرح لي أسراره الرياضية... بما لك من علم وعبقرية...

«مفتول العضال» قال: مصر... كم هي بعيدة... عموما يمكنكِ اعتباري معك على الأقل في خيالك...

الهدف يكذب، أيكون ذلك على سبيل الحذر أم أنه كشف اللعبة... ويعد العدة لأن يختفي عن أنظارهم إلى الأبد؟ حصرة البول تلحُّ على مارتين، يتردد وهلة قبل أن يردَّ، لكن «ميكي ماوس» يوفِّر عليه عناء التفكير بكلمات سحرية مطبوعة على الشاشة تُعد بجد أبلغ ردٍّ على سؤاله:

«مفتول العضال» قال: لكن مع هذا أرجو إبلاغي بالمكان بالضبط حتى أستطيع متابعته على «جوجل إيرث».

ينطلق مارتين مسرعا إلى دورة المياة قبل أن يفقد سيطرته على مثانته تماما، يظهر بعد ثوان دون أن يشدَّ السيفون خلفه، للمرَّة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة يمارس رقصة النصر لدى الهنود الحمر...

ثم يتمالك نفسه ويعود للكيبورد...

***

الفصل الثاني عشر

القاهـــرة
السبت 20 يناير 2007 – الخامسة إلا ثلث بعد الظهر تقريبا

افترق المخِّيخ عن طاهر وكوندوليزا داخل محطَّة مترو العتبة منذ دقائق تمهيدا لتسرُّب كل منهم إلى الشارع من خلال مخرجه المحدد وفقا للخطَّة...

تعبث أشعة الشمس بعيني المخِّيخ وعقله لحظة ولوجه بمفرده من باطن الأرض إلى النهار، شعور بانعدام الوزن يغمره ضاعفه عبء المهمَّة الملقاة على عاتقه اليوم، لكنه على الأقل قد تخلَّص من أي بقايا للتردد أو الخوف، الهدف تبلور أخيرا بعد عمر من التَّخبط، بالضبط، مهمَّة تحرير ديدي أصبحت – لسبب لم يحدده بدقة – تجسِّد محصِّلة طموحات حياته، الأمر الوحيد الذي يثير رهبته اليوم هو شبح الإخفاق... خاصة أن ثمن الفشل قد تضاعف مع تطوُّع طاهر وكوندوليزا من أجل إنجاح الخطَّة.

المسافة التي تفصل بين المخِّيخ – من محلِّ خروجه في بداية شارع عدلي من ناحية ميدان الأوبرا – ومكان اللقاء المحدد في جروبي لا تتعدى المائة متر، لكن كل خطوة منها محفوفة بالمخاطر، بالضبط، التهديدات بعضها واضح ومعلوم لديه، والبعض الآخر لم يستطع تحديدها بدقَّة، مما ترتَّب عليه اتساع احتمالاتها لتشمل كل كوابيس الدنيا، لكنها كوابيس بلا أنياب، فقد اكتشف

أخيرا أن شبح الموت مجرَّد نمر من ورق، أو للدقة تبيَّن له أنه مات وشبع موتا... وأن أي محاولة للتشبث بالحياة لا تعدو كونها وهما سخيفا.

يسير بحذر إلى جوار واجهات المحلات وبسرعة متوسطة لا تلفت النظر، لكن لا يحاول أن يستطلع إن كانت هناك أطراف تراقبه، لن يفلح في الأغلب في اكتشاف من يتابعه بأساليب المراقبة الحديثة، ثم إنه لو نجح فلا جدوى من ذلك على أي حال.

عندما جاءته كوندوليزا مساء أمس اصطحبت طاهر معها لأول مرَّة، فتجلَّت أمام المخِّيخ أخيرا أبعاد العلاقة التي كان خمَّن أنها تطوَّرت بينهما في الفترة الأخيرة، دخلا إلى الغرفة وجلسا إلى جوار بعضهما على السرير، اندهش المخِّيخ قليلا لعدم اعتراضها على إغلاق الباب، لكنه لم يسعَ إلى فهم تبريراتها الشرعية... فقد يئس من ذلك من زمن، اتجه تلقائيا إلى براد الشاي، لكن قبل أن يغمره في برميل المياه أخرجت - من جيب ما في عباءتها - رزمتَي نقود كل منهما مربوطة بأستيك، ناولته إياها دون أن تنطق بكلمة، للمرَّة المليون لعن المخِّيخ في سرِّه النقاب وسنينه، كان لحظتها أحوج ما يكون لاستشفاف المعاني من تعبيرات وجهها، خاصة أن وجه طاهر لم يفشِ بأي سر وجلس ساكنا كأن الموضوع لا يعنيه برمَّته، وإن بدا عليه الارتياح، بالضبط، بل حتى الفخر... إن طاهر لا يحب العاهرة السمراء فحسب... بل يفتخر بها... أكيد أنه يرى فيها ما لا يراه غيره...

لم يجد المخِّيخ بدا من أن يسألها صراحة: «إيه ده؟»

صفعته إجابتها، مثَّلت له اكتشافا مفصليا، بالضبط، كأنه كريستوفر كولومبس يلمح في الأفق تضاريس القارة الأمريكية، أو لويس باستير يتأمل تحت الميكروسكوب أمامه عالما زاخرا بالحيوية غير مرئي للعين المجرَّدة، فكوندوليزا العاهرة لم تكتفِ بأن تنازلت له عن المبلغ الذي حصل عليه

طاهر من السنيور كثمن للدينار الذهب الذي تبقّى في حوزته، وإنما أضافت إليه تحويشة عمرها التي كانت تنوي أن تفتح بها كوافير للمحجبات، وتتوب بذلك عن سيئاتها، هذا فعل يتعدّى مجرّد الكرم، إنما هو تضحية بمعنى الكلمة، بالضبط، تضحية في سبيل فتاة لم تعرفها ولم تقع حتى عليها عيناها... لكن لماذا؟ ما الذي أعطته الدنيا لأي منهما حتى يتحليا بهذا النبل؟

احتاج المخّيخ لبضع دقائق حتى يتمالك نفسه، مهما عاش وتعلّم فالدنيا قادرة على مباغتته، لترجُّ بعنف معبد علوم البشر، لتهدم في لمح البصر صرح الرياضيات الذي تصوَّره شامخا... رقم أفلاطون، الأرقام المثلّثة، الأرقام الهرمية، مسألة الأبقار، مسألة الألوان الأربعة، جهود العلماء لاكتشاف «جزيء الإله» الـ «هيجز بوزون»، كلها ألعاب نُلهي بها أنفسنا، بالضبط، لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الفعل الحقيقي... فعل كالذي أقدمت عليه العاهرة السمراء ببساطة تامة ودون شعرة تردد.

وكان هو يبخل عليها في السابق بما تستحق من الاحترام... ظلمها كما ظلمها العالم كله من قبله.

بالأمس تعلّم المخّيخ أخيرا الدرس... ثم جلسوا ثلاثتهم ليحبكوا الخطّة...

اليوم – وهو يتفادى الشابين المتسكّعين في شارع عدلي متأبطين بعضهما بعضا بوقاحة الجهلاء، والمنقّبات المتعجّلات المتحصّنات بثقافة التحدّي – يكرر لنفسه حكمة اختيار هذا الفرع لجروبي بالذات لعملية التبادل، فهو مناسب لقربه من محطة المترو مما يسهّل عملية الفرار المنشود، وأيضا لوجود مدخلين مطلّين على شارعين متوازيين، أحدهما من شارع عدلي الذي سيستخدمه هو، والثاني من عبد الخالق ثروت والذي سيتسلل من خلاله طاهر وكوندوليزا – كل على حدة – والمأمول أن تهرب ديدي منه في الوقت المناسب.

قد درس المخِّيخ الأمر بدقة... ومَن أقدر منه على الحساب والتخطيط؟

مكان اللقاء – أو للدقَّة مكان اللقاءين – من اختياره هو، فلا لوم على أحد سواه لو انهارت المخططات وتهتَّكت الآمال، فقد وجد المكان الذي اقترحته فتاة الحلوى لموعدهما الغرامي الأول – وبالتأكيد الأخير على أرض هذا الواقع المزدحم المترب الملوَّث بعادم السيارات – مناسبا لتنفيذ خطته لتحرير ديدي.

أم أنه فصَّل خطَّته تفصيلا لتناسب المكان الذي حددته معبودته الإلكترونية للقاء؟ أتكون الحقيقة أنه مع تمسُّكه بتحرير ديدي بأي ثمن... لم يطِق إضاعة فرصة إلقاء نظرة ولو عابرة على المحبوب... مهما كانت المخاطرة؟

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية
السبت 20 يناير 2007
الساعة 9:40 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

عندما أظهرت الشاشة الوسطى هيئة الهدف الصغيرة خارجة من محطَّة المترو انتفض مارتين في مقعده وقفز في الهواء كمشجِّع لعبة رياضية أحرز فريقه هدفا ثمينا، كان يتمنَّى أن يكون العميل «ألفا» حاضرا الآن، أن يشاهد بعينيه اللئيمتين توقُّعات مارتين تتحقق واحدة تلو الأخرى، أن يضطرَّ للاعتراف بأن مارتين بجد هو صاحب الفضل الأول في إنجاح إحدى أهم عمليات «مركز الأشباح»، لكن البدين انسحب مع نهاية ورديته دون كلمة تقدير أو عبارة ملاطفة، فأكد بذلك للمرَّة الألف ما يتَّصف به من خسَّة ودناءة.

الهدف يسير بتباطؤ، كأنه يتسوَّق بين واجهات المحلات، محاولة فاشلة للتمويه يا «ميكي»، المسكين لا يدرك أن الشاشات تظهره من كافة الزوايا، ولا يتصور أن «الدبّور» وفريقه في انتظاره داخل مقهى جروبي، يحتسي «الدبّور» الكابوتشينو بهدوء ويترقَّب وصوله... الشبكة محكمة والسمكة قد بلعت الطُّعم... وما على الصياد الآن إلا أن يتحلَّى بالصبر.

يرتشف مارتين القهوة، مرارتها أكثر جزعًا اليوم، ربما كانت حواسه هو أكثر يقظة من أي وقت مضى، الهدف يقترب ببطء لكن المسافة ليست بعيدة، كلها لحظات والمراد يتحقق، رجلان يعترضان طريقه فجأة، المَج يرتعش في يد مارتين، الهدف على بعد خطوات من مقهى جروبي... لكن شيئا مريبا

يحدث، يتجادل الثلاثة وسط زحام الشارع، الرجلان ضخما القامة أحدهما كرشه بارز والآخر من الواضح أنه رياضي، يحرِّك مارتين أصابعه على الكيبورد بسرعة لكن الكمبيوتر يردُّ بأن شكليهما غير مسجَّلين على قاعدة البيانات، يرتديان بدلتين أنيقتين لكن يبدو على ملامحهما الخطورة، أيكونا من أفراد العصابة؟ أتكون هذه ألعوبة جديدة دبَّرها الهدف؟ أم أنه جزء من عملية أكبر، عملية جهنَّمية لا تعرف الأجهزة عنها شيئا؟

«جميع الوحدات... للبقاء على أهبة الاستعداد». يصرخ مارتين في الميكروفون، عبارة لا معنى لها في الواقع.

وما دخل «ميكي ماوس» بهذه النوعية من البشر أصلا؟ أكيد أنه متورِّط في شيء ما، شيء خطير بجد، من المؤكد أن القيادة على حق في إصرارها على تصفيته، يندم مارتين على الهواجس التي انتابته في الفترة الأخيرة، «بيتا» مغفَّل أينما ذهب، حتى لو كان «ميكي ماوس» أو غيره أبرياء فلا يمكن المخاطرة بمستقبل المجتمعات المتحضِّرة من أجل حفنة برابرة، إن وجبت التضحية فلتكن بهؤلاء الأوغاد وليس بابنته إيمي وأمثالها من الأبرياء.

الهدف يخرج من جيب سترته رزمة من النقود، عضو العصابة الرياضي يفرُّها مسرعا ثم يضعها في جيبه، ماذا يحدث؟ ما طبيعة هذه الصفقة؟ الرجل ذو الكرش يتحدَّث في تليفونه المحمول، أيكون يطلب سيارة تنتشل الهدف مرَّة أخرى من بين مخالبهم؟ تعليمات مارتين للعملاء في هذه اللحظات ستكون حاسمة، لماذا لم ينتظر «ألفا» قليلا اليوم كما فعل مرارا من قبل...؟ كان ابن العاهرة على الأقل يتحمَّل جزءًا من المسئولية، الآن مارتين لا يعرف على وجه اليقين ماذا يحدث، الصورة أمامه غير واضحة بالمرَّة، لا يستطيع أن يجلس مكتوف الأيدي والأمور تتحرَّك بسرعة وخطورة، لكن في الوقت نفسه يخشى أن يفقد أعصابه فيحبط خطته المحكمة بنفسه.

بعد كل الجهد الذي بُذل... أتُفْلِتُ السمكة من السنَّارة؟

***

القاهـــرة
السبت 20 يناير 2007 - الخامسة إلا عشرة بعد الظهر تقريبا

يأخذ المخِّيخ نفسا عميقا، اليوم هو مصرٌّ على عدم استخدام البخَّاخة، حتى لحظة مضت كان غير واثق أن الرجلين سيلينان؛ ففي البداية كان رفضهما قاطعا... يريدان تسلُّم المبلغ بالكامل أولا ثم يفرجان عن ديدي على مهلهما، لم يندهش المخِّيخ من هذا المطلب، بيد أنه لم يكن أمامه بديل عن الإصرار على أن يتزامن تسليم الفدية وتحرير الفتاة، لم يكن هناك شيء يخسره، بالضبط، فالمبلغ المطلوب ليس في حوزته أصلا، أفهمهم أنه لا تربطه صلة تذكر بالمسكينة ديدي، الموضوع برمَّته لا يعنيه في الواقع، لولا الشهامة التي تفرض عليه أن يعمل خيرا ويرميه في البحر، وليبرهن على جديته ويسيِّل لعابهما أخرج من جيبه إحدى رزمتي كوندوليزا، شممهما رائحة الفلوس، بدا الارتياح على ملامحهما، ثم رفع المجرم صاحب المجانص هاتفه المحمول ليعرض مطلبه على رئيسه، فأدرك المخِّيخ أن السنَّارة قد غمزت.

لم ينجح في سماع ردِّ زعيم العصابة عبر محمول الرجل، ولم يقدِّم أي من الرجلين توضيحا له، إنما تجمدا في مكانيهما في انتظار حدوث شيء ما، المخِّيخ يلمح طاهر على الجانب الآخر من المقهى فيطمئن قليلا، لا بد أنه

يقف بجوار الحمامات الحريمي وأن كوندوليزا دخلتها بالفعل، بالضبط، وطبعا معها طقم إضافي من ملابس المنقَّبات استعدادا لتنفيذ الخطَّة.

رواد المقهى مزيج من المصريين والأجانب، أحاديثهم صاخبة متقطِّعة يتخللها التهام للمأكولات وتجرُّع للمشاريب، عدة قطط تلتقط الفتات بين الموائد، أطفال يلعبون «استغمّاية» بين الطاولات، أحدهم تشعُّ عيناه شقاوة، يذكِّره بـ «عنتر» أيام برج السعادة، ترى كم يكون عمر عنتر الآن؟ يجول بعينيه بين القطط فيجد واحدة الخالق الناطق «مشمش» قطَّة عنتر، الجرسون يتحرَّك بخفَّة بين الطاولات محمِّلا صينيته بأكثر من سعتها، هذا مقهى قاهري طبيعي جدا، بالضبط، البشر فيه غافلون عن لعبة الحياة والموت التي تدور حولهم.

تتوقَّف سيارة بيجو سوداء بمحازاة الرصيف خلفه مباشرة، الرجل ذو الكرش يفتح بابها ويدفعه إلى الداخل، موقف مكرر قد مرَّ به من قبل، لم يعد يهابه، الألفة نزعت سمَّه، هكذا المواقف كالمشاعر تأتي وتروح ثم تأتي لتروح، لا يندهش لرؤية ديدي على المقعد الخلفي بجواره، بل يثير وجهها الملائكي بهجة في نفسه لم يشعر بمثلها منذ الطفولة.

«أهلا يا أستاذ». تقول بابتسامة باهتة لكن كلها دفء، ترتدي قميصا رجاليا فضفاضا عليها، ماذا فعل أولاد الكلب بالبلوفر الأحمر الذي مزَّقه الوحش في التسجيل؟

ديدي لا تزال هي ديدي رغم بعض الخدوش وورم خفيف في قورتها، جميلة قوية تبتسم إليه بثقة، لم ينجحوا في كسر إرادتها إذن، بالضبط، لا يكاد يصدِّق، رغم كل ما فعلوه بها... لم ينجحوا في ترويضها، كل تضحيات الدنيا تهون لكي تعيشي في حرية يا ديدي.

غصة في حلقه تمنعه من ردِّ تحيتها.

«يبقى حضرتك عاوز تستلم البضاعة قبل ما اطمئن إن العملية ما فيهاش لعبة؟» صوت الرجل به وقاحة، بمجرَّد أن يسمعه يثير لديه كرها لم يألفه، الرجل لا ينظر إليه، يتحدَّث من موقعه في المقعد الأمامي إلى جوار السائق – موقع الدكتور في الباجيرو – لكن ظهره البدين مألوف... بالضبط... حفظه المخِّيخ مع تكرار تشغيله للتسجيل الذي تلقَّاه عبر الإيميل، هذا إذن هو «المالك الجديد».

يبحث عن نفَس من الهواء لكن لا يجده، يدب يده في جيبه بحثا عن البخَّاخة بيد أن أصابعه لا تجد غير زهرتيه العاج، عليه أن يتمالك نفسه وبسرعة، لا يمكن أن يسمح للانفعالات أن تشلَّه.

«الفلوس موجودة بالتمام والكمال... بس انا كمان من حقي اطمئن انكم حتسيبوا البنت... وبعدين أنا أثبتّ إن نيتي سليمة... وسلمت الأخ العربون». ينطق المخِّيخ كلماته بتمهُّل مقصود، ربما ليضمن أن صوته لن يرتجف تحت وطأة فيضان المشاعر المفاجئ.

«طيب والباقي؟» يقول الرجل دون أن يلتفت إلى الوراء.

عضوا العصابة اللذان تحدَّث إليهما المخِّيخ في الأول لا يزالان على الرصيف، بارتياب يراقبان المارة.

«شايف الشاب الأسمر اللي لابس بلوفر بني وشايل شنطة في الناحية التانية... هو اللي حيستلم البنت ويسلّمك باقي المبلغ». يقول المخِّيخ وهو يقاوم الرغبة في أن يقبض على رقبة الرجل السميكة.

«يا سلام». لا يبدو من كلام الرجل أنه يفكِّر في اقتراح المخِّيخ بجدية.

«على العموم أنا مستعد تحجزوني انا عندكم كضمان... لحد ما تطمئنوا خالص». يقول المخِّيخ بسرعة وبصوت يأمل أن يبدو واثقا، محاولا التأثير على قرار «المالك الجديد».

«بصراحة وعدم المؤاخذة يعني يا أستاذ... الأمّورة بضاعة جاهزة لها تمنها... لكن حضرتك ما تسواش حاجة في السوق».

يستغرق المخِّيخ بضع ثوان حتى يستوعب كلام الرجل، وجهة نظر قد يكون لها شيء من الوجاهة، والردُّ عليها بسيط وواضح في ذهنه، لكن عندما يفتح فاه لا تخرج الكلمات بالسلاسة المعتادة... إنما تنبعث أصوات أشبه بزمجرة كلب مسعور، لم يعد يستوعب عباراته بالتحديد، إدراكه للعالم من حوله قد أصبح مشوَّشا، بالضبط، كأن أبعاد الوجود المختلفة قد تداخلت حتى إن الأشياء فقدت معانيها المحددة، أبوه ماكث أمامه ينشر الغسيل من الشرفة «بالفنيلة والكلوت»... يحدج العالم من حوله بنظرات التحدي، أمُّه تطوِّق الصالون بالريشة في ثوبها الأزرق الوقور... تبتسم له من تحت ماكياجها الكامل، وهو يجلس إلى مكتبه الصغير ويجتهد في اختراع مسألة سيعجز مدرس الجبر عن حلها، بينما عقيل قد تسلل إلى المطبخ... فتح الثلاجة وبدأ يقضم الفرخة النيئة...

يشاهد المخِّيخ نفسه طالبا في الهندسة لا يتعدَّى في شكله طفلا في الابتدائية... يجادل كبار الأساتذة في نظريات الهندسة الفراغية... في اللحظة نفسها يجالس شلّة الأنس في شقة أطلقوا عليها «المنطاد».... يقرأ كتابا تلو الآخر وسط سحابة زرقاء من الدخان تزداد كثافة مع كل نفَس... ثم ها هو نفسه يحضِّر الأرواح لعلية القوم في الدور الثالث عشر من برج السعادة.

يدرك بجزء من عقله أنه يتحدَّث منذ دقائق، يشرح للرجل الكريه سهولة إنشاء برنامج نووي هذه الأيام، هي مسألة وقت وفلوس لا أكثر بالنسبة للدولة التي ترغب في ذلك، لكن المشكلة في تأمينه، في إنشاء دشَم مدفونة في الجبال

قادرة على تحمُّل أسلحة الدول العظمى النافذة للتحصينات... إذن مصطفى محمود قرني الشهير بالمخِّيخ هو أخطر رجل على وجه الأرض بالنسبة لهذه القوى الكبرى، بالضبط... أخطر من ابن لادن وزملائه من المهرِّجين.

لو عرف تاجر اللحم الأبيض حجم المكافأة التي يمكن أن تسددها بعض أجهزة المخابرات مقابل معلومات عن مكان تواجده لأدرك أنه يساوي حاجة في السوق.

انفجار يرجُّ السيارة.

يفيق المخِّيخ على تعبير الدهشة على وجه ديدي، السائق اندفع إلى الخارج، البدين في الكرسي الأمامي يتلفَّت حول نفسه بعصبية، يدرك المخِّيخ بجزء من عقله أنه ردد لزعيم العصابة إثباتات أعقد المعادلات الرياضية، بيد أن نطقه لكل ما قاله كان مقلوبا... بالضبط... غير مفهوم من أصله، يبتسم في حرج، وما جدوى الكلام على أي حال...؟

فقد فاتت تاجر النخاسة تضحيات أبيه وإصراره على تحدِّي العالم في سبيل أن يصبح ابنه أهمَّ علماء البلد، أغفل العذاب الذي كانت أمه لا بد تعانيه لمجرَّد أن تتماسك، لتحافظ على جزء من عقلها... إلى أن تنجز رسالتها في الحياة، مهمة تربية ابنها، لم يسمع ربما بتضحية الأجيال المتتالية من المصريين حتى نجتاح بحر الظلمات... ونصبح قادرين على مواكبة العالم المتقدم...

ألا يعلم هذا الجاهل حجم الاستثمار الذي تقتطعه الأمم من لحمها الحي حتى تنتج عالِمًا مثله؟

أكثر ما يثير حنق المخِّيخ أن المجرم الكريه كان على حق فيما قال.

بالضبط.

لكن كفى... كفى علمًا ومهاترات وأحلامًا وكلامًا كبيرًا لم يعد له موقع من الإعراب، المهم الآن ما الذي حدث للسيارة؟

***

شارلوت - كارولاينا الشمالية
السبت 20 يناير 2007
الساعة 10:03 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

«كوبرا «1» لإطلاق النار على إحدى إطارات البيجو السوداء». يصرخ مارتين في الميكروفون.

دخول الهدف إلى السيارة مثَّل بالنسبة له خطا أحمر لا يمكن السكوت عليه، لن يسمح بتكرار إخفاقه السابق، الشاشة اليسرى تظهر الفتاة نفسها ذات الشعر الأسود، لا يبقى إلا العجوز صاحب القبعة الحمراء العجيبة ويكون الموقف السابق قد اكتمل، لكنه تعلَّم الدرس، هل كان عليه أن يذكِّر القنَّاص بمراعاة استخدام كاتم الصوت؟ ما الذي يؤخره في تنفيذ التعليمات؟

«وحدة «الدبّور» للتحرك فورا نحو البيجو السوداء».

لن ينتظر دخول الهدف المقهى، سوف يتم تصفيته على الرصيف أو حتى داخل السيارة إن اقتضى الأمر، يستطرد بسرعة في الميكروفون:

«... وتوجيه اللدغة عندما تتاح الفرصة». لقد قالها، لقد أعطى التعليمات بتصفية الهدف، رغم العثرات فالأمور تتحرَّك في الاتجاه السليم.

تميل البيجو فجأة، القنَّاص قد استهدف الإطار الأمامي، لن تستطيع هذه السيارة إرهاقهم في مطاردات عبثية في شوارع هذه المدينة المكتظَّة، السائق يخرج منها بحذر، يتفقَّد الإطار المنفجر ثم يراجع حالة الإطارت الثلاثة السليمة بالضغط عليها بحذائه واحدا تلو الآخر، يبلغ الراكب المجاور له بالوضع من خلال النافذة التي فتحها.

الركَّاب يخرجون من السيارة، السائق ورجل بدين والفتاة، لكن «ميكي ماوس» ينتظر داخل البيجو، الحارسان المنتظران على الرصيف يحيطان بالفتاة، أحدهما – الشاب الرياضي – يمسك بذراعها بقوة، يخشى أن تحاول الفرار، وحدة «الدبور» على بعد أقدام من الهدف، لكن التعامل معه الآن سيتطلب تحييد أفراد العصابة أولا، يمكن التمهُّل قليلا، لكن لو أحضروا سيارة ثانية سوف يأمر بقتل الجميع رغم أن ذلك سيشكك في نجاح العملية، فالمطلوب تصفية الهدف بهدوء ودون أن يدرك أحد أنها عملية اغتيال.

عضو العصابة الرياضي يقود الفتاة إلى الجانب الآخر من المقهى، مارتين لا يفهم ماذا يحدث لكن أعين الهدف وكل الآخرين مركزة على الاثنين، يصلان إلى حيث يقف شاب نحيل يحمل حقيبة رياضية، بعد كلمات محدودة بين الرجلين يفتح الشاب حقيبته، ينظر عضو العصابة داخلها ثم يغلق السوستة ويأخذها منه، لحظتها يترك الفتاة لحالها، يستدير ويعود مسرعا من حيث أتى، الشاب يدفع الفتاة بإلحاح في اتجاه حمامات السيدات.

بالتأكيد أنها عملية ابتزاز، الفتاة مختطفة و«ميكي ماوس» كان يحاول تجميع الفدية ليحررها، هذه إذن علاقته بالعصابة، فهم مارتين أخيرا دوافع الهدف، ليس متورطا في مؤامرة جهنمية... بل هو ضحية لها، لكن مَن تكون هذه الفتاة إذن... أتكون ابنته؟

أيكون أبا كمارتين له أيضا ابنة جميلة...؟ بالتأكيد هو أيضا مستعدٌّ لأن يفعل كل ما في وسعه من أجلها...

قلق خافت بدأ يلحُّ على مارتين من جديد، بعد أن تصوَّر أنه تغلَّب على هواجسه نهائيا ، ها هي الأسئلة نفسها التي طرحها «بيتا» اللعين تفرض نفسها عليه من جديد...

لكن الشاشة اليمنى لا تترك له وقتا للتفكير، رجلان متينا البنية ينقضان على الشاب والفتاة، أحدهما يمنعها من دخول غرفة السيدات والآخر يمنع الشاب من الهروب في اتجاه الشارع... إذن العصابة خانت العهد... تريد الاحتفاظ بالمال والرهينة... والأسوأ أنها نجحت في مباغَتة عبقري الإنشاءات... فماذا يفعل «ميكي ماوس» الآن؟

يراقب مارتين الشاشة الوسطى التي تظهر الهدف وهو جالس داخل السيارة، رغم عدم وضوح الصورة يستطيع مارتين إلى حد ما تمييز انفجار الغضب على وجهه، يفتح «ميكي» باب السيارة وينطلق خارجها، لكن الشاشة تهتزُّ لحظتها كثيرا، يدرك مارتين أن «الدبّور» بدأ يتحرَّك نحو الهدف، فبخروجه من السيارة أصبح في مرمى سلاحه الخاص، في صورة القمر الصناعي يستطيع تمييز تحركات وحدة «الدبّور».

«الدبّور» نفسه يتجه نحو «ميكي» بينما عضوا مجموعته يقطعان طريق عضوي العصابة المنقضَّين على الهدف.

العملية دخلت في ثوانيها الحاسمة، الآن ليس في استطاعته غير أن يأخذ نفسا عميقا وينتظر...

لكن بوسعه أيضا أن يوقف العملية بأسرها، أن ينقذ حياة إنسان... بكلمة واحدة يهمس بها في الميكروفون... يستطيع أن يفعل ما يمليه عليه ضميره...

أيقتل إنسانا بريئا لمجرَّد أنه تلقَّى تعليمات بذلك من قيادة لا يعرف حتى من تمثِّل؟ ما الذي يقوله دفاعا عن نفسه لو وقف أمام قاض ومحلفين؟ ما الذي يفرِّقه عن أفراد العصابات الإجرامية؟ والأهم من ذلك أين ذهبت المبادئ التي تتغنى به حكومته صباحا ومساء؟ الدستور الأمريكي في أي سلَّة للمهملات ألقوا به؟

في يده أن يوقف العملية الآن...

كلمات «بيتا» لا تزال عالقة في هواء مركز الأشباح الراكد: «عندما تنتهج الدول الديمقراطية نهج الإرهابيين نفسه كيف تستطيع أن تنتصر عليهم؟»

لكن ماذا يفعل مارتين في هذه الثواني الحاسمات؟

***

القاهـــرة
السبت 20 يناير 2007 - الخامسة والربع تقريبا

لوهلة تصوَّر المخِّيخ أن الرجلين اللذين انقضا على ديدي وطاهر مخبران أو ضابطا مباحث، بالضبط، الحكومة لا يمكن أن تكون غافلة عن كل هذه الشرور والمساخر، تتحرَّك لاستئصال هذا الورم السرطاني من المجتمع قبل أن يستفحل، القانون حتما سيأخذ مجراه لكن في الوقت المناسب... أليس كذلك؟ ثم لمح الشيطان يبتسم، وجه «المالك الجديد» يتفتَّح في نشوة الانتصارِ، فأدرك...

الرجلان ينتميان للعصابة، الموضوع مخطط له من الأصل، لا يمكن أن يكونوا تشككوا فيما تحويه الحقيبة، فورق الجرائد تم تقطيعه بدقة والرزم غُلِّفت بعدد كاف من البنكنوت الحقيقي، هم حتى استخدموا ثمن بيع الدينار الذهب بالكامل لهذا الغرض، إذن نية «المالك الجديد» كانت مبيَّتة، بالضبط، أراد الاستحواذ على الفدية... لكن لم يقبل التخلي عن ديدي...

إنها خديعة بمعنى الكلمة... كل شيء ضاع... الحياة كلها خسائر وانكسارات...

طبيعي فالأمّورة بضاعة جاهزة لها ثمنها، أم يكون الموضوع اتخذ طابعا شخصيا بالنسبة «للمالك الجديد»؟ ديدي يكون لها هذا التأثير على الرجال أحيانا، جمالها الملائكي يثير أحطَّ غرائزهم السادية، لم ينجح «المالك الجديد» في ترويضها بعد... وهذه متعة لا يمكن لابن الهجَّامة أن يتخلى عنها طواعية.

خدعك المنحط يا عبقري زمانك، جئت تصطاده فصادك.

الغضب قد تحرر، غضب السنين، غضب العمر كله، تحرر إلى الأبد... مع اليأس يكون الغضب، واليأس قد وصل إلى منتهاه... يأس الأجيال التي أضاعت عمرها لتحدث تحوُّلا ما في هذا البلد... يأس ملايين المصريين يتجسَّد في المخِّيخ هذه اللحظة... وغضبهم...

بالضبط، وقت المعادلات والألعاب الذهنية قد ولَّى يا دكتور.

كالثور الهائج يخرج من السيارة، رؤيته للأشياء لأول مرَّة مهتزَّة... لكن لا يعبأ، همُّه الوحيد أن ينقضَّ على تاجر الرقيق البدين، يطبق على رقبته... وليكن ما يكون، لكن شخصا ما يحجزه عنه، شخص قوي مدرَّب لا ينجح المخيخ في أن يزيحه من طريقه، مَن هو ومن أين ظهر في هذا التوقيت بالذات؟

ألم حاد في ظهره، قرصة عقرب من جهنّم، يلتفت تلقائيا، الرجل جسده في التواءة تغيير الاتجاه – هذا رجل آخر غير الذي حجزه عن زعيم العصابة– يحمل شمسية مطر رغم صفاء السماء، ومَن في مصر يحمل شمسية مطر أصلا؟ أكيد غزَّه بسنِّها، ربما حدث ذلك على سبيل الخطأ، نغزة عابرة ولا حد يموت، لكن ملامح الرجل مشدودة تحت نظَّارة الشمس التي غطَّت نصف وجهه، ما الحاجة لنظَّارة الشمس والمغرب قد حان؟ لمح شيئا غير

بريء في الوجه الأجنبي قبل أن يذوب في السيل البشري، بالضبط، ثمة شيء غير بريء على الإطلاق، ليس غضبا أو كرها إنما تركيز شديد... ويقظة، هذا ليس رجلا يتنزَّه، بل هو محترف يؤدي مهمَّة، أيمكن؟

أتكون الشياطين أخيرا لحقت به؟

سبق له أن قرأ عن أساليب الاغتيال المبتكَرة وأبرزها استخدام شمسية المطر لبثِّ السم، وفي بحر دقائق أو ساعات يصاب الضحية بأزمة قلبية قاتلة، جريمة قتل على أرفع مستوى من التقنية، بالضبط، يصعب معها تحديد أن الوفاة بفعل فاعل، الجريمة الكاملة التي طالما حلم بها مجرمو العالم، أيكون هو ضحيتها اليوم؟

العصابة المحلية خدعته والأجهزة الأجنبية قتلته، بينما كل ما كان يتمنَّاه أن ينقذ البريئة ديدي، لم يطلب جائزة نوبل أو مليون دولار، مجرَّد تحرير ديدي ونظرة عابرة على فتاة الحلوى، كل ما تمنَّاه... وها هو يموت... عبقرية مهدرة... حياة ضائعة من أولها لآخرها... الإنسان يمكن أن يضحِّي... لكن ما الفائدة عندما ينخر اليأس في عظام الأمة بأسرها... الحزن يغمره... حزنه حي نابض...

هناك معركة ما تدور حوله، هو غير مدرك لأبعادها، وما جدوى المعارك لمن قُتل وينتظر صدور شهادة الوفاة؟ لكنها معركة مكتومة، بالضبط، لا صراخ بها ولا نواح، لا تهديد ولا وعيد، مجرَّد محترفين يُزاولون عملهم، لكن اضطرابًا آخر يحدث، شغب مصدره من داخل المقهى، أتكون فتاة الحلوى أدركت ما يحدث لمعشوقها فقررت التدخُّل لإنقاذ الموقف؟

كفى هزلا يا مخيخ، حتى وأنت بين أحضان الموت تتشبث بالخيال.

هو مصرٌّ مع هذا على أن يفعل شيئا ما في اللحظات الباقية له، لكن لا يعرف لصالح من يتدخَّل في المعركة الدائرة، يحاول أن يصل لزعيم العصابة المشتبك مع رجل أجنبي مجهول، ثم يجد نفسه وجها لوجه مع صاحب المجانص الذي يسارع لنجدة رئيسه وهو لا يزال يحمل الحقيبة التي بها الفدية، يتذكَّر المخِّيخ رزمة الفلوس التي تمثِّل تحويشة عمر الوفية كوندوليزا، لا تزال بالتأكيد بحوزة الرجل، بالضبط، يتعيَّن استردادها، لحظة أن يعطيه الرجل ظهره يدبُّ يده في جيب سترته.

يلتفت الرجل إليه في اندهاش، وهو يسحب الرزمة يطبق بيد واحدة على رقبته.

قرقعة ارتطام يصاحبها رنين زجاج يتهشَّم، قبضة الرجل كالفولاذ على قصبته الهوائية، كان يعلم أن الجرسون يحمِّل صينيته بأكثر مما تحتمل، أظافره مخالب يحفر بها في وجه ذي المجانص، عين الرجل ندية طرية بين أصابعه، لا يدري من منهما سيستسلم قبل الآخر، لو ترك الرجل الحقيبة من يده الأخرى لاستطاع بسهولة القضاء عليه، أما هو فلن يتخلَّى عن فلوس كوندوليزا مهما حدث.

الرجل يدفعه بعيدا بيديه، قد ترك الحقيبة وسوف ينقضُّ عليه، عينه دامية كملاكم في الجولة الخامسة عشرة، قطة تموء في فزع، تبخُّ الهواء وتقفز عاليا، الرجل يتراجع عدة خطوات، يصرخ، مخالبها تترك خطوطا حمراء على ذقنه ورقبته، انقباض عنيف يمسك بصدر المخِّيخ، مفعول السمِّ يتجلَّى، لا يشكُّ في أن نهايته وشيكة، سوف يخطفه الموت من يد العصابة، لكنه يتمالك نفسه، يسحب الحقيبة ويتجه إلى داخل المقهى.

الآن كل الفلوس في حوزته، سوف يعيدها لكوندوليزا وطاهر... وسوف يلقي نظرة سريعة على الجالسات... ثم... ماذا؟

هناك أصوات متداخلة ولغط كثير، لا يميِّز من الكلام شيئا، ثم يأتيه ذاك الصوت الأجش من الخلفية... خافتا... بعيدا... لكنه واضح وضوح القدر:

« المركب غرقت يا قبطان».

يهزُّ المخِّيخ رأسه، حزنه عميق... لكن ليس على نفسه.

تتكرر العبارة صامتة بللورية من أعماق البحار، ترنُّ أصداؤها في أركان الكون، مرئية في أدمس الظلام، قاطعة مسافات تفوق قدرة العقل على الاستيعاب في شساعتها، يراها الدكتور مصطفى محمود قرني الشهير بالمخِّيخ تملأ الكون لحظة أن تُطفأ الأنوار أو توقد، لحظة أن تتبدَّل الأشياء، قبل أن تذوب المعادلات الرياضية في بوتقة الأرقام اللانهائية، بالضبط، يراها بوضوح، يتفهَّم مغزاها، فيستقبل المجهول راضيا مرضيا.

«المركب غرقت يا قبطان».

***

الفصل الثالث عشر

شارلوت – كارولاينا الشمالية
السبت 20 يناير 2007
الساعة 10:21 بتوقيت الساحل الشرقي للولايات المتحدة

تلحُّ على مارتين الحكمة التي تعلَّمها من لعبة الـ «فري سيل»: خطوة واحدة تمثِّل الفرق بين النجاح المبهر والفشل التام، والمشكلة أن الصورة لا تكون دائما مكتملة في أعين االلاعب عند اتخاذ قراره الحاسم، فيضطر أن يعتمد على البصيرة أو الحدس أو الحظ أو كلها مجتمعة، وقد ضاعفت من توتره في اللحظات الفائتة المصاعب التي يواجهها في متابعة الأحداث بدقَّة من موقعه في مركز الأشباح، الشاشة الوسطى مظلمة، مصدرها الكاميرات المثبَّتة في نظَّارات العملاء في المقهى، لكن سرعة تحرُّكات هؤلاء – بل وعنفها أحيانا – لا يوفِّر الحد الأدنى من الثبات للصورة، فأصبحت متابعته للأحداث قاصرة على الشاشتين الجانبيتين، احداهما واردة من عدسة القمر الصناعي، والأخرى من القنَّاص الذي يطلُّ من إحدى الشرفات المواجهة لمدخل جروبي من شارع عدلي.

صورة القمر الصناعي هي الأدق لمتابعة حركة الأفراد، اضطر لمراجعة تسجيلها أكثر من مرَّة خلال الدقائق الأخيرة؛ لأن في لحظتها استحال التأكد من التسلسل الصحيح للأحداث...

لحظات من التوتُّر مرَّت عليه... بدا من الوهلة الأولى أن الأحداث وقعت كلها بشكل متزامن، فقد انطلق فجأة عدد كبير من الأفراد في نواحي المقهى المختلفة، عضو العصابة الرياضي العائد إلى زعيمه بحقيبة الفلوس، الشاب النحيل الذي قاوم عضو العصابة الآخر، الفتاة الجميلة التي تمكَّنت أخيرا من الإفلات ولاذت بحمامات السيدات، النادل الذي حمَّل صينيته بأكثر مما تحتمل، القطة التي سارت بتمهُّل بين الطاولات ثم انطلقت كالصاروخ حين كادت الصينية تسقط عليها، الأطفال الثلاثة الذين لم يتوقفوا عن الركوض بشقاوة في أرجاء المقهى، السيدة البدينة التي هرعت من كرسيها للاطمئنان على ابنها الصغير، زعيم العصابة نفسه الذي شعر بزمام الأمور يفلت منه، السائق الذي وقف حائرا أمام العجلة التي انفجرت دون سبب منطقي – بالنسبة له – ثم هبَّ مع زميله ذي الكرش لنجدة زعيمهما، «ميكي ماوس» الذي خرج من البيجو باندفاع شديد، وطبعا وحدة «الدبّور» التابعة لهم التي لم تتوانَ عن القيام بالمهمة الموكلة إليها...

كل من هؤلاء فاعل مستقلّ لكنه في الوقت نفسه متأثر بفعل الآخرين، وبالمقابل مؤثر فيهم، شيء محيِّر حقًّا، والتوصل للتسلسل الصحيح للأحداث حيوي لدقَّة التقرير الذي سيعدُّه مارتين بالمهمَّة، لكن المسألة قد اتَّخذت بالنسبة له بعدا آخر، أصبح لها أهمية شخصية، بات يشعر بأن فهم الأحداث بدقَّة مهمَّة ذات قيمة كبيرة في حد ذاتها... أو على وجه الدقَّة فهم تصرُّفات غريمه العبقري الشهير بالـ «مخيخ».

ظلَّ مارتين على توتره حتى غزَّ «الدبّور» شمسيته في كتف الهدف، ثم بدأ يحلل الأحداث بقدر أكبر من الهدوء، وإن امتزجت تحليلاته باضطراب من شكل آخر...

عندما شاهد السمَّ يندسُّ في جسد الضحية اهتزَّ، لا... لم يكن ذلك بسبب تأنيب الضمير بمعنى الكلمة، إنما إحساس أقرب إلى الترقُّب، إدراك بأن حملا ما أضيف إلى جعبة العمر التي عليه أن يحملها حتى النهاية، يدرك الآن أن الشعور الغالب على المذنب لم يكن يوما تأنيب الضمير... إنما الرغبة القوية في الإفلات من العقاب، من أي عقاب محتمل، لكن مَن الذي سيفكِّر في معاقبة رجل لا اسم له ولا تاريخ... ساكن مجهول من سكان كارولينا الشمالية... على وفاة عالم مصري مغمور... وبما يبدو وكأنها أزمة قلبية؟ حتى ولو تسرَّب الخبر لسبب ما، سوف يُنظر إليه كبطل يقلِّد النياشين وتشيَّد على شبهه التماثيل.

إصابة الهدف نجاح بكافة المقاييس، لكن المهم الآن هو إخراج العملاء من الموقع بعد أن بدأ الموقف يتأزَّم مع العصابة... عليه أن يحشد كل طاقاته لإنهاء العملية بنجاح، خاصة أن إصابة أي من عملائهم – أو القبض عليه– سيقلب النصر إلى هزيمة، وهو لن يسمح لمثل هذه الاحتمالات المسمومة أن تنتشل النجاح منه، بعد أن أصبح أخيرا في قبضته.

لم يهدف عضوا مجموعة «الدبُّور» إلا لتعطيل أعضاء العصابة عن الوصول لـ «ميكي ماوس» حتى يتمكَّن رئيس المجموعة من إتمام مهمَّته، لكن الظاهر أن العصابة شعرت بتهديد ما، ربما تصوَّرت أن وحدة «الدبُّور» تعمل لحساب «ميكي ماوس» وأن هذا كمين معَد لها، خاصة بعدما بدا أن «ميكي ماوس» يحاول مهاجمة الرجل البدين – من الواضح أنه زعيم العصابة...

تصرُّف بجد غير مفهوم منك يا « ميكي».

حتى الآن كانت كل تصرُّفاتك عقلانية مدروسة كبطل عالمي للشطرنج... ثم فعلت هذا... ماذا حدث؟

الثابت لديه – بعد مراجعة التسجيلات – أن الشرارة التي أشعلت الموقف برمَّته كانت اندفاع «ميكي ماوس» خارج السيارة، فلحظتها حاولت الفتاة الجميلة تخليص نفسها فهبَّ الشاب النحيل لمساعدتها، أكانت إشارة متفقا عليها؟ لكن المثير للحيرة أن الفتاة والشاب ما كانا سينجحان أبدا في الإفلات من عضوي العصابة لولا أن الرجلين انتبها إلى الشدِّ الحادث بين وحدة « الدبّور» وزعيم العصابة ومساعده... فهل كان «ميكي ماوس» مدركا لخطَّتهم من البداية؟

ثم ماذا عن الصدمة التي سددها باب السيارة للطفل الذي كان يختبئ بجوارها من زملائه؟ لولا أن الهدف دفع الباب بقوة عند خروجه المفاجئ لما سقط الصبي على الرصيف... وما نهضت أمه البدينة باندفاع من داخل المقهى... وما انقلبت صينية النادل... وما انطلقت القطة المشمشية في هلع... أيكون ذلك أيضا جزءًا من تخطيط «ميكي ماوس»؟ أم يكون قرر في آخر لحظة أن يترك مصيره ومصير الفتاة للمصادفة؟

نجح أعضاء وحدة «الدبّور» أخيرا في الانسلاخ من الموقف، وانطلقوا على درَّاجاتهم البخارية، تاركين خلفهم أعضاء العصابة يتدوَّرون حول أنفسهم في حيرة وارتباك، يأمر مارتين باقي الوحدات بالعودة إلى قواعدها، باستثناء القنَّاص الماكث في الشبَّاك الذي سوف يتركه في موضعه لعدة دقائق أخرى، على سبيل الاطمئنان على نجاح العملية وتسجيلها بالصورة درءا لأي شكوك قد تثار في المستقبل.

يأخذ مارتين رشفة من قهوته التي فترت وتكثَّفت مرارتها، ويتابع تحرُّك «ميكي ماوس» من خلال صورة القنَّاص الذي يوجِّه إليه سلاحه، الهدف نجح في الوصول بالفعل إلى منتصف المقهى، لكنه يتوقَّف فجأة، يتلفت حوله...

المسكين يبحث بين الجالسين عن فتاته الوهمية.

يجهش مارتين فجأة بالبكاء، الانفعال باغته، جاءه في اللحظة التي لم يتوقَّعها، أبعاد جريمته تتبلور مكتملة أمامه، لكنه لا يبكي على مصطفى محمود قرني الشهير بالمخِّيخ والذي أطلقوا عليه في سخفهم لقب «ميكي ماوس»، إنما يبكي على نفسه، على فقدانه للبراءة إلى الأبد، يبكي على العالم الموحش المظلم الذي يساهم في تشييده ليكون الإرث الذي يتركه خلفه لإيمي الجميلة البريئة... يبكي كما لم يبكِ من قبل.

ولا يتوقف عن البكاء إلا عندما يترنَّح الهدف ثم يسقط إلى الأرض سقطته الأخيرة، عندئذ يتجمَّد البكاء في قلبه.

يلمح مارتين في خلفية الصورة رجلا عجوزا يرتدي قبَّعة تركية حمراء، يجلس إلى طاولة بجوار فتاة طاغية الأنوثة شعرها لونه نادر... برتقالي، ترى هل هو الرجل العجوز نفسه ؟ الصورة غير واضحة بالمرَّة، عدسة القنَّاص مركِّزة على الهدف وليس عليهما، كما أنه يبدو وكأن غيما ما يحيط بالعجوز والفتاة، يدقق مارتين النظر في الفتاة... أتكون...؟

يمسح مارتين الدموع عن عينيه، يدعكهما... مستحيل.

الناس المتجمهرون حول الهدف يحجبون رؤية العجوز والفتاة تماما، يلوم مارتين نفسه بشدَّة، رجل مخابرات محترف مثله يجب أن ينأى بنفسه عن مثل هذه التخيّلات، الإرهاق والانفعال الشديد أثرا على قدراته العقلية، لكن عليه أن يتماسك...

أخيرا يعطي مارتين للقنَّاص إشارة إنهاء المهمَّة، وقبل أن تنقطع الصورة ينهض... يقف منتصبا ويرفع كفَّه إلى جانب رأسه... يقدِّم تحية عسكرية للهدف الذي بدأ الناس يلتفون حوله في رقدته الأخيرة على أرض المقهى.

وهل من نهاية أنسب لعالِم مثله من أن يُقتل بأحدث ما توصَّلت إليه التكنولوجيا؟

***

القاهـــرة
السبت 20 يناير 2007 - قبيل آذان المغرب

الرجل العجوز ذو الطربوش يبتسم إليه من خلف إحدى الطاولات، يومئ برأسه تأكيدا للتحية، فتاة الحلوى جالسة بجواره إلى الطاولة نفسها، تأخذ رشفة ممتدَّة من ميلكشيك بالفراولة من خلال شفَّاط مقلّم، يتجمَّد المخِّيخ في منتصف حديقة جروبي، أيكون فقد اتصاله بالواقع وبدأ يهلوس؟ أيكون مات بالفعل وشبع موتا؟ لكن ها هي أمامه بشحمها ولحمها، بشعرها البرتقالي المنسدل كستارة من القطيفة على كتفيها العاريين، بالضبط، بثوبها الأخضر الزمردي الذي اشترته مؤخرا، الكاشف لثدييها الناضجين النافرين... بل ها هي تعرَّفت عليه، يتفتَّح وجهها بابتسامة آتية من الأعماق، تلوِّح بحماس ومياسة، تناديه إليها...

تعده باستعادة أجمل اللحظات.

الرجل العجوز يبتسم مشجِّعا، لكن القبضة الفولاذية تنقضُّ على صدره ثانية، وطأتها هذه المرَّة أكثر حسما من سابقتها، الألم لا يتعدَّى ما يستطيع أن يستسيغه، وشبح الموت لا يصيبه بالهلع، المشكلة في التنفُّس، يشعر كأن محيطا بأسره يصبُّ في رئتيه... يغرق وهواء الدنيا كلها من حوله.

هكذا وببساطة تامة.

صدمة السقوط ناعمة، كأن بلاط المقهى مكسو بالإسفنج، السماء فوقه لوحة سريالية تمزج الأزرق بالبرتقالي في تداخل العسل مع الطحينة، قرصة البرد يدركها ولا يحسُّها، أصوات متداخلة في الخلفية، الوجوه بدأت تحجب السماء، طربوش العجوز حمرته دفء ينبض بحياة المجرَّات والثقوب السوداء، لكن النفضات تزداد عنفا وتشنُّجا، أتكون الدنيا ترتجُّ بكاءً عليه... أم أن جسده الهزيل ينفض الحياة عنه، كسمكة حبيسة في شباك صيَّاد لا يرحم؟

العجوز يرفع حقيبة الفلوس، يلوِّح بها أمام عينَي المخِّيخ، ويبتسم، ثم يختفي كل من الطربوش والابتسامة... ولا تبقى غير الوجوه العابسة لأناس غرباء.

«البشر بغال محملة دهب... واحد يسلمه للتاني». يقول المخِّيخ، لا يعرف إن كانت الكلمات قد تركت حنجرته، لا يعرف إن كان أفلح في أن يردَّ البسمة.

الضباب يغيِّم على بصره لكن بصيرته نقية كالبلور، عقله يتأمل الوجود في صفاء حتى النهاية، أليس في ذلك انتصار من نوع ما؟

عينان داميتان تحدقانه من سواد، إنها كوندوليزا، بالضبط، الانفعال، لا يعرف إن كانت تشنُّجات المشاعر التي ترجُّه، أم تقلُّصات الجسد المسموم المتشبِّث في حمق بحياة لفظته، النقاب يُنزع عنها في حركة عنيفة، وجهها الشبقي عليه تعبير متجمِّد بالدهشة، تستدير وتصفع الرجل، قرقعة الصفعة تعيد الأصوات لآذانه، إنه البدين الذي لم يكره في حياته سواه... «المالك الجديد» الذي هو قديم قدم الأهرامات، لا بد أنه تصوَّرها ديدي متخفية بالنقاب بعد أن خرجت من حمام السيدات...

إذن ديدي نجت، هي الآن داخل قطار المترو، متَّجهة عبر شبكة الأنفاق نحو... نحو المستقبل...

بالضبط... الخطة نجحت يا مخيخ...

يتوارى زعيم العصابة وسط سيل من سباب الكتلة البشرية المتجمهرة حوله، يهمهم بالاعتذارات، ثم ينسحب كما ينسلخ الثعلب الطريد.

يتذكَّر المخِّيخ رزمة الفلوس التي لا تزال في قبضته، تذكرة النجاة لكوندوليزا التي ائتمنته عليها، عليه الآن أن يرفع ذراعه، مهمَّته الأخيرة... تحديه الأكبر، بالضبط، يجزُّ على أسنانه، يرى الدمعة وقد أفلتت من عينها، سلَّمها الأمانة، وجه طاهر السمح إلى جانبها، ديدي قد نجت وطاهر هنا إلى جانب كوندوليزا، ما حاجتهما إذن لدنانير المُعِز؟

كفاهما طوابع الملكة «بسبس»...

فتاة الحلوى تبتسم له بعذوبة، قد بركت على ركبتيها لتقترب منه...

يدور معها في رقصة التانجو الحسية... بنهايتها يتوقفان، وجهها ضاحك.

«أتعرفين يا حبيبتي... الميرينجي هي رقصتي المفضَّلة... لأن إيقاعها كنبضات القلب».

«لست غافلة عن مزاجك يا حبيبي... طبعا أعرف أنها رقصتك المفضَّلة..». ابتسامتها من شهد وشطَّة.

«الخطَّة نجحت..». يقول لها بسعادة لم تحطّ عليه من قبل.

«الحياة أعقد من أي خطَّة يا حبيبي». تردُّ فتاة الحلوى بصوت يحوي تغريد كل البلابل، تميل عليه في رقدته، تهمس في أذنه، شعرها يداعب

وجنته، لكن كلامها يحيِّره.

« إذن...؟»

طبعا... عندها حق... يشعر بزهرتيه العاج تحفران في فخذه الأيسر... أخيرا قد فهم...

« نعم يا حبيبي... $d(f^T(x), f^T(y)) > \delta$... بالضبط».

تقول فتاة الحلوى ثم تنقطع الأضواء.

***